أوسكار وايلد

De Profundis

من الأعماق

- [illegible]
  الشهير الذي أرسله وايلد من سجنه
- [illegible]
- [illegible]
- [illegible]

الجزء الثاني والأخير

ترجمة

عبد اللطيف محمد الدمياطي

أوسكار وايلد

DE PROFUNDIS

[من الأعماق]

مع تعليقات بقلم : روبرت هارت دافيز

ومقال تحليلي بقلم : و . هـ . أودن

ثم

القصة الشعرية عن سجن ريدنج

ترجمة

عبد اللطيف محمد الدمياطي

الطبعة الأولى ـ القاهرة ١٩٦٨

نشر وتوزيع

مطبعة ومكتبة الدار المصرية

مؤسسة عربية للطباعة والنشر والتوزيع

٢٢ شارع سامى - المالية ت : ٣٢٥٧٨

القاهرة ج.ع.م

خطاب الى :

لورد الفرد دوجلاس

DE PROFUNDIS

[من الأعماق]

إلى لورد الفرد دوجلاس

(النسخة الأصلية : المتحف البريطانى)

(يناير — مارس ١٨٩٧) سجن صاحبة الجلالة ، ريدنج

(وصل لما سبق فى الجزء الأول)

وحينما صارحت المحامى بأنه ليس لدى مال لمواجهة النفقات الباهظة تدخلت أنت فى الحال ، فقلت إن أسرتك يسرها أن تقوم هى بدفع جميع التكاليف اللازمة . فقد كان أبوك شيطانا يسبب المتاعب لأفرادها ، وهو ما جعلهم يفكرون فى وضعه فى مصح عقلى ليتخلصوا من شره . وقلت إنه كان دائما مصدر إزعاج وتكدير لوالدتك ولغيرها ، وهو ما يجعلنى أبدو فارسا فى نظر العائلة ، بل ومحسناً إليها ، إذا قمت بما يؤدى إلى حجزه بعيداً ، وإن أقارب والدتك الأثرياء سينظرون إلى الأمر بارتياح فلا يشق عليهم دفع جميع النفقات . وبسماع ذلك أغلق المحامى باب الحديث فى الحال . فلم يبق لى عذر للتردد فى الذهاب إلى المحكمة ، والواقع أنى أكرهت على ذلك . وبالطبع لم تدفع العائلة شيئا من النفقات . وحينما أشهر إفلاسى كان ذلك بتدبير والدك ، وبسبب تلك النفقات نفسها ، أو الجزء الذى كان باقيا منها ، وكان حوالى ٧٠٠ جنيه[٦٠] .

إن زوجي ، وقد شعرت بالنفور مني بسبب الخلاف على مسألة هامة ، وهي ما إذا كان يجب أن أحصل منها على ثلاثة جنيهات في الأسبوع ، أو ثلاثة وعشرة شلنات ، لأعيش عليها ، تعد الآن قضية للطلاق . ولابد لهذه القضية من بينة جديدة ، ومحاكمة جديدة ، بالطبع ، وقد تتخذ فيها إجراءات أشد عنفا . ولست أعلم ، بطبيعة الحال ، ماهي التفاصيل . وكل ما أعلمه هو اسم الشاهد الذي يعتمد عليه دفاع زوجي الادلاء بالبينة ؛ فهو نفسه خادمك في أكسفورد ، ذلك الذي ألحقته بخدمتي بناء على طلبك حينما ذهبنا للاصطياف في جورنج .

غير إنني في الواقع لست في حاجة إلى عرض أمثلة أكثر من المحتوم العجيب الذي يبدو أنك جلبته علي في جميع الأمور . كبيرها وصغيرها . فالأمر يجعلني أشعر أحيانا كما لو كنت أنت نفسك مجرد دمية تحركها يد غير منظورة ؛ لتأتي بحوادث مريعة تتمخض دائما عن نتيجة مريعة ! غير أن الدمى نفسها لها أهواؤها ؛ فهي تأتي بمكيدة جديدة فيما تحدثه . ثم تلوي النتيجة المفروضة عليها من وراء التغييرات لترضي هوى لها أو تشبع رغبة . وأن يكون الإنسان حراً تماماً ويكون في نفس الوقت محكوماً تماماً بقانون ، فهذا هو التناقض الأزلي في الحياة الإنسانية الذي نميزه في كل لحظة . وهذا هو التفسير الوحيد الممكن لطبيعتك ، كما فكرت دائماً ، إذا كان يمكن أن يكون هناك حقيقة أي تفسير لماتنطوي عليه النفس البشرية من أسرار عميقة مخيفة ، اللهم إلا ذلك الذي يجعل من السر أشد غرابة !

بالطبع كان لك تصوراتك ، وقد عشت فيها بلاشك ، ورأيت من خلال ضبابها المتغير وحجبها الملونة جميع الأشياء تتغير . ولقد اعتقدت ،

وهو ما أذكره جيداً ، أنك بتكريس نفسك لى إلى حد تجاهل أسرتك واستبعاد حياتها تماماً قد أقمت الدليل على تقديرك وحبك لى إلى أبعد حد . وإنما فاتك أن تذكر أنك معى قد وجدت الترف ، والحياة الراقية ، والمسرات التى لاحد لها ، والمال الذى يعطى بغير حساب . لقد كانت معيشة أسرتك مملة لك ، وكان « نبيذ سالزبورى البارد الرخيص » — على حد تعبيرك — مما تمجه نفسك . أما بجانبى ، وعلى طول ألوان جاذبيتى ، فقد كنت تجد المن والسلوى . وحينما كنت تفتقدنى لم يكن الرفاق الذين استعضت عنى بهم من المتملقين .

ولقد اعتقدت ثانية أنك بإرسال خطاب إلى أبيك عن طريق محام تعلن فيه أنك بدلا من قطع صلتك الخالدة بى تفضل التنازل عن المنحة التى خصصها لك — وكانت ٢٥٠ جنيها فى العام ، بعد حسم ديونك فى أكسفورد على حد علمى — اعتقدت أنك بذلك الإجراء قد قمت بأروع ضروب الفروسية فى الصداقة وضربت على أسمى النغمات فى انكار الذات . غير أن تنازلك عن تلك المنحة الصغيرة لم يكن يعنى استعدادك للتنازل عن شىء لا مما يستغنى عنه من الضروريات بل ولا حتى من الكماليات . بل على العكس لم تكن شهيتك إلى حياة الترف أشد مما كانت يوم أن اتخذت ذلك القرار . لقد بلغت نفقاتى فى ثمانية أيام فى باريس ، عن نفسى وعنك وعن خادمك الإيطالى ، حوالى ١٥٠ جنيها ، ابتلع منها فندق « بيار » وحده ٨٥ جنيها . وبالمعدّل الذى رغبت فى أن تعيش عليه فإن إيرادك السنوى كاملا لم يكن يكفيك لأكثر من ثلاثة أسابيع ، حتى لو قصرت الأمر على تناول الطعام وحده ، واكتفيت بألوان من اللهو الرخيص . إن تنازلك عن تلك المنحة كيفما كانت ، وهو فى الواقع ضرب من الشجاعة الصورية ، هيأ لك أخيراً سبباً شبه معقول ، أو هكذا رأيته ،

المطالبة بأن تعيش على حسابى . وقد حدث كثيراً أن استفدت جديا من ذلك ، بل وعبرت عن حقك فيه بكل وضوح . ولم يكن ذلك الاستنزاف المستمر ، وقد وقع أكثره علىّ بالطبع ، وإن كان — كما علمت — قد وقع على والدتك أيضاً إلى حد ما ، لم يكن قط هكذا محزنا ؛ وذلك لأنه ، فيما يتعلق بى على كل حال ، لم يكن قط مصحوباً بأقل كلمة شكر ولا بأضعف إحساس بالقناعة .

ولقد اعتقدت ثانية أنك بمهاجمة والدك بخطابات مخيفة ، وبرقيات بذيئة وبطاقات جارحة ، كنت تقوم حقيقة بمعارك لصالح والدتك ، وتتقدم كبطلها الدافع للثأر عما لا شك فى أنه كان أخطاءً مريعة وآلاماً فى حياتها الزوجية . وكان هذا وهما منك ، بل كان بالتأكيد من أسوأ أوهامك . فالطريق للثأر من أبيك عما ارتكبه مع والدتك من أخطاء ، إذا كنت ترى أن مثل هذا الأمر من واجب الإبن ، كان فى أن تجعل من نفسك ابناً لها أصلح مما كنت . فلا تجعلها تخشى أن تكلمك فى الأمور الجدية ، ولا تقسرها على تسديد حساب فواتير وقعت عليها فى رعونة ، ولا تخاشنها فى المعاملة ، ولا تجلب الأحزان إلى حياتها بأى سبب . لقد قام أخوك فرنسيس(٦١) بتعويضها عما قاسته بدرجة عظيمة ، وذلك بمعاملته الرقيقة الطيبة لها خلال السنوات القليلة من حياته التى كانت فى عمر الزهور . فكان حريا بك أن تتخذ منه مثالا . ولكنك كنت مخطئاً حتى فى تصورك أنك ستجعل والدتك تشعر بسرور كبير إذا استطعت بواسطتى أن تدفع أباك إلى السجن . كنت مخطئاً فى ذلك بلاشك . فإذا أردت أن تعلم ماذا يكون عليه شعور المرأة إذا رأت زوجها ووالد بنيها قد ارتدى ملابس السجن وأصبح يعيش فى زنزانة منه ، فما عليك إلا أن تكتب إلى زوجتى فى ذلك ، فهى تستطيع أن تنبئك بالحقيقة .

وكان لى أيضاً تصوراتى . فقد اعتقدت أن الحياة صائرة إلى ملهاة متألقة ، وأنك واحد من كثيرين سيكونون فيها مثالا للطف الشمائل . فإذا بى أراها مأساة متمردة منفرة ، وأراك مناسبة منحوسة لنكبة كبرى ، وقد كانت منحوسة بتركز هدفها وتكشفه فى قوة الإرادة المحدودة ؛ وذلك بعد تجردك من ذلك القناع من البشر والسرور الذى لم يكن انخداعك به أقل من انخداعى ، وهو ماذهب بنا بعيداً عن الواقع .

إنك تستطيع الآن أن تدرك ولو قليلا مما أتألم منه . أم تراك لا تستطيع ؟ لقد ذكرت إحدى الصحف — وأحسبها كانت « البال مال غازيت » — ذكرت شيئاً عن التجربة الأخيرة لواحدة من تمثيلياتى ، فكان مماذكرته أنك كنت متابعاً لى ، كما لو كنت ظلا . وأقول إن ذكرى صداقتنا هى الظل الذى يتابعنى هنا ، والذى يبدو أنه لا يتركنى قط . فهو يوقظنى فى الليل ليخبرنى نفس القصة ، ثم يعيدها على ويعيدها حتى يهجرنى النوم بفعل تكرارها الممل وهكذا حتى مطلع الفجر . وعند الفجر يبدأ ثانية . وهو يتبعنى إلى فناء السجن ويجعلنى أكلم نفسى بينما أنا أدور حول المكان . وكل شىء من التفاصيل التى حدثت فى كل لحظة مخيفة أرى نفسى مقسراً على تذكره . وليس هناك شىء حدث فى تلك السنوات المنحوسة لا أستطيع إحياءه فى ذلك الجزء من مخى الذى خصص للحزن واليأس . إن كل نبرة متوترة من صوتك ، وكل حركة عصبية من يديك ، وكل كلمة مرة ، وكل جملة مسمومة — كل ذلك يعاودنى باستمرار . اننى أتذكر الطريق أو النهر الذى سرنا بجانبه ، والحائط أو الحرج الذى اكتنفنا ، كما أتذكر الأرقام التى وقفت عليها عقارب الساعة ، والاتجاه الذى انطلقت فيه الرياح ، وماذا كان شكل القمر ، وماذا كان لونه .

هناك جواب واحد عن كل ذلك ، كما أعلم ، وهو أنك أحببتنى . وأنك طوال الثلاثين شهراً التى مضت الاقدار تنسج خلالها من خيوط حياتينا المنقسمتين نموذجاً فرمزياً كنت تحبنى حقاً . بلى ، إننى أعلم ذلك . فبغض النظر عما كان عليه سلوكك معى شعرت دائماً بأنك فى أعماق قلبك كنت تحبنى حقا . ومع أننى كنت أرى فى وضوح أن مركزى فى عالم الفن ، وما كانت تثيره شخصيتى دائما من اهتمام ، وما كان فى يدى من مال ، وما كنت أعيش فيه من ترف ، وغير ذلك من أسباب جعلت حياتى تبدو لك ساحرة وغير متوقعة بصورة عجيبة — مع إنى كنت أرى أن كل هذا أو بعضه كان من عوامل افتتانك وتعلقك بى ، إلا أنه كان هناك شىء آخر أكثر أهمية ... شىء من الجاذبية الغريبة بالنسبة إليك . فقد أحببتنى أكثر من أى شخص آخر ؛ غير أنك ، كما حدث معى ، كنت قد عشت مأساة مريعة من حياتك ، وإن كانت مأساتك ذات طبيعة مضادة تماماً لمأساتى . فهل تريد أن تعلم ماذا كانت ؟ لقد كان البغض دائما فى نفسك أقوى من الحب . وكان بغضك لأبيك من المدى بحيث تجاوز حبك لى وقهره وطغى عليه . ولم يكن بينهما كفاح بالمرة ، أو ربما كان بينهما القليل . بتلك الأبعاد كان البغض فيك ، وفى ذلك التوحش نما . ولم تدرك أنه لا يوجد محل للانفعالين معاً فى النفس الواحدة ؛ فهما لايستطيعان أن يعيشا جنباً إلى جُنب فى ذلك المأوى الذى قسم بإنصاف .

إن الحب يغذيه الخيال . فبالخيال نصبح أعقل مما نعلم ، وأحسن مما نشعر ، وأنبل مما نحن . وبه نستطيع أن نرى الحياة كاملة . وبه ، وبه وحده ، نستطيع أن نفهم الآخرين فى صلاتهم الحقيقية وندركهم فى علاقاتهم المثالية(٦٢) . والحب لا يغذيه إلا ما هو جميل ، أو ما أمكن

إدراكه فى جمال . أما البغض فيغذيه كل شىء . وهكذا لم يكن هناك قدح من جيد النبيذ تجرعته ، ولا طبق من شهى الطعام تذوقته ، طوال تلك السنوات ، لم يغذ فيك روح البغض ويجعله أشد استشراء . ولكى تشبعه فى نفسك مضيت تقامر بحياتى ، كما كنت تقامر بنقودى ، وتفعل ذلك فى غير اكتراث ، وفى غير ترو ، وفى غير تقدير للعواقب . فإذا جاءت النتيجة خساراً تصورت أنه لن يقع عليك ، وإذا جاءت ربحا رأيت أنك جدير بنشوة الانتصار وما يتأتى من أكاليل الغار !

إن البغض يعمى البصائر . وهـــذا ما لم تـكن تعلمه . أما الحب فيستطيع أن يقرأ ما سطر على أبعد النجوم . وإنما أعماك البغض فلم تستطع أن ترى أكثر من حديقة رغباتك السافلة ، بمّا هى فيــــه من ضيق وحصر وشهوات ذبلت . وكان قصورك المريع فى التخيل ، وهو فى الواقع ما اعتور طبعك من نقص مشئوم(٦٣) ، كان بصورة تامة نتيجة لما نما فيك من بغض . فقد مضى البغض يأكل فى طبيعتك فى خبث وسكون وخفاء ، كما تأكل حشيشة البحر فى نبات أصفر ، حتى عدت لا ترى من بواعث الاهتمام إلا أتفهها ، ولا من الأهداف إلا أحقرها . فقد استطاع البغض أن يسمم فيك تلك الملـكة التى كان الحب قادراً على أن يغذيها ، وأن يشلها .

عندما هاجنى والدك فى البدء كان ذلك باعتبار أنى صديق لك ، وفى خطاب خاص بعث به إليك . وحالما اطلعت على ما جاء فى الخطاب من تهديدات وقحة واعتداءات خشنة رأيت فى الحال أن خطراً مريعاً أخذ ينسج خيوطه على أفق أيامى التعسة . فأخبرتك أنى لن أكون مخلب قط بينكما فى بغضكما القديم أحدكما للآخر ؛ وأنى لم أكن صيدا سهلا له فى لندن كما كان وزيرا للشئون الخارجية فى هامبورج(٦٤) ؛ وأن لدى

لشغل حياتى ما هو أفضل من الدخول فى مشاجرات مع رجل سكير ، منحرف الوضع ، شبه معتوه . ولم يكن من السهل أن أجعلك ترى ذلك ؛ فقد أعماك البغض فأصررت على أن النزاع لا يعنينى فى الحقيقة ، وأنك لن تسمح لوالدك بأن يملى عليك فيما يتعلق بصداقاتك الشخصية ، وأنى أكون ظالما إذا تدخلت فى الأمر . وقبل أن تحدثنى فى ذلك كنت قد أرسلت إلى والدك برقية حمقاء سافلة(٦٥) . وقد أداك ذلك بالطبع إلى اتخاذ نهج كله حماقة وسفالة .

إن الأخطاء المشئومة فى الحياة لا ترجع إلى طيش الشخص ؛ فرب لحظة طيش تكون أبدع اللحظات ، بل ترجع إلى منطقه . وهناك فرق كبير . فقد تحكمت تلك البرقية فيما تلا ذلك من علاقات لك بأبيك ثم تحكمت فى حياتى كلها نتيجة لذلك . وإنما الشىء الخيف عن تلك البرقية إنها كانت مما يخجل منه أحقر الرعاع ! وهكذا ، من برقيات وقحة إلى خطابات ملأها الغرور أرسلت من مكتب محامى ، كان الأمر يتقدم بشكل طبيعى وكان لتلك الخطابات التى أرسلت من مكتب المحامى أثرها فى حث والدك على المضى أبعد . فالواقع أنك لم تترك له فرصة للاختيار ، بل فرضت عليه الأمر كمسألة شرف ، أو بالأحرى مسألة عدم شرف ، وذلك لكى يكون لإثارتك تأثير أشد . وقد كان ، فإذا ما مضى يوجه إلى حملة ثانية لم يفعل ذلك فى خطاب خاص ، ولم يتكلم عنى كصديق لك ، بل مضى يهاجمنى علانية ، باعتبار أننى من العامة . فإذا ما طردته من بيتى ذهب يبحث عني فى مطعم بعد آخر ، وذلك ليجرّحنى أمام الناس جميعاً ، ويفعل ذلك فى أسلوب إن قابلته بالمثل كان فى ذلك خراب على ، وإن تجاوزت عنه كان فيه خراب على كذلك .

وحينئذ ، أو لم يكن ذلك بالتأكيد هو الوقت المناسب لك لكى

تتقدم وتعلن أنك لا ترى أن تعرضنى بسببك لمثل تلك الحملات الشنيعة والاضطهاد الشائن بل تتنازل ، فى رضاء وتسليم ، عن كل ادعاء لك فى صداقتى ؟ أعتقد أنك تشعر الآن بأن ذلك كان ما يقتضيه الحال . غير أن هذه الفكرة لم تخطر لك ببال . فقد أعماك البغض فكان كل ما فكرت فيه (بجانب تلك الخطابات والبرقيات الجارحة التى كنت تعطره بها) شراء غدارة مضحكة ، تنطلق فى مطعم « بركلى » فى ظروف كانت كافية لخلق فضيحة أسوأ مما خطر لك ببال ! والحق إن تلك الفكرة ، وهى انك موضوع خصام فظيع بين والدك وبين رجل فى مثل مركزى ، قد بدت لك سارة ؟ فهى ، كما افترض منطقيا ، قد أرضت غرورك وتملقت فيك أهمية الذات . وكان من الحلول المؤلمة المسألة فى تقديرك أن يكون أبوك قد استأثر بجسدك الذى لا يهمنى وترك لى روحك التى لا تهمه ! فكان أن شعرت بفرصة لفضيحة علنية فجريت إليها . وكان منظر معركة تكون فيها فى أمن من بواعث سرورك . ولا أذكر أنك كنت مبتهجا قط كما كنت فى ذلك الوقت . وإنما كانت خيبة أملك الوحيدة فى أن شيئاً ما لم يحدث عمليا ، وأنه لم يعد هناك بيننا لا اجتماعات ولا مشاجرات . فلم يكن أمامك إلا أن تعزى نفسك بإرسال برقيات إليه كانت بطبيعتها كافية لحمل الرجل التعيس فى النهاية على أن يكتب إليك قائلا أنه أصدر أمراً إلى خدمه بعدم تقديم أى برقية إليه تحت أى ادعاء مهما كان . غير أن هذا لم يثبط عزمك ، فقد وجدت الفرصة فى بطاقات البريد المفتوحة ، واغتنمتها كاملة . فمضيت تثيره ليندفع أبعد فى المطاردة . وأعتقد أنه لم يكن قادراً على التراجع . فقد كانت غرائز الأسرة قوية فيه ، وكان بغضه لك لا يقل ثباتاً عن بغضك له ، وكنت أنا حصان المطاردة لكليكما ،

وسهم الهجوم ودرع الدفاع . ولم تقتصر شهوته للتشهير على ما كان يحتمل فى نفسه ، بل كانت خطاباتك وبطاقاتك تثيره من جديد فيعود إلى تأججه السابق . فكان من الطبيعى أن يمضى قدماً . وهكذا ، فبعد أن هاجمنى خفية كرجل ذى مكانة عاد فهاجمنى علنا كرجل من العامة . ثم صمم أخيراً على أن يوجه إلى ضربته النهائية كفنان ، وأن يوجهها فى نفس المكان الذى يعرض فيه فني . فاستطاع بالخداع أن يحجز مقعدا فى الليلة الأولى لتمثيل واحدة من رواياتى ، ورسم خطة خبيثة لمقاطعة التمثيل وإلقاء كلمة قذرة عنى على النظارة ، وإهانة الممثلين ثم توجيه مقذوفات بذيئة إلى حينما أدعى فى الختام للوقوف أمام الستار . كل ذلك للقضاء على بطريقة خبيثة فى مجال أعمالى ! وإنما حدث بمحض الصدفة ، فى لحظة إخلاص عرضية من حالة كانت عادة أشد من حالة رجل ثمل ، حدث أن مضى يفاخر بخطته أمام بعض الناس ، فوصل النبأ إلى الشرطة ، وكان أن حجزته بعيداً عن المسرح . وكان لديك الفرصة حينئذ ، فقد جاءتك المناسبة فى ذلك الوقت . أو لا تدرك الآن أنه كان يجب عليك أن تراها ، فتتقدم لتقول انك لا تود أن تترك فنى يقضى عليه بسببك مهما كانت الأحوال ؟ لقد علمت ماذا كان فنى بالنسبة إلى . إنه كان العلامة الكبرى التى استطعت بها أن أكشف عن نفسى ، لنفسى أولا ثم للعالم بعد ذلك . لقد كان الانفعال الحقيقى لحياتى . كان الحب الذى لم يكن كل حب آخر بالنسبة إليه أكثر من ماء المستنقع بالنسبة إلى النبيذ الأحمر ، أو يراعة المستنقع بالنسبة إلى مرآة القمر السحرية . أو لا تدرك الآن أن افتقارك إلى التخيل كان حقاً ما اعتور خلقك من نقص مشئوم(٦٦) ؟ لقد كان الشىء الذى وجب أن تفعله فى منتهى البساطة ، بل وفى منتهى الوضوح . غير أن البغض كان

قد أعماك ، فلم تستطع أن ترى شيئاً ! لم يكن فى استطاعتى أن أعتذر لوالدك عن مضيه فى تجريحى واضطهادى بأقذر الأساليب لمدة تقرب من تسعة أشهر . كذلك لم يكن فى استطاعتى أن أقذف بك خارج حياتى ، فقد حاولت ذلك مرة بعد أخرى ، وذهبت فى محاولتى إلى حد ترك انجلترا والذهاب إلى الخارج لكى أتخلص منك ، دون جدوى . إذن فقد كنت الشخص الوحيد الذى كان فى استطاعته أن يفعل شيئا . فقد بقى معك مفتاح الموقف كله ، وقد واتتك أعظم الفرص لتقوم بشىء طفيف كرد على ما أبديته نحوك من محبة ومودة وشفقة وسماحة . ولو كنت قدرتنى ولو عشر قيمتى كفنان لفعلت ذلك . غير أن البغض أعماك . وكانت القدرة العقلية « التى بها ، وبها وحدها ، نستطيع أن نفهم الآخرين فى علاقاتهم الحقيقية والمثالية »(٦٧) ميتة فيك . فقد مضيت تفكر فى بساطة كيف تستطيع أن تضع أباك فى السجن . . . كيف يمكن أن تراه « فى القفص » ، كما كنت تقول دائما . كانت تلك فكرتك الوحيدة ، وقد أصبحت تلك العبارة من « المناشير » العديدة فى حديثك اليومى . وكنت أسمعها منك أثناء كل وجبة . حسناً ، لقد أوتيت سؤلك وأشبعت رغبتك . فقد أتاح لك البغض كل شىء رغبت فيه . وكان سيدا لك ، كما هو فى الواقع مع كل من خضع له . فقد جلست طوال يومين فى مقعد عال بجانب رجال الادارة ، ومضيت تمتع ناظريك بمرأى والدك واقفاً فى قفص المحكمة الجنائية المركزية ؛ ثم حدث فى اليوم الثالث أن رأيتنى آخذ مكانه ! فما الذى حدث ؟ لقد حدث أنكما فى لعبة البغض المخيفة التى تباريتما فيها ألقيتما بـ « الزهر » مقامرين على حياتى ؛ فحدث أن كنت أنت الخاسر . كان هذا كل شىء .

إنك ترى أن على أن أكتب لك حياتك ، وأن عليك أن تدركها .

لقد عرف أحدنا الآخر الآن لمدة تزيد عن أربع سنوات . وكنا معاً نصف ذلك الوقت ،أما النصف الآخر فقد كان على أن أقضيه فى السجن ، كنتيجة لصداقتنا . أين ستتسلم هذا الخطاب ، إذا قدر له قط أن يصلك ، هذا مالا أعرفه . ليس لدى شك فى أن روما ، أو نابولى ، أو باريس ، أو فينسيا ، أو بعض المدن الجميلة على البحر أو على النهر ، مما يجتذبك . وإذا كنت لا تحيط نفسك الآن بشىء من وسائل الترف التى لا جدوى منها ، كتلك التى أتيحت لك معى ، فلا شك أنك لست محروما مما يسر العين والأذن والذوق ، على الأقل . فالحياة محبوبة لك للغاية . ومع ذلك ، فإذا كنت عاقلا ، وإذا رغبت فى أن تجد فى الحياة ما هو أحب كثيراً مما عرفته ، وأن تتذوقه بأسلوب آخر ، فيجب أن تجعل قراءة هذا الخطاب المريع — فالواقع إنى لا أجهل أنه كذلك . يجب أن تجعل قراءة هذا الخطاب تثبت لك أنها مهمة ، كأزمة ونقطة تحول فى حياتك ، كما فعلت كتابته معى . إن وجهك الشاحب كان يحمر بسهولة كلما تناولت النبيذ أو شعرت بشىء من السرور . فإذا شعرت حال قراءتك ما كتب هنا بأنه يلتهب خجلا من حين لآخر ، كما لو كان واقعاً فى أتون صهر ، فسيكون فى هذا كل الخير لك . تذكر أن أعظم الرذائل هو الضحالة ، أما مايدرك فهو صحيح مهما كان .

لقد وصلت الآن فى حديثى إلى مرحلة دخولى السجن . أوَ لم أفعل ؟ فبعد قضاء ليلة فى زنزانة الشرطة أرسلت إلى هناك فى عربة . وكنت غاية فى الإهتمام واللطف . فكل مساء تقريباً ، إن لم يكن توكيدا ، كنت تجشم نفسك مشقة القيام برحلة إلى « هولواى »(٦٨) . لكى ترانى . ومازلت تفعل حتى ذهبت إلى الخارج . كذلك قمت بكتابة خطابات كلها رقة ومودة . ولكن ، أن تكون أنت لا والدك من وضعنى

فى السجن ، وأن تكون أنت المسئول من البداية إلى النهاية ، وأن أكون هناك عن طريقك أنت ، وبواسطتك أنت ، ومن أجلك أنت — كل هذا لم يخطر لك ببال ! وحتى منظرى من وراء قضبان ذلك القفص الخشبي لم يستطع أن يحرك تلك الطبيعة الميتة بنضوبها من الخيال . لقد كنت تبدى العطف وتظهر الشفقة كمن يشاهد رواية محزنة ؛ غير أنه لم يخطر ببالك أنك كنت مؤلف تلك المأساة المخيفة ! فدل ذلك على أنك لم تستطع أن تدرك شيئاً مما فعلته . ولم أر أن أخبرك بما كان يجب أن ينبئك به قلبك ، بل وما كان فعلا قد أنبأك به لو لم تكن تركت البغض يحجره ويجعله عديم الإحساس . كل شىء يجب أن يأتى إلى المرء من طبيعته هو ، وليس هناك فائدة من إخباره بما لا يشعر به ولا يستطيع فهمه . فإذا كنت اكتب إليك الآن فقد كان ذلك لأن سكوتك وسلوكك أثناء سجنى الطويل جعل الأمر ضرورياً . فضلا عن ذلك ، فقد تكشف الأمر ووضح أن الضربة وقعت على وحدى ، وكان ذلك من بواعث سرورى ؛ فقد كان هناك أسباب عديدة جعلتنى أرضى بالعذاب . وإنما لاحظت شيئا ما فى تماميك المقصود جعلنى أشعر لك بالاحتقار . إننى أذكر كيف جئت فى عجب كبير تحمل خطابا نشرته عنى(٦٩) فى واحدة من الصحف الرخيصة . وكان حقا خطابا رزيناً هادئاً من النوع العادى فقد مضيت تتوسل فيه إلى « الادراك الانجليزى المنصف » — أو قلت شيئاً ما بهذا المعنى الكئيب — ليلتفت إلى رجل « كان يهوى إلى الحضيض » . ومثل هذا الخطاب قد يكتب حال توجيه تهمة قاسية إلى رجل من ذوى المكانة لم تكن لك به صلة ؛ ولكنك اعتقدت أنه كان مدهشا ، ومضيت تنظر إليه كدليل على فروسية تتواضع حيالها فروسية « دون كيشوت » ؛ ولا شك أنك كتبت خطابات أخرى إلى

صحف أخرى فلم تنشر(٧٠) . ولم يكن ذلك إلا لأنك كتبتها فى بساطة لتعلن أنك تبغض والدك . فهذا ليس بالأمر الذى يهتم به أحد ، فعلته أو لم تفعله . إنك لاتزال فى حاجة إلى أن تعلم أن البغض ، إذا اعتبر عقليا ، هو السلبية الأبدية . فإذا اعتبر من وجهة نظر الانفعال العاطفى فهو شكل من الضمور يقتل كل شىء ماعداه . إن من يكتب إلى الصحف ليقول إنه يكره زيداً أو عمروا من الناس لا يختلف عمن يكتب إليها معلنا أنه يعانى من مرض سرى مخجل . أما أن يكون الشخص الذى تبغضه والدك ، وأن يكون مثل هذا الشعور متبادل بصورة تامة ، فإن هذا لا يجعل من بغضك شيئاً نبيلا ولا جميلا بأى حال . فإن دل على شىء فهو لا يدل على أكثر من أنه مرض وراثى .

إنى أذكر أيضا يوم أن وضع الاجراء التنفيذى على بيتى ، ووقع الحجز على كتبي وأثاثى ، وأعلن عن بيعها ، إذ كنت واقعاً تحت طائلة الافلاس . وكان من الطبيعى أن أكتب إليك بهذا كله ؛ ومع ذلك فلم أذكر أن دخول المحضرين إلى منزلى ، حيث كنت تتغدى غالبا ، لم يكن إلا لتسديد أثمان بعض الهدايا التى قدمت إليك ! فقد اعتقدت ، مصيباً أو مخطئاً ، أن مثل ذلك القول قد يسبب لك بعض الألم . فاكتفيت بذكر الحقائق مجردة ، إذ كان من المناسب أن تحاط علماً بها . ووردت على من « بولونيا » فى نغم كاد أن يلهبه الجذل الحماسى ، فقلت أن والدك « يعبد القرش » ، وأنه كان مضطراً إلى تخصيص ١٥٠٠ جنيه كمصاريف للقضية ، وأن وصولى إلى حالة الافلاس يعتبر « كسبا بديعا » منه ؛ إذ أنه لن يستطيع فى هذه الحالة أن يحصل منى على شىء من تلك المصاريف ! فهل تدرك الآن ماهو البغض إذ يعمى الشخص ؟ هل تميز الآن انى حينما قلت أنه ضمور يدمر كل شىء إلا نفسه كنت أصف علميا واحدة من

الحقائق النفسية الصحيحة ؟ لقد كان بيع كل الأشياء المحبوبة التي كانت لدى ، من مجموعة صور « بيرن - جونز » ، ومجموعة « هويسلر » ، ومجموعة « مونتنشللى » ، ومجموعة « سيميون سولومونز » ، ومجموعتى من الخزف ، ومكتبتى بما حوته من مجلدات أهديت إلى من كل شعراء عصرى تقريباً ، من « هوجو » إلى « هوايتمان » . ومن « سوينبورن » إلى « مالارمى » ، ومن « موريس » إلى « ڤرلين » ، مع الطبعات ذات التجليد الفاخر من مؤلفات والدى ووالدتى ، والجوائز المدهشة التي حصلت عليها من المدارس والكليات ، وطبعات « د — لوكس » وغيرها — كان بيع كل ذلك ليس شيئاً بالمرة فى نظرك . فقد قلت إن ذلك كان عبئاً ثقيلا ، وكان هذا كل شىء ؛ أما الذى استطعت أن تراه فقد كان ذلك الاحتمال ، وهو أن والدك ربما خسر فى النهاية بضع مئات من الجنيهات . وكان ذلك التقدير التافه كافياً لجعلك تشعر بسرور لا حد له !
ومع ذلك فربما أهمك — بصدد نفقات القضية — أن تعلم أن والدك قد قال علانية فى « نادى أورليان » أنه إذا حدث أن كلفته القضية ٢٠٠٠٠ جنيه فإنه سيعتبر أن هذا المبلغ قد أنفق بطريقة سديدة ، إذ سيكون قد حصل على ما يبتغيه من استمتاع وسرور ونصر . وإنما استطاع أن يحصل على أكثر من ذلك ، وهو مالم يكن قد توقعه . فقد استطاع لا أن يضعنى فى السجن لمدة عامين وحسب ، بل أن يأخذنى أيضاً إلى الخارج بعد ظهر أحد الأيام يعلن إفلاسى على ملأ ! وكان فى هذا أقصى درجات اذلالى ، وكان فيه أقصى درجات انتصاره .

إنى أعلم جيداً أنه لو لم يفكر والدك فى الحصول منى على شىء من تلك النفقات لكنت أبديت كثيراً من الأسف على ضياع مكتبتى كاملة . وهى خسارة لا تعوض بالنسبة إلى رجل يشتغل بالأدب . والواقع إنها ،

من بين جميع خسائرى المادية ، كانت الوحيدة التى آلمتنى . وكان الواجب يقتضيك أن تشترى لحسابى ولو بعض كتبى . فأحسن ما فيها قد ذهب لقاء مبلغ لا يصل إلى ١٥٠ جنيها ، وهو مايقل عما كنت عادة أنفقه عليك فى أسبوع . وحتى لو لقيت فى ذلك بعض المشقة فقد كان يجدر بك أن تذكر تلك المبالغ التى أنفقتها عليك فى إسراف ، وكيف عشت سنوات على حسابى . غير أن السرور الحقير الذى استولى عليك حينما قدرت أن والدك سيخسر بضعة قروش من جيبه جعلك لا تفكر فى القيام بمحاولة لترد إلى بعض ما أسديته إليك من صنيع . وكان ما وجب عليك فعله شيئاً طفيفاً ، هينا ، لا يكلف كثيراً ، وكان يلقى منى أعظم ترحيب إذا فعلته . فهل ترانى جانبت الصواب إذ قلت إن البغض يعمى النفوس ؟ أفلا ترى ذلك الآن ؟ إن لم تكن رأيته فحاول أن تراه !

كيف رأيت ذلك بوضوح حينئذ ، كما أراه الآن ! لست فى حاجة إلى أن أخبرك . غير إنى قلت لنفسى : « مهما كلف الأمر ، فيجب أن أحتفظ بالحب فى قلبى . وإلا . فماذا يصير إليه حال روحى إذا دخلت السجن بغير حب ؟ » . وكانت الخطابات التى كتبتها إليك من « هو لواى » فى ذلك الوقت تعبر عما كنت أبذله من مجهود للاحتفاظ بالحب كدليل مسيطر من طبيعتى الحقة . وكان فى استطاعتى ، لو أردت ، أن أقطعك أربا بأساليب من التعنيف المرير ؛ وكان فى استطاعتى أن أمزقك باللعنات ؛ وكان فى استطاعتى أن أرفع أمامك مرآة تنعكس عليها صورة منك لاتستطيع أن تميز فيها صورتك إلا بعد أن ترى ما فيها من انعكاس لحركات الرعب الذى استولى عليك . وحينئذ تعلم لمن تكون ، فتبغضها وتبغض نفسك إلى الأبد . من المؤكد أنى كنت أستطيع أكثر من ذلك ، فقد كانت هناك خطايا شخص آخر موضوعة تحت

تصرفى وداخلة فى رصيدى ، إذا أردت . وكان فى استطاعتى فى كل من المحاكمتين أن أنقذ نفسى على حساب صاحب تلك الأخطاء ، لا من السجن وحسب بل من الفضيحة أيضاً . فلو كنت قبلت أن أعلن أن شهود التاج — أقصد الثلاثة المهمين منهم — قد دربوا جيداً بواسطة والدك ومحاميه ، لا على الاخفاء وحسب بل على التوكيد أيضاً ، فعزوا إلى أفعال شخص آخر وتصرفاته ، وفعلوا ذلك عن قصد وعن تدبير وعن تلقين ، لكان ذلك كافياً لحمل القاضى على طردهم من المحكمة فى الحال ، كما فعل مع شاهد الزور ايتكنز(٧١) المسكين . وإذن لخرجت من المحكمة رابط الجأش ويدىّ فى جيبى : رجلا يتمتع بكامل حريته . والواقع أنه وقع على ضغط شديد لأفعل ذلك ، ووجه إلى النصح والرجاء والتوسل فى حرارة من جانب أناس يبتغون الخير لى ولبيتى . غير إنى لم أر أن أسلك ذلك السلوك . ولم أشعر بأسف على هذا الرأى حتى فى أحلك ساعات سجنى ؛ فقد كان مثل ذلك التصرف دون مستواى . ولا عجب ، فخطايا الجسد ليست بشىء ، فهى فى الواقع أمراض يتولاها الطبيب بالعلاج ، إن كان من الضرورى أن تعالج . أما خطايا النفس فهى المخزية ، ولو كنت سلكت تلك الطريقة لأنجو من السجن لبقى الأمر طوال حياتى مصدراً لعذابى . ولكن ، هل تعتقد أنك كنت حقاً جديراً بالحب الذى كنت حينئذ أشعر به نحوك ؟ أو إنى رأيتك جديراً به لحظة واحدة ؟ هل تعتقد أنك كنت حقاً فى أى وقت من صداقتنا جديراً بالحب الذى كنت أظهره لك ؟ أو إنى رأيتك جديراً به لحظة واحدة ؟ غير أن الحب ليس مما يباع ويشترى فى سوق عام . وهو ليس مما يوضع فى كفتى بائع متجول . فالسرور فيه ، كما هو السرور فى كل شىء عقلى ، أن يشعر بنفسه حيًّا ؛ والهدف منه هو الحب نفسه ، لا أكثر ولا أقل . لقد

كنت عدوّى ، وكنت عدواً لم يره قط إنسان . فقد أعطيتك حياتى فاطرحتها جانبا لكى تشبع فى نفسك أحط الغرائز وأحقرها ، وهى البغض ، والغرور ، والجشع . وفى أقل من ثلاث سنوات كنت حطمتنى تماما من جميع النواحى . أما من جانبى فإنه لم يكن لى غرض سوى أن أحبك . فقد كنت ولا أزال أضرب فى صحراء الوجود الجافة ؛ وقد علمت أننى لو سمحت لنفسى بأن أشعر نحوك بالبغض لوجدت كل صخرة فى هذه الصحراء فقدت ظلها ، وكل نخلة جفت ، وكل بئر جاءت بدليل على أنها مسمومة من القاع . فهل بدأت الآن تفهم قليلا ؟ هل تشعر بأن مخيلتك بدأت تستيقظ من ذلك السبات الطويل الذى وقعت فيه ؟ لقد علمت من قبل ما هو البغض ، فهل بدأت تدرك ماهو الحب ، وماهى طبيعته ؟ إن الوقت لم يفت لتعلم شيئاً عن ذلك ؛ وإن كنتُ ، لكى أعلمك ما هو الحب ، وجب أن أدخل زنزانة متهم !

بعد صدور الحكم المريع ، وحينما وجدت نفسى أرتدى ملابس السجن ، ورأيت بابه يغلق على ، جلست بين خرائب حياتى العجيبة . وقد عصرنى الكرب ، وأربكنى الهول ، ودوخنى الألم . غير إننى لم أشعر لك ببغض . فقد كنت كل صباح أقول لنفسى : يجب أن أحتفظ بالحب فى قلبى هذا اليوم ؛ وإلا فكيف أعيش طوال اليوم ؟ وكنت أذكر نفسى بأنك لا تعنى شراً ، بالنسبة إلى على الأقل . فقد وطنت نفسى على أن أراك لم تفعل أكثر من أن استعملت قوساً فى مجازفة فحدث أن اخترق السهم ملكا بين فاصلق عدة الحرب(٧٢) . وقد شعرت بأنى لو وزنتك بأقل أحزانى وأتفه خسائرى لما كان فى ذلك إنصاف . فعزمت على أن أعتبرك شخصاً يتألم كذلك . لقد أقسرت نفسى على الاعتقاد بأن الغطاء قد سقط أخيراً عن عينيك اللتين أصابهما العمى طويلا ، ومضيت أتخيل

فى ألم ماذا سيكون عليه حالك من الفزع يوم أن تكون تأملت فى عملك المريع ! كانت هناك أوقات ، حتى فى تلك الأيام المظلمة التى كانت أسود أيام حياتى ، كنت أشعر فيها برغبة شديدة فى تعزيتك ؛ فقد كنت أعتقد أنك أدركت أخيراً ماذا فعلته .

ولم يكن قد خطر ببالى حينئذ أنك منيت بأعظم الرذائل ، وهى الضحالة . والواقع إننى شعرت بحزن بالغ حينما رأيت نفسى مضطراً إلى إخبارك أننى احتفظت بأول فرصة للمكاتبة ليكون ذلك فى شئونى العائلية . غير أن صهرى كان قد كتب إلى قائلا إننى لو كتبت إلى زوجتى ، ولو مرة واحدة ، فإنها – إكراماً لى ولأولادنا – ستعدل عن رفع قضية لطلب الطلاق . فشعرت بأن الواجب يقتضينى ذلك . وحتى لو طرحت جانباً أسباباً أخرى فإننى لم أكن لأحتمل فكرة انفصالى عن « سيريل » ، طفلى الجميل ، المحب المحبوب ، أصدق أصدقائى جميعا ورفيقى بعد كل الرفاق – ذلك الذى كانت الشعرة الواحدة من رأسه الذهبى الصغير أعظم قيمة فى نظرى دائماً . لا أقول فقط منك من رأسك إلى قدمك بل من جميع مرجان العالم كله[٧٣] ، وإن كنت لم أدرك ذلك إلا فى وقت متأخر .

بعد مضى أسبوعين على طلبك وصلتنى منك أخبار . فقد جاء « روبرت شيرارد »[٧٤] ، أشجع الرجال اللامعين وأنبلهم ، جاء ليرانى ، وأخبرنى – بين أشياء أخرى – أنك فى سبيل نشر مقال عنى ، مع نماذج من خطاباتى ، فى « ميركير د فرانس » ، تلك الصحيفة المضحكة التى زعمتَ فى سخف أنها المركز الحقيقى للفساد الأدبى ! ثم سألنى ما إذا كنت حقا قد رغبت فى ذلك ؛ فاندهشت وانزعجت ، وأمرت بإيقاف ذلك فورا[٧٥] . لقد علمت أنك تركت خطاباتى مطروحة هنا وهناك ، ليسرقها رفاق من المشهورين ، ويختلسها خدم الفنادق وتبيعها الخادمات .

ورأيت أن هذا يرجع فى بساطة إلى قصور حاستك فى تذوق ما كنت أكتبه . أما أن تعمد جادا إلى نشر مختارات من ذلك الرصيد فإن هذا كان مما صعب على تصديقه . ثم أياً من خطاباتى كانت تلك ؟ لم أستطع معرفة ذلك . كان هذا أول ما وصلنى منك من أنباء . وقد كدرتنى طبعاً .

ثم جاءت الدفعة الثانية من الأنباء بعد ذلك بوقت قصير . فقد جاء محاميو أبيك إلى السجن ، وقدموا لى شخصياً إعلانا بالافلاس عن مبلغ تافه هو ٧٠٠ جنيه كان إجمالى أتعابهم المفروضة . وقد صدر الحكم معلنا أننى مفلس ، وأمر القاضى بإحضارى إلى المحكمة . فرأيت ، ولا أزال أرى — وسأعود ثانية إلى الموضوع — رأيت أن هذه الأتعاب كان يجب أن تدفع بواسطة عائلتك . فقد أخذت على نفسك شخصيا مسئولية ذلك حينما ذكرت أن العائلة ستقوم بذلك . وكان هذا ما جعل المحامى يقبل القيام برفع الدعوى بالطريقة التى اتبعها . إنك كنت المسئول تماماً . وحتى لو صرف النظر عن تعهدك لصالح عائلتك ، فقد كان يجب أن تشعر بأن أقل ما يجب عليك ، وقد كنت المتسبب فى جر كل ذلك الخراب على ، أن تكفينى عناء فضيحة أخرى جاءت بإعلان إفلاسى بسبب مبلغ حقير للغاية ، إذ كان أقل من نصف ما أنفقته عليك فى ثلاثة شهور قصيرة من الصيف فى «جورنج» . على كل حال لن أقول هنا أكثر فى هذا الموضوع . إننى أسلم بأننى تلقيت رسالة جاءت منك عن طريق المحامى بصدد الموضوع ، أو انها كانت تتصل بالمناسبة على كل حال ففى اليوم الذى جاء فيه ليتلقى إقرارى وأقوالى مال نحو المائدة — وكان السجان موجودا — وبعد أن راجع ورقة أخرجها من جيبه قال لى فى صوت منخفض : «إن الأمير فلير د ليس(٧٦) يبلغك تحياته» . فحملقت فيه ، لأسمع منه إعادة لنفس الرسالة . ولم أدرك

ما يعنى . فأضاف فى غموض : « إن السيد فى الخارج حالياً » . فوضح لى كل شىء . وإنى أذكر أنى ضحكت ساعتئذ المرة الأولى ، بل والأخيرة ، فى حياتى فى السجن . وكانت تلك الضحكة تعبيراً عن سخريتى من العالم كله . الأمير د ليس ! ... لقد رأيت ، وأظهرت لى الحوادث المتعاقبة أننى كنت محقا فيما رأيت ، رأيت أن كل ما حدث لم يمنعك على إدراك شىء ! فقد كنت لا تزال ترى نفسك أميراً خفيف الروح فى ملهاة ، لا شخصية مظلمة فى مأساة . فكل ذلك الذى حدث لم يكن سوى ريشة فوق قبعة تزين رأسا ضيقة ؛ أو زهرة تزخرف صديرية تخفى قلباً لا يبعث فيه الحرارة إلا البغض ، أما الحب فإنه يجمله أكثر برودة ! الأمير فلير د ليس ! ... لا شك أنك كنت مصيباً حينما رأيت أن تراسلنى تحت اسم مزعوم ؛ فالواقع أننى أنا نفسى لم يكن لى اسم فى ذلك الوقت . ففى ذلك السجن الكبير ، حيث حبست حينئذ ، لم أكن إلا رقما ، أو حرفا ، للزنزانة الصغيرة من الممر الطويل ، واحداً من ألف رقم عديم الحياة ، كواحدة من ألف نفس انعدمت فيها الحياة ! غير أنه كان هناك ، بالتأكيد ، أسماء حقيقية كثيرة تضمنها التاريخ الصحيح ، كانت أكثر ملاءمة لك . ولم يكن من الصعب على أن أميز أياً منها فى الحال . فلم أكن قد فكرت فى البحث عنك خلف وميض حبات « الترتر » التى ترصع ثوباً تهريجياً لا يلبس إلا فى حفل تنكرى ! يا للأسف ، فلو كانت نفسك قد جرحت بفعل الألم ، وانحنت بفعل الندم ، وتواضعت بفعل الأسى ، وكان حريا بها أن تفعل ، ولو بدافع من السعى نحو الكمال ، لو كانت نفسك قد فعلت ذلك لما اختارت مثل ذلك الأسلوب التنكرى باحثة تحت ظله عن مدخل إلى بيت الآلام ! إن الأشياء العظيمة فى الحياة هى كما تبدو : وبذلك السبب ، وهو ما قد

يبدو لك غريباً ، فإنها صعبة التفسير . أما الأشياء الحقيرة فإنها رموز . ونحن نتلقى بواسطتها أشد دروسنا مرارة ، ونتلقاها بكل سهولة . وقد كان اختيارك اسما مصطنعا ، وقد حدث بطريقة عرضية كما يبدو ، كان شيئاً رمزياً ، وسيبقى كذلك ، فهو يكشف عن حقيقتك .

بعد ستة أسابيع جاءت دفعة ثالثة من الأنباء . فقد دعيت من أحد عنابر المستشفى حيث كنت طريح المرض أعانى منه فى تعاسة — دعيت لأتلقى رسالة خاصة منك بواسطة مدير السجن . وقرأ على من خطاب وجهته إليه ما صح عليه عزمك ، وهو نشر مقال « عن قضية مستر أوسكار وايلد » فى صحيفة « ميركير د فرانس » (التى تناظر مجلتنا الإنجليزية « فورتنايتلى ريفيو ») ، كما أضفت بسبب غريب . وأنك مهتم بالحصول على موافقتى على نشر مختصرات ومختارات من ... أى خطابات ؟ أهى تلك التى كتبتها إليك من سجن « هولو واى » ! ... أهى تلك الخطابات التى وجب أن تكون فى تقديرك من الأشياء المقدسة والسرية التى ترتفع فوق كل شىء فى العالم كله ! تلك كانت فى الواقع نفس الخطابات التى رأيت أن تنشرها للطائشين المستهترين ليعجبوا ، ولحثالة الصحفيين ليسجلوا ، ولسباع الحى اللاتينى الصغيرة ليفغروا أفواههم دهشة ! لو لم يكن فى صميم قلبك شىء يحملك على أن تصرخ احتجاجا على مثل هذه الفضيحة السوقية لكان حرياً بك على الأقل أن تذكر قصيدة ذلك الذى شاهد فى حزن واحتقار كيف بيعت خطابات « جون كيتس » فى مزاد علنى بلندن ، وأن تفهم أخيراً ما هو المعنى الحقيقى فى أبياتى هذه :

أعتقد أنهم لا يحبون الفن

أولئك الذين يحطمون بلورة قلب شاعر

لتستطيع عيون مريضة أن تحدق وتتفرس (٧٧)

وإلا فأى شيء قصدت أن تكشف عنه مقالتك ؟ أهو أنى كنت مغرماً بك إلى أبعد حد ؟ لقد علم عيال باريس بهذه الحقيقه ؛ فهم جميعا يطلعون على الصحف ، وكثير منهم يكتب إليها . أم أنى كنت عبقرياً ؟ إن الفرنسيين قد أدركوا ذلك ، بل وعلموا ما هى الصفة المميزة لعبقريتى ... علموها أحسن كثيراً مما علمتها ، أو أحسن مما كان منتظرا منك أن تعلمه عنها . أو لتقول إن شذوذا عجيبا من الشهوة والرغبة يساير العبقرية غالباً ؟ مدهش ! غير أن الموضوع هنا لا يخصك بقدر ما يخص « لمبروزو »(٧٨) . فضلا عن ذلك ، فهذه الظاهرة قد وجدت أيضاً بين من لم يكونوا من العباقرة . أو لتقول إننى فى حرب البغض بينك وبين والدك كنت دائما درعا وسهما لكليكما ؟ كلا ، بل أكثر من ذلك ، ففى تلك المطاردة المخيفة لحياتى بعد أن توقفت تلك الحرب لم يكن قادراً قط على الوصول إلى لو لم تكن شرا كك قد نصبت من قبل حول قدمى ؛ هذا حق بلا ريب . غير أن « هنرى بوير »(٧٩) قد فعل ذلك من قبل بطريقة حسنة جداً ، كما علمت . فإذا كنت رأيت أن تعزز رأيه فإن هذا لم يكن يستوجب نشر خطاباتى ، أو تلك التى كتبتها فى سجن « هولو واى » على الأقل .

هل ستقول ، رداً عن أسئلتى ، إننى فى واحد من الخطابات التى كتبتها فى هولو واى سألتك أنا نفسى أن تحاول قدر استطاعتك أن تنصفنى بعض الشيء ولو مع جزء قليل من العالم ؟ لقد فعلت ذلك بالتأكيد . وإنما يجب أن تذكر كيف كنت ولم أنا هنا فى هذه اللحظة ! فهل تعتقد أننى هنا بسبب علاقاتى مع شهود قضيتى ؟ إن علاقاتى مع أناس من هذا النوع ، حقيقية كانت أو مفترضة ، لم تكن بذات أهمية ، لا فى اعتبار الحكومة ولا فى تقدير المجتمع . فهم لم يعلموا عنها شيئاً ،

ولا يهمهم أن يعلموا . وإنما أنا هنا لأنني حاولت أن أضع أباك فى السجن . وقد أخفقت مساعى بالطبع . فقد ألقى دفاعى أوراقه جانباً ، فاستطاع أبوك أن يقلب المائدة على بصورة تامة ، وأن يضعنى فى السجن حيث لا أزال . هذا هو السبب فى أن الناس يحتقروننى ويشمئزون منى . هذا هو السبب فى أنه أصبح لزاماً على أن أقضى كل يوم ، وكل دقيقة ، من مدة سجنى المرعب . هذا هو السبب فى أن جميع التماساتى قد رفضت .

لقد كنتَ الشخص الوحيد الذى كان فى استطاعته أن يعطى المسألة كلها لونا آخر ، وأن يضع الأمر فى ضوء يختلف ، وأن يوضح ماذا كان الوضع إلى درجة كبيرة . كان فى استطاعتك أن تفعل ذلك بغير أن تعرض نفسك للخطر أو اللوم أو السخرية من أى ناحية .

بالطبع لم أكن أتوقع منك ، بل ولا أريد ، أن تذكر كيف ولأى غرض جئت تلتمس منى المساعدة فى متاعبك فى اكسفورد ؛ ولا كيف ولأى غرض ، إذا كان لك غرض قط ، لم تترك جانبى عمليا طوال ما يقرب من ثلاث سنوات . كذلك لم أكن فى حاجة إلى أن تكلف نفسك عناء تأريخ المحاولات المستمرة ، بنفس الدقة التى اتبعتها هنا ، التى قمتُ بها لإنهاء صداقة كانت مخربة لحياتى كفنان ، وكرجل له مركزه ، أو حق كعضو فى المجتمع ؛ بل ولم أكن أريد منك أن تصف تلك المشاجرات التى تعودت على اصطناعها فى تكرار رتيب ، ولا أن تطبع تلك السلسلة العجيبة من البرقيات التى كنت تبعث بها إلى وقد حوت خلطا مستهجنا بين القصة والمال ، ولا أن تقتبس من خطاباتك أعنف ما جاء فيها من عبارات وأشدها تمرداً ، كما اضطررت أن أفعل هنا . لم أرد شيئا من هذا كله ، ولم أفكر فيه . بل رأيت أنه ربما كان من

الخير لك ولى لو استطعت أن توجه شيئا من الاحتجاج على رواية أبيك عن صداقتنا ، إذ أنها لم تكن أقل فى قبحها مما انطوت عليه فى ضغنها ؟ ولم تكن أقل فى سخفها بالنسبة إليك منها فى عارها بالنسبة إلى . لقد دخلت هذه القصة عمليا فى صلب التاريخ ؛ فنقلها الناقلون ، وصدقها المصدقون ، وأرخها المؤرخون ، وأصبح الواعظ يجد فيها شاهدا للغوه كما أمسى الأخلاقى يجد فيها مادة لموضوعه العقيم . وهكذا كان على ، أنا الذى استشهد بكل العصور ، كان على أن أقبل بالحكم الذى أصدره على قرد وبهلول ! لقد قلت ، وهو ما أسلم بههما فى مرارة ، قلت إن من سخرية القدر أن يعيش أبوك ليكون بين أبطال مدارس الأحد ، وأن ترتفع أنت إلى درجة الطفل صامويل ، وأن أهبط أنا لأجد نفسى بين « جيل د ريه » و « الماركيز د ساد » ! ومع ذلك فربما كان هذا أفضل . والواقع أنى لا أشعر بشيء من الرغبة فى الشكوى .

إن من بين الأشياء الكثيرة التى يتعلمها المرء فى السجن أن الأشياء هى ما هى ، وأنها ستكون ما هى كائنة . كذلك ليس لدى شك فى أن « أبرص القرون الوسطى » ومؤلف « جستين » سيثبتان أنهما أحسن صحبة من « ساندفورد ومرتون »(٨٠) .

غير أننى فى الوقت الذى كتبت إليك فيه شعرت بأنه — باعتبار صالح كلينا — ربما كان حسنا ، ولائقاً ، وصواباً ، عدم قبول الرواية التى وضعها والدك سلفا معتمدا على مستشاريه فى سبيل إنشاء عالم مادى . وكان هذا ما حملنى على أن أسألك أن تعمل فكرك وتكتب شيئا أقرب إلى الحقيقة . فقد كان هــذا أفضل لك ، على الأقل ، من الذى فى كتابات ركيكة تبعث بها إلى الصحف الفرنسية ، كاشفا عن حياة أبويك العائلية ! وإلا فماذا يهم الفرنسيين إذا كان والداك قد عاشا حياة

سعيدة أو لم يعيشا ؟ إن المرء لا يستطيع أن يتصور أن هناك موضوعا أقل أهمية بالنسبة إليهم . وإنما الذى يهمهم أن فنانا من طبقتى ، هو من أثّر على اتجاه الفكر الفرنسي بدرجة ملحوظة بواسطة المدرسة والحركة التى كان هو نفسه تجسدا لها ، قد استطاع باتباع تلك الحياة أن يأتى بذلك . لو كنت ارتأيت أن تضمن مقالك تلك الخطابات الفائقة الحصر التى حدثتك فيها عن الخراب الذى كنت تجره على حياتى ، وعن نوبات الغضب الجنونى التى كنت تسمح لها بأن تسيطر عليك لتؤذيك كما تؤذينى ، وعن رغبتى التى بلغت حد التصميم فى إنهاء صداقة كانت شؤماً على فى كل الاتجاهات ، لكنت رأيت معنىً لذلك . ومع ذلك فإننى لم أكن لأسمح قط بنشر مثل تلك الخطابات . لقد أراد محامى والدك أن يضبطني فى موقف تناقض ، فقدم فجأة إلى المحكمة خطاباً بعثت به إليك فى مارس ٩٣ (٨١) ، ذكرت فيه أننى بدلا من التعرض لتلك المشاجرات المريعة التى كنت تعاود القيام بها بدافع من سرور فظيع ، كما كان يبدو ، أفضل « تقديم الاتاوة إلى كل مشهّر فى لندن » (٨٢). فكان أن شعرت بحزن عميق ، بعد أن رأيت هذا الجانب من صداقتنا يكشف للنظرة العامة بصورة عرضية . غير أننى لم أتصور أن تكون هكذا بطيء الفهم ، قاصر الإحساس ، غبيّ الادراك ، فلا تفطن إلى الشيء النادر ، الرقيق ، الجميل ، بل تفكر فى نشر الخطابات التى كنت أحاول فيها أن أحتفظ بروح الحب حية ، لعلها تستوطن جسدى خلال السنوات الطويلة من إذلال هذا الجسد . والواقع أن هذا كان ولا يزال من أشد أسباب الى . إنه أنكى أنواع الخيبة . فلم فعلت ذلك ؟ أخشى أن أقول إننى أعلم ، بل وأعلم جيدا . فإذا كان البغض يعمى العيون فإن الغرور يخيط الجفون بأسلاك من حديد ! ولا عجب ، فقد كانت

« القدرة العقلية التي بها ، وبها وحدها ، نستطيع أن نفهم الآخرين في علاقاتهم الواقعية والمثالية »[٨٣] آلة ثالمة فيك ، أثلمتها أنانيتك الضيقة وجعلها طول عدم الاستعمال عديمة الجدوى . لقد كانت مخيلتي من الغزارة في السجن بقدر ما كنت فيه ؟ أما أنت فقد أغلق الغرور عليك النوافذ ووقف عليها حارس يدعى البغض .

لقد حدث هذا كله في الشطر الأول من نوفمبر من العام الماضي . غير أن هناك نهراً من الحياة يجري بينك وبين تاريخ هكذا بعيد ! فمن النادر ، بل ربما كان من المحال ، أن تستطيع إرسال نظرة عبر صحراء في مثل ذلك الاتساع . وإنما يختلف الأمر بالنسبة إلي . فهو يبدو كما لو كان حدث ، لا أقول بالأمس بل اليوم . إن العذاب لحظة طويلة واحدة لا يمكن تقسيمها إلى فصول . وإنما نستطيع فقط أن نسجل نوباتها ، ونؤرخ تكرارها . والزمن لا يتقدم بالنسبة إلينا ، بل يدور . وهو يبدو كما لو كان يدور حول مركز الألم . إن الجمود المشل في لون من حياة وضع كل ظرف منها على نموذج لا يقبل التغيير : نأكل فيها ونشرب ، ونمشي ونضطجع ، ونصلي . أو نركع على الأصح في صورة المصلين ، نفعل هذا كله تحت قوانين صلبة من قاعدة حديدية — حالة الجمود هذه التي تجعل من كل يوم مريع في أدق تفاصيله صورة من سابقه تبدو كأنما هي تصل نفسها بالقوى الخارجية التي يمضي جوهر وجودها في تغير مستمر . ونحن لا نعلم شيئاً لا عن وقت الزرع ولا عن وقت الجني ، ولا عن الحصّاد إذ ينحنون فوق القمح ولا عن جامعي الأعناب إذ يتغلغلون وسط الكروم . ونحن لا نعلم شيئاً عن العشب في المروج إذ يصفر وقد تناثرت بينه زهور تحطمت ، أو تبعثرت فوقه ثمرات هوت . لا نعلم شيئاً من ذلك ، ولا نستطيع أن نعلم . فليس

لنا سوى فصل الأحزان . بل إن الشمس والقمر يبدوان كما لو كانا أخذا منا . ربما كان النهار فى الخارج واضحا ، يجمع بين زرقة السماء ووضاءة الشمس ؛ غير أن الضوء الذى يزحف من خلال المنور الزجاجى المموه فى كثافة من نافذة تغطيها قضبان من الحديد ، هى تلك التى تجلس تحتها — هذا الضوء يأتى قاتما مظلما . فالوقت دائما هو الغسق فى الزنزانة ، وهو ظلمة منتصف الليل فى القلب . وليس الحال فى دائرة الفكر بأقل منه سوءا فى دائرة الزمن . فالشىء الذى نسيته أنت منذ زمن طويل ، أو تستطيع بسهولة أن تنساه، يحدث لى الآن ، وسيحدث ثانية غدا . تذكر هذا ، فتستطيع أن تدرك قليلا لم أكتب إليك ، ولم أكتب بهذا الأسلوب !

بعد مضى أسبوع (٨٤) أنقل إلى هـذا المـكان . وبعد مضى ثلاثة شهور أخرى تموت والدتى . وقد علمت أكثر من غيرك كيف أحببتها وكيف أعززتها . ومع أنى كنت يوماً من أعلام البيان إلا أن موتها كان من الهول بحيث جعلنى أعجز عن الوصول إلى كلمات تعبر عما شعرت به من ألم وخجل . بل انه لم يحدث ، حتى فى أتم أيام تقدمى كفنان ، أن استطعت يوما العثور على كلمات تليق بحمل مثل هذا العبء المهيب ، أو تتحرك بما يكفى من موسيقى رائعة فى المشهد الأرجوانى للحزن الذى أطبق عليه قلبى . لقد أورثتنى هى ووالدى اسماً استطاعا أن يكسباه نبلا وشرفا ، لا فى الأدب والفن والآثار والعلوم وحسب ، بل أيضاً فى التاريخ العام لوطنى فى تطوره كشعب . فـكان أن لطخت شرف ذلك الاسم إلى الأبد . فقد جعلت منه مثلا سافلا بين أناس من السفلة ، وجررته إلى الوحل المحض ، فقدمته إلى وحوش ليسبغوا عليه من صفاتهم ، وإلى حمقى ليجعلوا منه مرادفا للحماقة . فلم يكن ما تألمت منه

حينئذ ، ولا أزال أتألم ، حاجتي إلى قلم لأكتب أو ورق لأسجل .

وكانت زوجتي في ذلك الوقت رحيمة رفيقة ؛ فبدلا من أن تتركني أتلقى الخبر من شفتي جامد أو أجنبي جشمت نفسها عناء السفر ، بينما هي تعاني من المرض ، طوال الطريق من « جنوى » حتى انجلترا ، لتدلي إلى هي نفسها بنبأ تلك الخسارة التي لا تسترد ولا تعوض . ثم وصلت رسائل تحمل العطف من جميع أولئك الذين كانوا لا يزالون يشعرون لي بالمودة . بل إن أشخاصاً لم يعرفوني من قبل ، وقد سمعوا بما حل بحياتي المحطمة من هم جديد ، كتبوا هم كذلك طالبين التعبير لي عن أساهم . وكنت أنت الوحيد الذي تسامى عن ذلك ، فلم تبعث برسالة ولم تكتب خطابا ! أفضل ما يشار به إلى مثل هذا التصرف ما قاله « فرجيل » لـ « دانتي » عن أولئك الذين خلت حياتهم من الباعث النبيل وكانت ضحلة في القصد :

« دعنا لا نتحدث إليهم ، بل لننظر ونمض ! »[٨٥] .

ثم تمضي ثلاثة شهور أخرى ، فأدرك أن الوقت هو مايو ، يخبرني بذلك التقويم المعلق إلى باب زنزانتي من الخارج ، يحمل اسمي ومدة الحكم ، ويشير إلى سلوكي وما أقوم به من عمل . ويأتي أصدقائي ثانية لرؤيتي ؛ فاسأل عنك ، كما أفعل دائما . ويخبرني بعضهم أنك تقيم في « الفيلا » الخاصة بك في « نابولي » ، وأنك مهتم بإعداد ديوان من الشعر . وفي نهاية الجلسة يخبرني أحدهم عرضاً أنك ستهدي إلى تلك الأشعار . فلم أقل شيئا بل عدت في صمت إلى زنزانتي ، وقد امتلأ قلبي بالاشمئزاز والاحتقار . كيف حلمت بأن تهدي إلى ديوانا من الشعر قبل أن تحصل على موافقتي ؟ حلمت ! أهذا ما قلته ؟ كيف جرؤت على التفكير في ذلك ؟ هل ستجيب بأنني في أيام عظمتي وشهرتي وافقت على

أن تهدى إلى باكورة أعمالك ؟ لقد فعلت ذلك بلا ريب : تماماً كما كنت أقبل ولاء أى شاب آخر بدأ نشاطه فى مجال الأدب ، بما فى ذلك من صعوبة وجمال . فكل نوع من الولاء مما يسر الفنان . وإنما يتضاعف السرور إذا ما جاء الولاء من الشباب . إن أوراق الغار تذبل إذا ما اقتطفتها أيدى مسنة . والشباب فقط هو الذى له الحق فى تتويج الفنان هذه هى الميزة الحقيقية للشباب ، إذا استطاع أن يدركها غير أن أيام الأذلال وسوء السمعة غير أيام العظمة والشهرة

إنك لا تزال فى حاجة إلى أن تدرك أن الرخاء ، والنجاح ، والسرور ، ربما كانت خشنة فى ذراتها ، حقيرة فى أليافها ؛ وأما الحزن فهو أشد الأشياء حساسية . فليس هناك شىء فى عالم الفكر والحركة بأكمله لا تتصل به ذبذبة من الحزن فى خفقان مريع ، إذا كان شديداً . إن الورقة البالغة الدقة المرتجفة ، المصنوعة من الذهب ، تلك التى تسجل اتجاه القوى التى لا تدركها العين ، تعتبر خشنة بالمقارنة(٨٦). فالحزن هو الجرح الذى ينضح كلما لمسته يد ، إلا يد الحب ؛ بل ويعود فينضح ، وإن لم يكن ذلك مدعاة للألم .

لقد استطعت أن تكتب إلى محافظ سجن « واند سورث » للحصول على تصريح منى بنشر خطاباتى فى « ميركير د فرانس » (المناظرة لصحيفتنا الإنجليزية فورتنايتلى ريفيو) ، فلم لم تكتب إلى محافظ سجن « ريدنج » للحصول على تصريح منى بإهداء أشعارك إلى ، مهما احترنه لها من وصف خيالى ؟ أكان الأمر فى حالة انك رأيت انى منعت تلك المجلة من نشر خطابات تعلم جيداً أن حق نشرها يرجع إلى دون سواى ، وفى حالة أخرى انك اعتقدت انك مستطيع أن تستمتع بعنادك فى فرض

رأيك بغير علم منى حتى يفوت وقت تدخلى ؟ إن مجرد نظرة إلى حالق ، كرجل لحق به الشنار وحل به الخراب ودخل إلى السجن ، كانت كافية لحملك — إذا رغبت فى وضع اسمى على أولى صفحات كتابك — على التقدم إلىّ ملتمساً السماح لك بذلك كمعروف ، وكشرف ، وكامتياز . فهذا هو الطريق الذى يتخذه المرء ليقترب من أولئك الذين يشعرون بالهمّ ويجلسون فى العار .

حيثما يكون حزن ، تكون أرض مقدسة . وستدرك يوماً ما ينطوى عليه هذا القول من معنى ولن تكون عرفت شيئاً من الحياة حتى تدركه . أما « روبى » ومن هم فى طبيعته فإنهم يستطيعون إدراكه . فحينما أحضرت بين جنديين من السجن إلى محكمة التفليسة كان ينتظر فى الممر الكئيب ؛ لكى يستطيع ، أمام جمهور حمله الحركة اللطيفة البسيطة على أن يلوذ بالصمت ، أن يرفع قبعته فى حزن تحية لى ، بينما كنت أمر على مقربة منه ، مغلول اليدين محنى الرأس . لقد ذهب رجال إلى الفردوس بفعل أقل مغزى ! ففى مثل هذه الروح وبمثل هذا الأسلوب من الحب ، ركع القديسون لغسل قدمى الفقير ، وانحنوا لتقبيل الأبرص فوق وجنته . ولم أقل له كلمة قط عما فعل . ولست أعلم حتى هذه اللحظة ما إذا كان أدرك أننى حتى شعرت بفعله ! إن مثل هذا الفعل ليس مما يؤدى عليه الشكر رسمياً فى كلمات جوفاء ، بل هو مما يجب الاحتفاظ به بين ذخائر القلب ، وقد احتفظت به فى أعماق قلبى كدين خفى يسرنى أن أرى نفسى عاجزاً عن أدائه إلى الأبد ، وذلك بعد أن ضمخته بعطور استخلصته من دموعى الغزيرة . وعندما أصبحت الحكمة عديمة الجدوى ، وأضحت الفلسفة عقيمة المعنى ، وأمست أمثال المواسين كما لو كانت تراباً فى فمى — عندما عزفت النفس عن هذا

كله تفجرت ينابيع الشفقة تفعل ذكرى ذلك الفعل اليسير الذى جاء فى تواضع ؛ فإذا بصحراء أملى وقد ازدهرت كالوردة ، وإذا بى وقد خرجت من مرارة النفى الموحش إلى حلاوة التوافق مع القلب الكبير للعالم ، بما هو فيه من جراح وانكسار . وحينما تستطيع أن تدرك كيف كان فعل روبى جميلا ، ولم كان بالغ الأهمية بالنسبة إلى ، وسيبقى هكذا دائما ، فعندها ربما استطعت أن تدرك كيف وبأى أسلوب كان يجب أن تقترب منى للحصول على موافقة بإهدائى أشعارك .

غير أن من الصواب أن أذكر أنى لم أكن لأقبل هذا الإهداء بأى حال . ولو أنه ربما سرنى فى ظروف أخرى أن أكون سئلت ذلك . وما كان الرفض إلا لمصلحتك ، وذلك بصرف النظر عن مشاعرى الشخصية . ذلك لأن أول كتاب يخرجه إلى العالم شاب فى ربيع حياته يجب أن يأتى كزهرة جاءت مع الربيع : كتلك النوارة البيضاء فى مرج « مجدالن » أو « زهرة الحقل » فى وادى « كمبور » . فهو يجب ألا يخرج وقد ناء بعبء مأساة مريعة ثائرة ، بل فضيحة شنيعة مدمرة . ولو كنت سمحت بأن يؤدى اسمى مهمة البشير لكتابك لكان فى ذلك خطأ فنى جسيم كان كافياً لخلق جو سيء حول الموضوع كله . وهذا الجو يعمل له كل حساب فى عالم الفن الحديث .

إن الحياة الحديثة كما أنها معقدة فهى نسبية . هاتان هما علامتاها المميزتان . ولجملها تكتسب الخاصية الأولى نحتاج إلى الجو ، بما فيه من حذق فى تنويع الألوان ، ودهاء فى الاستهواء ، وتحايل فى جعل المناظر تبدو غريبة ؛ أما فيما يختص بالثانية فإننا نحتاج إلى المنظر الخالق للصورة . هـذا هو السبب فى أن النحت قد توقف عن أن يكون فنا

مثلا ؛ بينما لا تزال الموسيقى تؤدى هذا الدور . أما الأدب فقد كان ، ولا يزال ، وسيكون دائما ، أسمى ممثل للفن .

إن كتابك الصغير كان يجب أن يأتى معه بروائح من صقلية واركاديا لا بدنس من قفص مجرم ، أو نفس من زنزانة مدين . ولم يكن ذلك الإهداء الذى فكرت فيه خطأ فى الذوق الفنى وحسب ، بل كان غير ملائم من جميع وجهات النظر . فقد كان فيه دليل على التزامك ما كنت عليه من سلوك قبل القبض علىّ وبعده ؛ وكان فيه ما يحمل على الاعتقاد بأن الأمر ليس إلا محاولة لإظهار بطولة كاذبة : مثلا من تلك الشجاعة الصورية التى تباع وتشترى بثمن بخس فى طرقات العار . وبقدر مايعنى الأمر صداقتنا فالظاهر أن إلهة النقمة « نمسيس Nemesis » قد حطمتنا معاً ، كما يحطم الذباب ! والواقع إن إهداء أشعار إلى بينما كنت فى السجن لم يكن إلا كسمى أخرق فى وقت تطلب الأمر فيه تصرفا جاداً . وهو من نوع تلك الإنجازات التى كنت تباهى بها علانية وتجد سرورا فى التبجح بها أيام أن كنت عاكفاً على كتابة خطاباتك المفزعة — تلك الأيام التى أرجو مخلصا ، لصالحك ، ألا تعود . ومثل ذلك السعى لم يكن ليأتى بالنتيجة الجدية الحسنة التى أعتقد أنك كنت تهدف إليها . ولو كنت أخذت رأيى لنصحتك بأن تؤخر نشر أشعارك بعض الوقت ؛ أو تنشرها بغير توقيع فى البدء ، إذا لم يكن ذلك مرضياً . فإذا مارأيت أنك اكتسبت معجبين ـ أقصد من يستحقون الاكتساب ـ كان يمكنك أن تلتفت حولك وتهتف بالعالم قائلا : « إن هذه الزهور التى أعجبتم بها مما زرعتُ ؛ وإنى أقدمها إلى من اعتبرتموه منبوذاً مطروداً ، دليلا على ما أحبه فيه وأقدره وأعجب به » . غير أنك اخترت الطريقة السيئة واللحظة السيئة . هناك حاسة فى الحب وحاسة فى الأدب . ولم يكن فيك شىء من هذا ولا من ذاك .

لقد أسهبت في حديثي عن هذه النقطة ، لعلك تستطيع أن تدرك كل ما فيها من معاني ، فتفهم لم كتبت فوراً إلى « روبي » معبراً عما شعرت به نحوك من احتقار واشمئزاز[87] ، ومعترضاً بصورة بائنة على ذلك الإهداء ؛ وهو ما حملني على تكليفه نسخ كتابي بعناية وإرسال صورته إليك . فقد شعرت بأن الوقت قد حان أخيراً لحملك على أن تتبصر ، وتميز ، وتدرك ، ولو قليلا مما فعلته . إن الغباوة قد تحمل هكذا بعيداً حتى تصبح شيئاً يدعو إلى السخرية ؛ كما أن الطبيعة القاصرة في التصور ، إن لم يكن هناك باعث يوقظها ، قد تتحجر فتصير بلادة محضة . وفي هذه الحالة ، بينما يمضي الجسد على نهجه ، فيأكل ، ويشرب ، ويحصل على ما يبتغي من السرور ، تكون الروح ، وهي التي اتخذت منه بيتاً ، كما كانت روح « برانكا د أوريا » في تصوير « دانتي » ، ميتة تماما[88] . وإنما يبدو أن خطابي لم يستطع أن يسعفك . وبقدر ما استطعت أن أحكم كان وقعه عليك كالصاعقة . فقد قلت في ردك على « روبي » إنك « قد جردت من كل قوة للتفكير والتعبير » . وكما هو واضح . فالواقع إنك لا تحسن التفكير في شيء أكثر من الكتابة إلى أمك شاكيا . أما هي فإنها ، بالطبع ، تتعامى عن مصلحتك الحقيقية ، وهو الأمر الذي خلق لها سوء الحظ ، كما خلقه لك ؛ وتتفانى في تهيئة جو لك من كل ما يخطر ببالها من وسائل التسرية ثم تمضي في تهدئتك ، وهو ما أعتقده ، لتعود إلى وضعك بما فيه من تعاسة وفقدان قيمة . فإذا ما فتح باب الحديث عني فإنها تخبر أصدقائي أنها « منزعجة جداً » بسبب قسوتي فيما أبديه من ملاحظات عليك . وهي لا تقصر الأمر على أصدقائي حينما تعبر عما ينتابها من شعور بالانزعاج بل تفعل ذلك أيضاً مع من ليسوا لي بأصدقاء ؛ وهم أكثر

عدداً ، كما تعلم . وقد علمت حالياً عن طريق أشخاص يميلون إليك وإلى ذويك أن قدراً كبيراً من العطف الذى اكتسبته بسبب ما تميزت به من عبقرية ، وما تحملته من آلام ، قد ضاع تدريجيا نتيجة لتصرف والدتك . فسيقول الناس : « آه ، لقد حاول فى البدء أن يضع الوالد الرحيم فى السجن فلما فشل التفت إلى الابن البرىء ليوسعه لوماً على فشله ! ... كم كنا محقين فى احتقاره ! كم هو جدير بالاحتقار ! » . أوَ لم يكن من اللائق أن تلتزم والدتك الصمت إذا ما ذكر اسمى ، طالما كانت لا تستطيع أن تبدى كلمة حزن أو أسف — حتى لو كانت تافهة — بعد أن رأت ما حل بى من خراب ؟ أما عنك ، أفلا تعتقد أنه كان يجدر بك أن تكتب إلى مباشرة فى كل الأحوال بدلا من أن تهرع إليها شاكيا ؛ وأن تتذرع بالشجاعة لتقول ما كان لديك ، أو ما تصورت أنه لديك ؟ لقد مضى ما يقرب من عام منذ أن كتبت ذلك الخطاب . وليس من المعقول أن تكون بقيت طوال ذلك الوقت « مجرداً من كل قوة للتفكير والتعبير » ! فلم لم تكتب إلى ؟ لقد رأيت من خطابى إلى أى عمق جرحت ، وإلى أى مدى فضحت ، من جراء سلوكك كله . أكثر من ذلك ، لقد رأيت صورة كاملة من صداقتك معى ، بعد أن وضعت أمامك فى ضوئها الحقيقى ، وبأسلوب لا يعتوره خطأ . وكنت فى الأيام الأولى أخبرك كثيراً أنك تدمر حياتى ، فكنت تضحك دائماً . وعندما رأى « ادوين ليفى »[٨٩] فى بدء صداقتنا أسلوبك فى دفعى لأتحمل صدماتك ومضايقاتك وتلك النفقات التى نجمت عن كارثتك المشئومة فى أكسفورد — إذاً كان لنا أن نعبر عنها هكذا — وهى التى لجأنا إليه بسببها طالبين منه النصح والعون ، حذرنى طوال ساعة كاملة من مغبة معرفتك ، وعدت إلى « براكنل » لأقص عليك ما سمعت

وما انطبع في تصوري ، مضيت تضحك ، وعندما أخبرتك كيف أن ذلك الشاب التعيس الذي وقف أخيراً بجانبي في قفص الاتهام مضى هو نفسه يحذرني أكثر من مرة من أنك أبعد شؤماً في جلب الدمار الكامل على ، من أي واحد ، حتى من أولئك « الأولاد العموميين » الذين بلغت بي الغفلة حد التعرف إليهم ، مضيت تضحك ؛ وإن لم يكن في ضحكك حينئذ معنى للهو . وعندما مضى أصدقائي الأكثر تعقلا يحذرونني ، ومضى غيرهم ممن كانوا أقل تعلقا يهملونني ، بسبب صداقتي معك ، كنت تضحك في ازدراء وعندما كتب والدك إليك أول خطاب بذيء عني ، فأخبرتك أنني أشعر بأنني سأصبح مجرد وسيلة في نزاعكما المريع ، وسأتعرض للشر بينكما ، مضيت تضحك بإفراط . ومع ذلك فقد حدث كل شيء تماماً كما قلت أنه سيحدث ، وبقدر ما توقعت النتيجة ولم يكن لك عذر في عدم رؤية ما سارت عليه الأمور . فلم لم تكتب إلي ؟ أكان ذلك عن جبن ؟ أم عن قسوة ؟ أم عن شيء آخر ؟ إن ما حدث هو أنني فُضحت معك ، ثم عبرت عن شعوري بهذه الفضيحة . وكان في ذلك أقوى باعث على أن تكتب فإذا كان في خطابي إنصاف فقد وجب أن تكتب ؛ وإذا كان فيه ذرة من ظلم فقد وجب أيضاً أن تكتب . لقد ابثت أنتظر منك خطاباً . وكنت متأكداً من أنك سترى في النهاية أنه ، إن كان الود القديم ، والحب البالغ الدلالة ، والألف فعل من الشفقة التي قوبلت بأسوأ جزاء ، والألف دين من الجميل التي بقيت بغير وفاء ، إن كان هذا كله ليس شيئاً في اعتبارك ، فإن الواجب وحده ، بأشد صوره جفاء بين رجل وآخر ، هذا الواجب كان يقتضيك أن تكتب . إنك لا تستطيع أن تقول أنك اعتقدت أنني قصرت تسلم المكاتبات على ما كان يبعث به أعضاء عائلتي في شئون عملية . فقد علمت أن « روبي » كان يكتب إلي كل ثلاثة شهور مجملا صغيراً بالأنباء الأدبية . ولم يكن

هناك ما هو أشد سحراً من خطاباته بما تضمنته من نــكات ، ونقد ركز في براعة ، ولمسات خفيفة . فهى خطابات حقيقيــة ، وهى كشخص يتحدث إلى آخر . بل إن فيها خاصية الأسـلوب الفرنسى فى الحادثة الودية « Causerie intime » . وكان بأساليبه الرقيقة التى تدل على ما يكنه لى من احترام ، إذ كان يرجع مرة إلى رأيى وأخرى إلى حاستى من الانبساط وثالثة إلى غريزتى للجمال ، أو إلى ثقافتى ؛ ويذكرنى بمختلف الأساليب بأننى كنت يوماً الحـكم فى أساليب الفن بين كثيرين ، والحـكم الأعلى بين البعض — كان يظهركم به من حاسة فى الحب ومن حاسة فى الأدب . لقد كانت خطاباته رسـلا صغيرة بينى وبين ذلك العالم الخيالى الجميل للفن ، حيث كنت يوماً ملـكا ، وكان من الممكن أن أبقى ملـكا ، لو لم أترك الإغراء يجر نفسى إلى عالم ناقص ، قوامه الأهواء الخشـنة ، والشهوات التى لا وضوح فيها ، والرغبات التى لا حد لها ، والجشع الذى لا شـكل له . ومع ذلك ، فعندما يقال كل شىء فمن المؤكد أنك ربما استطعت أن تفهم ، أو تتصـور كيفما كان ، أنه لو لم يكن هناك غير الأسباب العادية من الفضول النفسى فقد كان يهمنى أن أسمع منك أكثر من أن أعـلم أن « الفرد أوستن » كان يحاول إخراج ديوان من الشعر[٩٠] ، أو أن « ستريت » كان يكتب فصولا من النقـد المسرحى لصحيفة « الدايلى كرونيكل »[٩١] ، أو أن واحداً لا يستطيع أن يلقى كلمة ثناء بغير أن يتلعثم قد وقف ليعلن أن « مسز مينل » هى « سيبيل الجديدة » فى الأسلوب[٩٢] .

آه ! فلو كنتَ فى السجن — ولا أقول بسبب خطأ من جانبى ، إذ أن هذه الفـكرة لا تحتمل — بل منك أنت ... غلطة منك أنت : إيمانا بمن لم يكن جديراً به ، أو انزلاقاً فى حمأة الشهوات ، أو ثقة وضعت فى غير موضعها ، أو حباً منح لغير أهله ، أو لا شىء من ذلك ، أو هذا

كله . فهل تعتقد أنني كنت أسمح لك بأن تأكل فى قلبك بعيداً فى الظلام والوحدة ، بغير أن أحاول بأى طريقة مهما كانت يسيرة أن أساعدك على تحمل العبء المرير من عارك ؟ أتعتقد أنني كنت أتركك بغير أن تعلم أنك إن كنت تتألم فإنني أتألم . وإن كنت تبكى فإن الدموع تملأ عيني ، وإن كنت قد طُرحت فى بيت الاستعباد ولقيت من الناس الاحتقار فإنني قد بنيت لنفسى بيتاً من صميم أحزانى لأقيم فيه حتى تخرج وأعددت لك كنزاً مما أنكره عليك الناس جميعاً . لتجد فيه البرء من جميع ما ألم بك . وتراه دائماً فى زيادة مستمرة ؟ فإذا منعتنى الضرورة المرة ، وهى لا تزال مرة معى ، أو الحيطة ، من أن أكون قريباً منك ، وسلبتنى ما أشعر به من سرور بوجودك ، وإن ظهرت من وراء قضبان السجن ، وفى صورة من العار ، كتبت إليك فى المناسبات ، وفى غير المناسبات ، برجاء أن تصل إليك ولو مجرد عبارة ، أو حتى كلمة واحدة ، أو حتى صدى متكسر من حبى . فإذا ما رفضت أن تتسلم منى خطاباً لم يقلل ذلك من همتى فى مواصلة الكتابة ، وذلك لتعلم أنه مهما كان الأمر فإن هناك دائماً خطابات فى انتظارك . لقد فعل كثيرون معى ذلك . فكل ثلاثة شهور يكتب إلى أناس ، أو يبدون رغبة فى الكتابة . وقد حفظت خطاباتهم ومكاتباتهم ، لتسلم إلىّ حال خروجى من السجن . إننى أعلم أنها هناك ، بل وأعلم أسماء من كتبوها ، كما أعلم أنها تمتلىء بالعطف والمودة والشفقة . وهذا يكفينى ، فلست أريد أن أعلم شيئاً أكثر . أما سكوتك فقد كان مريعاً . فهو لم يكن سكوتاً لأسابيع أو لشهور ، بل كان لسنين ... لسنين حتى لو قام بتقصيه من هم مثلك ممن يختطفون الحياة فى سعادة ، ولا يكادون يشعرون بمرور الأيام إذ تتوالى من حولهم ، بينما تتقطع أنفاسهم من الجرى فى طلب المسرات !

إنه سكوت بغير عذر ، وبغير تلطف . لقد علمت أن لك قدمين من طين ومن هو أعلم بذلك منى ؟ فحينما كتبت بين خلاصات مبادئى أن الأقدام الطينية هى ببساطة التى جعلت من ذهب الصورة شيئا ثمينا (٩٣) كنت أفكر فيك بالذات . غير أنها لم تكن صورة ذهبية بقدمين من طين تلك التى صنعتها من نفسك فمن محض تراب الطريق العام الذى يتحول بفعل حوافر المخلوقات ذات القرون إلى وحل صغت مثالك الكامل لكى أنظر إليه ! . وعليه فمهما كانت رعبق الخفية أصبح من المستحيل على أن أشعر نحوك إلا بالازدراء والاحتقار وباطراح جميع الأسباب الأخرى ، فإن عدم اهتمامك ، أوحكمتك الدنيوية ، أوجمودك ، أو حيطتك ، أو ما عن لك أن تتصوره ، كان أكثر مرارة لى بسبب الظروف العجيبة التى لابست سقوطى وأعقبته .

إن الآخرين من التعساء حينما يطرحون فى غيابة السجن إذا ما حرموا من جمال الدنيا يكونون فى أمن ، إلى درجة ما على الأقل ، من أشد الرميات وأفظع السهام . فهم يستطيعون التخفى فى ظلمات زنزاناتهم ، وهم يستطيعون أن يصنعوا من صميم عارهم حالة تكون لهم بمثابة الملجأ أو القدس . ولما كان العالم قد أنفذ إرادته فيهم فإنه يذهب فى سبيله ويتركهم ليعانوا من عذابهم فى غير إزعاج . ولم تكن حالى هكذا . فقد توالت الأحزان واحداً بعد آخر ، ومضت تقرع باب السجن باحثة عنى ؛ ففتحت لها الأبواب واسعة ، وسمح لها بالدخول . ولقد حدث نادراً ، إن كان قد حدث مطلقاً ، أن تحمل أصدقائى عناء رؤيتى ؛ أما أعدائى فقد تسنى لهم الوصول إلى دائما . فقد حدث مرتين فى ظهورى علانية أمام محكمة التفليسة ، كما حدث أيضاً مرتين فى نقلى علانية من سجن إلى آخر ... حدث أن تعرضت لنظرة الناس وسخريتهم

فى ظروف بالغة المهانة . ولقد جاءنى رسول الموت بأنبائه ثم مضى فى طريقه . فكان على أن أحمل عبئاً لا يحتمل من التعاسة والندامة جاءت به ذكرى والدتى ، ولا يزال جاثماً على صدرى ، وقد فعلت ذلك وأنا فى وحدة تامة ، وفى عزلة عن كل ما يمنح العزاء ويوحى بالسلوى ، ولم يكد ذلك الجرح يجف — ولا أقول يبرأ — بمرور الزمن حتى جاءتنى من زوجتى خطابات قاسية مرة خشنة بعث بها محاميها ، فوجدت نفسى فيها أعير بالفقر وأهدد به . وكان هذا مما أستطيع احتماله ، بعد أن وطنت النفس على احتمال ما هو شر منه . ولكن أن يؤخذ منى ولداى بإجراء قانونى(٩٤) فقد كان هذا ، وسيكون دائما ، مصدر هم وألم لا نهاية له ، ومبعث أحزان لا تقف عند حد . بلى ، فإذا كان للقانون أن يقرر ، وأن يأخذ على عاتقه أن يقرر ، أننى لست جديراً بأن أكون مع ابنائى أنا نفسى ، فان هذا يكون شيئا مريعاً بالنسبة إلى . وليست فضيحة السجن شيئا بجانبه . والواقع أنى أغبط الرجال الآخرين ممن يذرعون بجانبى فناء السجن . فلست فى شك من أن أطفالهم ينتظرونهم ، وأنهم يتطلعون إلى مجيئهم ، وأنهم سيكونون مصدر سعادة لهم .

إن الفقراء أعقل منا وأكرم ، وهم أكثر شفقة وأشد حساسية . فالسجن فى نظرهم ليس إلا مأساة فى حياة الإنسان ، مجرد سوء حظ ، أو حادث ، شيئاً ما يحرك العطف فى الآخرين . انهم يتحدثون عن ذلك الذى يعيش فى السجن كواحد وقع « فى متاعب » ... هكذا يقولون فى بساطة . وهى عبارة يستعملونها دائماً ، وهو تعبير ينطوى على حكمة صحيحة قوامها الحب . أما فى اعتبار من هم فى طبقتنا فإن الأمر يختلف . فالسجن فى نظرنا يجعل من المرء منبوذا . وعليه فأنا وأمثالى يكاد

لا يكون لنا حق فى الهواء والشمس ووجودنا يسمم مسرات الآخرين . ونحن لا نلقى ترحيباً كلما ظهرنا . وليس لنا أن نتطلع إلى أضواء القمر[٩٥]. أما أولادنا فانهم يؤخذون بعيداً عنا . وبذلك تنقطع صلاتنا العزيزة بالإنسانية . لقد حكم علينا بأن نكون منفردين ؛ بينما لا يزال أبناؤنا يعيشون . وهكذا حرمنا من الشيء الوحيد الذى قد يكون فيه إرواء لنا ومساعدة . الشيء الوحيد الذى قد يحمل البلسم إلى القلب المرضوض ، ويدخل الاطمئنان إلى النفس التى تتألم .

وإلى هـذا كله تضاف الواقعة الدقيقة المؤلمة ، وهى أنك بأفعالك وسكوتك ، بما فعلت وما تركت بغير فعل ، قد جعلت كل يوم من سجنى الطويل لا يزال أكثر صعوبة لأعيش خلاله . انك بسلوكك قد غيرت من طعم خبز السجن ومائه، فقد جعلت الأول مراً فى فمى وجعلت الثانى ملحاً . وكان عليك أن تشاطرنى حزنى فإذا بك تضاعفه وكان عليك أن تبحث عن وسيلة للتخفيف من ألمى فإذا بك تسرع به ليصبح عذاباً . غير إنى لا أشك فى أن ذلك لم يكن قصدك . بلى ، إنى أعلم أنك لم تقصد إلى ذلك . وإنما يرجع الأمر ببساطة إلى « ذلك القصور المشئوم فعلا فى خلقك : قصورك التام فى المخيلة[٩٦] » .

ونهاية هذا كله إنى قررت أن أصفح عنك . بلى ، يجب أن أفعل . فأنا لم أكتب هذا الخطاب لأزرع البغض فى قلبك ، بل لأزيل ما علق منه بقلبى . وإنى إذ أصفح عنك إنما أفعل ذلك إكراماً لنفسى . فالمرء لا يستطيع أن يحتفظ بأفعى فى صدره لتعيش على عض جسده ؛ وهو لا يستطيع أن يهب كل ليلة ليزرع الأشواك فى حديقة نفسه . ولن يكون من العسير على قط أن أفعل ذلك إذا ساعدتنى قليلا . لقد كنت فى الأيام الأولى أغفر لك عن طيب خاطر كل ما تفعله معى مهما كان .

غير أن هذا لم يفدك شيئاً . وذلك لأن من يستطيع أن يغتفر الخطايا هو فقط ذلك الذى لم تلطخ حياته بشائبة . أما الآن ، وقد أصبحت أجلس فى مهانة وعار ، فان الأمر يختلف فهذا التسامح من جانبى يعنى الآن شيئاً عظيما بالنسبة إليك . وهو أمر ستدركه يوما . ومع ذلك فسواء أدركته قريباً أو بعيداً ، سريعاً أو لم تدركه بتاتاً ، فإن طريقى واضح أمامى . فأنا لا أستطيع أن أتركك تمضى فى الحياة بينما أنت تحمل فى صدرك هذا العبء ، وهو أنك حطمت حياة رجل مثلى . فهذه الفكرة قد تجعل منك شخصاً غير مبال فى صلابة ، أو قد تحولك إلى شخص مكتئب بصورة وبيلة . ولذلك يجب أن أرفع هذا العبء عن كاهلك لأضعه على عاتقى أنا نفسى .

يجب أن أقول لنفسى إنه لم يكن فى استطاعتك ، ولا فى استطاعة أبيك ، بل ولا فى استطاعة آلاف من أمثالكما ، إيقاع أى دمار بى ، بل كنت أنا الذى دمرت نفسى فليس هناك شخص ، عظيما أو حقيراً ، يمكن أن يدمَّر ، مالم يحدث ذلك بيديه هو نفسه . إنى على أتم استعداد لفعل ذلك . إنى أحاول أن أفعله ، وإن كنت قد لا تفكر فى ذلك فى هذا الوقت فاذا كنت قد وجهت إليك هذا الاتهام القاسى ، فيجب أن تفكر فى الاتهام الذى أوجهه إلى نفسى بغير شفقة . وحقاً إن مافعلته معى كان فظيعاً ، غير أن ما فعلته أنا مع نفسى كان أشد فظاعة .

لقد كنت رجلا قام فى علاقات رمزية تتجه إلى فن عصرى وثقافته . ولقد أدركت ذلك فى فجر حياتى ، وحملت عصرى على إدراكه بعد ذلك . وقليل من الرجال يتمسكون بمثل هذا المركز أثناء حياتهم ويحملون غيرهم على الاعتراف به . فمثل هذا الأمر ، إن حدث التفات إليه ، لايلتفت إليه إلا المؤرخون أو النقاد . وهم لا يفعلون ذلك إلا بعد مضى زمن على

الرجل وعصره وقد اختلف الأمر معي . فقد شعرت به أنا نفسي ، وجعلت الآخرين يشعرون به . لقد كان « بيرون » شخصية رمزية . غير إن علاقاته كانت تتجه إلى انفعال عصره ، وما أصابه من ملل من ذلك الانفعال . أما علاقاتي فكانت تتجه إلى شيء أكثر نبلا وأكثر دواماً ، وأعظم حيوية في انتشاره وأبعد مدى في مجاله .

لقد منحتني الآلهة كل شيء تقريباً . فقد وهبت نبوغاً ، واسماً مميزاً ، ومركزاً إجتماعياً عالياً ، وتألقاً ، وجرأة عقلية . وقد استطعت أن أجعل من الفن فلسفة ومن الفلسفة فناً ؛ كما استطعت أن أغير من عقول الناس ومن ألوان الأشياء . ولم يحدث أن قلت أو فعلت شيئاً لم يثر الدهشة . لقد تناولت الرواية التمثيلية . وهي أعظم الأشكال الموضوعية التي عرفها الفن ، فجعلت منها أسلوباً للتعبير الشخصي ، كالقصيدة الغنائية والقصيدة القصيرة ، وفي نفس الوقت وسعت مداها وأشبعت عناصرها المميزة وقد نظرت إلى التمثيلية ، والقصة ، والقصيدة الموزونة ، والقصيدة المنثورة ، والحوار بنوعيه الاحتيالي والخيالي ، فكان كل ما لمسته من هذا كله جميلا ؛ فقد استطعت أن أخرجه في أسلوب جديد من الجمال بل إنني أضفت إلى الحقيقة نفسها مما هو ليس بحقيقي مالا يقل عن الحقيقي ، كشيء في وضعه الصحيح ، فأظهرت أن غير الحقيقي والحقيقي ليسا إلا صورتين من الوجود الذهني . لقد عالجت الفن باعتباره الحقيقة الأسمى ، أما الحياة فقد نظرت إليها على أنها حالة من الوهم لا أكثر . وقد أيقظت مخيلة جيلي فخلق من حولي الخرافات ونسج الأساطير . ولخصت كل الأساليب في عبارة ، وأجملت كل الوجود في مَثل .

وإنما كان بجانب هذا كله أشياء تختلف . فقد تركت الاغراء يدفع

نفسى إلى نوبات طويلة من الراحة التى انعدم فيها الحس وطغت عليها الشهوة ، وألهيت نفسى بأن جعلت منى لكأة : شخصاً متأنق الزى ، ورجلا يعنيه آخر زى . ثم أحطت نفسى بأحقر الطبائع وأحط العقول . وهكذا أصبحت مبذرا لنبوغى ، وكان تبديد شبابى الخالد يشعرنى بسرور غريب . وإذ أصابنى السأم من وجودى فى القمة فقد انحدرت عمداً إلى الأعماق ، بحثا عن إثارات جديدة . وأصبح الشذوذ لى فى مجال الانفعال ما كان التناقض لى فى مجال الفكر . فأمست الرغبة فى النهاية مرضاً . أو جنوناً ، أو هُما معاً . لقد بت غير مبال بحياة الآخرين ، ومضيت أقتطف السرور كلما طاب لى ثم أسير فى طريقى . وقد نسيت أن كل فعل طفيف من اليوم العادى يصنع الخلق أو لا يصنعه . وعلى هذا ، فما يفعله المرء فى الغرفة المغلقة سيعلنه يوما من فوق سطح المنزل . لقد توقفت عن أن أكون سيداً لنفسى ، ولم أعد موجها لعقلى ، بل ولم أعد أعرف ما هو هـذا العقل . فقد سمحت لك بأن تسيطر علىّ ، وسمحت لوالدك بأن يرعبنى ، ثم انتهيت إلى عار مريع . لم يعد لى الآن غير شىء واحد ، وهو الاتضاع التام . وكذلك لم يعد لك الآن غير شىء واحد ، وهو الاتضاع التام . فالأفضل لك إذن أن تأتى فتهبط إلى التراب لتتعلم ذلك بجانبى !

لقد انطرحت فى السجن ما يقرب من عامين . فخرج من طبيعتى يأس قاتل ، واستسلام للهم كان يثير الرثاء ، وغضب فظيع واهن ، ومرارة واحتقار ، وعذاب كان يصرخ باكيا ، وتعاسة افتقرت إلى التعبير ، وحزن ضرب عليه البكم . وقد مررت بكل حالة ممكنة من الألم . وأدركت ما عناه « وردسورث » أكثر مما أدركه هو نفسه حينما قال :

الألم دائم ، وهو غامض ، ومظلم ،
وإن فيه طبيعة الأبدية (٩٧)

ولكن ، بينما كنت أحيانا أبتهج إذا ما ذكرت أن آلامى ستمضى بغير نهاية ، لم أكن أحتمل أن تكون هذه الآلام بغير معنى . أما الآن فإنى أحس شيئاً مختفياً فى أغوار طبيعتى يخبرنى أن شيئاً ما فى هذا العالم لا يمكن أن يكون بغير معنى ؛ وأن الألم ليس بأقل الأشياء فى ذلك . وهذا الشىء الذى يختفى فى أغوار طبيعتى ، كما يختفى الكنز فى حقل ، هو الاتضاع .

انه آخر شىء بقى لى ، وهو أحسن الأشياء ؛ فهو الكشف النهائى الذى وصلت إليه : نقطة البدء لتقدم جديد . لقد جاءنى مباشرة من نفسى ؛ وعلمت أنه قد جاء فى الوقت المناسب . فلم يكن من الممكن أن يأتى متقدماً أو متأخراً . ولو حدث أن أحداً أخبرنى به لكنت نبذته ؛ ولو حدث أن جيء به إلى لكنت رفضته . أما وقد وجدته أنا نفسى فإنى أريد أن أحتفظ به ، ويجب أن أفعل . انه الشىء الوحيد الذى اجتمعت فيه عناصر الحياة ، حياة جديدة بالنسبة إلىّ . ومن بين الأشياء جميعاً فهو أشدها غرابة . فالمرء لا يستطيع أن يلقيه جانباً . وليس فى مقدور واحد أن يمنحه للآخر . ولا يستطيع أحد أن يحصل عليه مالم يكن قد تنازل عن كل شىء . ولا يستطيع المرء أن يدرك أنه حصل عليه إلا حينما يفقد كل شىء .

أما وقد أدركت الآن انه فى كيانى فإنى أرى بمنتهى الوضوح ماذا أستطيع أن أفعل : ماذا يجب أن أفعل ، فى الحقيقة . ولست فى حاجة إلى أن أخبرك إنى لا ألمح هنا إلى أى تصديق أو أمر خارجى . فأنا لا أعترف بشىء من ذلك . والواقع إنى لم أكن أكثر امعاناً فى فرديتى

فى أى وقت مضى . وليس هناك ، فى نظرى ، شىء له أدنى قيمة ما لم يحصل عليه المرء فى ذاته . إن طبيعتى تبحث عن حالة جديدة من إدراك الذات . وهـذا كل ما يهمنى . وإنما رأيت أن أول ما يجب على فعله أن أحرر شعورى مما قد يكون سيطر عليه من بغض لك .

إننى مفلس تماماً . كما أننى بلا مأوى . غير أن فى العالم أشياء أسوأ من ذلك . وإنى أرى نفسى فى منتهى الصراحة حينما أقول لك إننى حال خروجى من هذا السجن بدلا من أن أخرج وأنا أحمل البغض فى قلبى لك وللناس ، أفضل بسرور ، وفى غير حرج ، أن أستجدى خبزى من باب إلى آخر . فإذا لم أحصل على شىء من بيت الغنى فربما حصلت عليه من بيت الفقير. فأولئك الذين يملكون كثيرا طماعون غالبا ، أما الذين يملـكون قليلا فإنهم يشاركون دائماً . إنى لن أبالى أن أنام صيفاً فى العشب البارد، فاذا حل الشتاء آويت إلى سقيفة من القش أو تحت جناح من مخزن خرب، بشرط أن يكون قلبى عامراً بالحب. ومن هذا تستطيع أن ترى إلى أى حد من الفردية وصلت ، أو انى فى سبيل الوصول . فالرحلة طويلة و « كلما مشيت كان هناك أشواك »(٩٨) .

ومع ذلك فانى أعلم أن الاستجداء فى الطريق العام ليس مما كتب على . ولو حدث أن اضطجعت ليلا فى العشب البارد فلن يكون ذلك إلا لـكتابة قصائد للقمر ! فلا شك أن « روبى » سيكون فى انتظارى من وراء الباب الـكبير المصفح عندما أخرج من السجن . فهو رمز المودة , لا عن نفسه وحسب بل عن كثيرين بجانبه . وإنى أعتقد أنه سيكون لدى ما يكفى لأعيش بعد خروجى ثمانية عشر شهراً كيفما كان الأمر . فاذا لم يتح لى أن أكتب كتباً جميلة فانى — على الأقل — سأقرأ كتباً جميلة . فأى سرور أعظم من ذلك ! ثم أرجو بعد ذلك أن

أكون قادراً على إنعاش مقدرتى الخلاقة . ومع ذلك فحق لو جاءت الأمور على غير ما أتوقع ، فلم أجد صديقاً واحداً بقى لى فى العالم ، ولم أجد واحداً فتح لى بابه ، ولو بدافع الشفقة ؛ ورأيت نفسى مضطراً إلى ارتداء العباءة المرقعة بحكم الفاقه ، فإننى ، طالما كنت متحرراً من الغل والصلف والاحتقار، سأكون أكثر قدرة على مواجهة الحياة مما لو كان جسدى قد لف بالسندس والاستبرق بينما النفس فى داخله تضطرب بالبغض. وبالطبع لن أجد صعوبة فى الصفح عنك ولكن لكى تجعل ذلك ساراً بالنسبة إلىّ يجب أن تشعر بأنك فى حاجة إلى الصفح . فحينما تريد ذلك فعلا ، ستجده فى انتظارك .

لست فى حاجة إلى أن أقول إن واجبى لا ينتهى هنا . ولو كان الأمر كذلك لكان أكثر سهولة . وإنما لا يزال أمامى تلال أكثر انحداراً لأتسلقها ، ووديان أشد ظلاماً لاخترقها . وأنا وحدى الذى يجب أن أقوم بذلك بدافع من نفسى . فلا الدين ولا الأخلاق ولا الرشد يستطيع أن يساعدنى .

إن الأخلاق لا تساعدنى . فقد ولدت مناقضاً للمبادىء : واحداً من أولئك الذين جعلوا لا للقوانين بل للاستثناءات . ولكن ، بينما أرى أنه ليس هناك خطأ فيما يفعله المرء أرى أن هناك خطأ فيما يصير إليه. فياليتك قد أدركت ذلك .

والدين لا يساعدنى . فالإيمان الذى يتجه به الآخرون نحو مالا يُرى أتجه به أنا نحو ما أستطيع أن ألمسه وأنظر إليه . إن آلهتى تقيم فى معابد صنعتها يدى ، وفى دائرة التجربة العملية صنعتُ عقيدتى صحيحة كاملة ، بل ربما تجاوزت الحد فى كمالها ؛ وذلك لأننى ، كأكثر أولئك الذين أقاموا فردوسهم فى هذه الأرض ، أو كلهم ، قد وجدت فيها لا جمال

النعيم وحسب بل رعب الجحيم أيضاً . وحينما أفكر في الدين قط أشعر كما لو كنت أريد أن أؤسس مذهباً لأولئك الذين لا يستطيعون الاعتقاد؛ وهو ما يمكن أن يسمى بأخوّة يتامى السماء ، حيث يقوم بمراسيمه كاهن لم يعرف السلام طريقه إلى قلبه ، بخبز لم يبارك وكأس خلت من النبيذ فوق مذبح لا تقوم فوقه شمعة تضيء . كل شيء صحيح يجب أن يكون عقيدة . بل إن عدم الاعتقاد يجب أن تكون له شعائره بما لا يقل عما للاعتقاد . فقد زرع شهداءه فيجب أن يحصد قدّيسيه ، وأن يمجد الله كل يوم لاختفائه عن الإنسان. ولكن سواء كان الأمر اعتقاداً أو عدم اعتقاد فيما يتعلق بي فيجب ألا يكون هناك عوامل خارجية . فرموزه يجب أن تكون من خلق أنا . وليس هناك ما يستطيع أن يشكلها إلا الجانب الروحي . فإذا كنت لا أجد سره في ذاتي أنا نفسي فإني لن أستطيع قط أن أجده ؛ وإذا كنت لم أحصل عليه من قبل فانه لن يأتي إليّ قط .

والرشد لا يساعدني . فهو يخبرني أن القوانين التي أدنت بموجبها خاطئة وغير عادلة ، وأن النظام الذي تألمت بحكمه خاطيء وغير عادل . غير أنني استطعت بطريقة ما أن أجعل كلا من هذين الأمرين صحيحاً وعادلا في نظري . وكما أن المرء في الفن يهتم فقط بما يكون عليه شيء معين في لحظة معينة بالنسبة إليه ، كذلك يكون الحال في التطور العقلى لخلق الشخص . لقد قررت أن أجعل كل شيء حدث لي طيباً بالنسبة إلى : السرير العارى والطعام المنفّر ، والحبال القاسية التي كنا نفتتها حتى تدمى منا الأصابع ، والخدمات الحقيرة التي كنا نؤديها من صباح اليوم إلى مسائه ، والأوامر الخشنة التي يفرضها « الروتين » كما يبدو ، والملابس المخيفة التي تجعل من الحزن شيئاً مضحكا إذا وقع عليها النظر ،

والسكون ، والوحدة ، والخزى — كل شىء من هذا يجب أن أحوله إلى تجربة روحية ، بل يجب أن أحوله كله إلى هذه التجربة . وليس هناك نوع من انحطاط الجسد لا يجب أن أحاول فيه وأصنع منه كيفاً روحياً تتشرب به نفسى .

أريد أن أصل إلى النقطة حيث أستطيع أن أقول ، بكل بساطة وبغير تكلف ، إن نقطتى التحول العظيمتين فى حياتى كانتا حينما أرسلنى والدى إلى اكسفورد وحينما أرسلنى المجتمع إلى السجن . لن أقول إن ذلك كان أحسن ما يمكن أن يحدث لى ؛ إذ أن هذه العبارة قد تحمل طعماً بالغ المرارة بالنسبة إلى . ولكننى قد أسرع فأقول ، أو أسمع من يقول عنى ، إننى كنت طفلا مثالياً بالنسبة إلى سنى . فقد استطعت فى شذوذى ، أو لغرض هذا الشذوذ ، أن أحول الأشياء الحسنة فى حياتى إلى سيئة والأشياء السيئة إلى حسنة . على كل حال إن ما قيل ، سواء منى أو من غيرى ، لايهم كثيراً . فالشىء المهم الذى يقوم أمامى ، الشىء الذى يجب أن أفعله ، وإلا كنت عاطلا أو مشوها أو ناقصاً ، هذا الشىء هو أن أتشرب فى طبيعتى كل ذلك الذى حدث لى ، وأن أجعل منه جزءا منى ، وأقبله بغير شكوى ولا خوف ولا تردد . إن الضحالة أعظم الرذائل ، أما ما أدرك فهو صحيح مهما كان .

فى بدء حياتى فى السجن نصحنى البعض بأن أحاول أن أنسى شخصيتى فكان فى ذلك بئس النصيحة . وذلك لأننى بادراك من أكون فقط استطعت أن أجد تسلية من أى نوع . والآن تلقيت نصحاً من آخرين بأن أحاول وقت خروجى أن أنسى أنى كنت فى السجن قط . إننى أعلم أن ذلك سيكون سيئاً بالمثل . إنه يعنى انى سأكون دائماً موطن شعور لا يحتمل من العار . وأن تلك الأشياء التى لايقل اهتمامى بها عن غيرى ،

أى جمال الشمس والقمر ، ومناظر الفصول ، وموسيقى انبلاج النهار ، وسكون الليالى الطوال ، والمطر إذ يسقط فوق الأوراق ، والندى إذ يزحف فوق الأعشاب فيكسوها فضة — كل هذه الأشياء ستكون ملطخة بالنسبة إلى ، وتفقد قوتها فى الإبراء ، وتعدم سحرها فى توصيل السرور إن من ينبذ تجاربه إنما يوقف تقدمه . إن من ينكر تجاربه إنما يضع كذبة بين شفتى حياته . إن إنكار المرء تجاربه ليس بأقل من إنكاره لذاته . فكما يتشرب الجسد أشياء عادية وغير نقية بجانب تلك التى يطهرها الكاهن وتنقيها القراءة الدينية ، ليتحول هذا كله إلى قوة أو خفة تتبدى فى حركة العضلات المتناسقة ورشاقة البشرة المتألقة ، وتموج الشعر وتلونه ، وما تنطق به الشفاه وما تنم عنه العيون، كذلك تفعل النفس بدورها ، إذ أن لها هى الأخرى وظائفها فى استمداد قوتها . فهى تستطيع أن تحول ما يكون فيها سافلا . قاسياً ، مؤدياً إلى الانحطاط ، إلى أمزجة من الفكر النبيل ، وعواطف تنطوى على المعنى الجليل . بل أكثر من ذلك إنها قد تجد فى هذه الأشياء نفسها أسمى حالات إثبات وجودها ، وتستطيع غالباً أن تكشف عن ذاتها فى أكمل صورة بما قصد به تدنيسها وتحطيمها .

يجب أن أقبل هذه الحقيقة فى صراحة ، وهى إننى كنت واحداً من نزلاء سجن عام . بل ربما أدهشك أننى جعلتها بين الأشياء التى يجب أن أتعلمها بغير خجل . بلى ، يجب أن أقبلها كنوع من العقاب . وإذا كان المرء أن يخجل من أن يكون عوقب فقد كان يجب ألا يكون عوقب قط . هناك بالطبع أشياء كثيرة أدنت بها وان كنت لم أفعلها . ولكن هناك أيضاً أشياء كثيرة فعلتها مما أدنت به . ثم إن هناك عدداً أكبر من الأشياء فعلته فى حياتى ولم أدن به قط . وفيما يتصل بما قلته فى

هذا الخطاب ، وهو أن الآلهة تبدو غريبة التصرف ، إذ أنها تعاقبنا على ما هو فينا من خـير وإنسانى بقدر ما تعاقبنا على ما هو فينا من شر وانحراف ، أقول إننى يجب أن أقبل هذا الواقع ، وهو أن الإنسان يعاقب على ما يفعله من خير كما يعاقب على ما يفعله من شر . وليس لدى شك فى أن هذا وضع صحيح بالنسبة إلى كل الناس . فهو يساعد المرء ، أو ربما ساعده مستقبلا ، على إدراك الأمرين ، فلا يذهب بعيداً فى انخداعه فى أيهما . فإذا تسنى لى حينئذ ألا أشعر بشىء من الخجل مما حل بى من عقاب، وهو ما أرجوه ، فإننى سأكون قادراً على أن أفـكر وأمشى ، وأعيش فى حرية .

إن كثيراً من الناس حينما يغادرون السجن يحملونه معهم فى الهواء ويخفونه فى صدورهم كعار لا يجب إظهاره . ثم يفعلون أخيراً ما تفعله الأشياء المسمومة الحقيرة ، فيزحفون إلى بعض الجحور ويموتون هناك . إن من التعاسة أن يوجبوا على أنفسهم ذلك . ومن الخطأ ، بل من أشنع أنواعه ، أن يحملهم المجتمع على فعله إن المجتمع يجعل لنفسه حق توقيع العقاب المفزع بالفرد ؛ غير أنه أيضاً مصاب بأعظم الرذائل ، وهو الضحالة . فهو يعجز عن إدراك مغبة فعله ، إذ حينما ينتهى عقاب الشخص يتركه لنفسه ؛ أى أنه يهجره فى اللحظة التى يجب عليه فيها أن يبدأ أهم واجباته نحوه . إنه فى الواقع يشعر بالخجل من أفعاله هو نفسه ، فيتجنب أولئك الذين عاقبهم كما يتجنب الناس دائناً لا يستطيعون الوفاء بدينه ، أو شخصا أوقعوا به خطأً لا يمكن تداركه : إننى أطالب من جانبى بأنه إذا كنت قد أدركت ما قاسيته فإن المجتمع يجب أن يدرك ما أوقعه بى ، وألا يكون هناك مرارة ولا بغض من جانب نحو الآخر .

إننى أعلم بالطبع أن الأمور من وجهة نظر واحدة ستكون أشد

صعوبة بالنسبة إلى . بل انها فى الحقيقة يجب أن تكون كذلك بطبيعة الحال . فالبؤساء من اللصوص والمنبوذين الذين سجنوا هنا معى أسعد منى حظاً من نواحى عديدة . وذلك لأن الطريق الضيق الذى شاهد خطيئتهم فى المدينة القاتمة أو الحقل الأخضر ليس طويلا. فهم لا يحتاجون إلى الذهاب أبعد مما يقطعه طائر من وقت الشفق حتى طلوع الفجر ليكونوا بين من لا يعرفون شيئاً عما فعلوه . أما بالنسبة إلى فان « العالم قد انكمش إلى عرض الكف »(٩٩) ، وحيثما انقلب فإن اسمى يبدو مكتوباً على الصخور بمداد من رصاص . وذلك لأنى قد جئت لا من ظلمة سوء السمعة العارض فى جريمة بل من ضرب من الشهرة الخالدة إلى ضرب من الفضيحة الخالدة ! وأنه يبدو لى أحياناً أنى أظهرت ما كان حقا يتطلب الإظهار ، وهو أن الفرق بين الذائع الصيت والسيء السمعة لا يعدو خطوة ، إذا كان حقاً يمثل هذا القدر من الاتساع .

ومع ذلك ، فمن هذه الحقيقة نفسها ، وهى أن الناس سيميزوننى أينما ذهبت ، ويعرفون كل شيء عن حياتى على طول ما تترامى إليه حماقاتى ، أستطيع أن أدرك شيئاً طيباً بالنسبة إلىّ . فهذا سيفرض علىّ ضرورة إثبات وجودى ثانية كفنان ، وبأسرع ما أستطيع . فإذا استطعت أن أخرج ولو عملا جميلا واحداً من الفن بجانب ما أخرجت فإنى سأكون قادراً على أن أنزع من الضغينة سمّها وأجرد الجبن من سخريته وأقتطع لسان الاحتقار من أصله. فإذا كانت الحياة مشكلة لى ، وهى كذلك وبالتأكيد ، فلن أكون أقل من ذلك لها . إن الناس يجب أن يتخذوا حيالى موقفا ما، وبهذا يستطيعون إصدار حكمهم على أنفسهم وعلى . لست فى حاجة إلى القول بأنى لا أتكلم هنا عن أفراد معينين . إن من يهمنى الآن أن أكون بينهم هم فقط الفنانون وغيرهم ممن تعذبوا:

أولئك الذين يعلمون ماهو الجمال ، وأولئك الذين يعلمون ماهو الحزن . ولم يعد هناك غير هؤلاء من يهمنى. كذلك لا أريد أن أفرض لى مطالب على الحياة . ففى كل ذلك الذى ذكرته ينحصر اهتمامى ببساطة فى وضعى العقلى تجاه الحياة كاملة . وإنى أشعر بأن عدم خجلى من أنى عوقبت من النقاط الأولى التى يجب أن أحصل عليها ، بقصد وصولى إلى الكمال، إذ إننى لا أزال بعيداً عنه .

يجب بعد ذلك أن أتعلم كيف أكون سعيداً . لقد حدث مرة أن تعلمت ذلك بالغريزة ، أو حسبت أنى تعلمته . كان هناك ربيع دائم فى قلبي ، وكانت حرارتى تتجانس مع السرور ؛ فقد ملأت حياتى بألوانه إلى الحافة ، كما تمتلىء الكأس بالنبيذ إلى الحافة . أما الآن فإنى أقترب من الحياة من نقطة وقوف جديدة تماماً ؛ وقد أصبحت أجد صعوبة شديدة حتى فى تصور السعادة . إنى أذكر يوم أن كنت فى الدور الأول من دراستى فى اكسفورد ، إذ كنت أقرأ فى كتاب « باتر Pater » عن « النهضة Renaissance »(١٠٠) — ذلك الكتاب الذى كان له تأثير غريب على حياتى — فرأيت كيف يضع « دانتى Dante » فى أعماق الجحيم أولئك الذين يعيشون عن قصد فى الحزن . وقد ذهبت يومها إلى مكتبة الكلية ، ورجعت إلى « الكوميديا المقدسة Divine Comedy » حيث وقعت على الفقرة التى جاء فيها أنه يرتمى تحت المستنقع الموحش أولئك الذين كانوا « عابسين فى الجو اللطيف » ، يقولون دائماً فى تنهداتهم :

حزانى كنا مرة
فى الجو اللطيف الذى جعلته الشمس ساراً(١٠١)

لقد علمت أن الكنيسة أدانت « اكسيديا Accidia » ؛ غير أن

الفكرة برمتها تبدو لى خيالية ، تماماً كذلك النوع من الخطيئة — كما أتصور — الذى يستطيع أن يخترعه كاهن لم يعرف شيئاً عن حقيقة الحياة . كذلك لم أستطع أن أفهم كيف استطاع دانق ، وهو الذى يقول « إن الحزن يزوّجنا ثانية من الله »(١٠٢) ، أن يكون هكذا خشناً مع أولئك الذين عشقوا الـكآبة ، إذا كان هناك حقاً شىء من ذلك . ولم يكن لدى فـكرة بأن هذا الأمر سيصبح يوماً من أعظم وسائل الإغراء فى حياتى .

حينما كنت فى سجن « واند سورث » كنت تواقا إلى الموت . فقد كانت تلك رغبتى الوحيدة . وحينما نقلت إلى هنا بعد بقائى شهرين فى المصحة ، ورأيت صحتى تتقدم باطراد ، ملأنى الغضب؛ فعزمت على الانتحار فى نفس اليوم الذى أغادر فيه السجن . غير أن هذه الفـكرة السيئة تلاشت بعد حين ، فصممت على أن أعيش ، ولـكن لأرتدى ثوب الـكآبة ، كما يرتدى الملك ثوبه الارجوانى ، فقد عزمت على الا أبتسم ثانية قط ، وأن أحول أى بيت دخلته إلى مأتم ، وأن أجعل أصدقائى يسيرون معى ببطء فى جو من الحزن، وأن أعلمهم أن الـكآبة هى السر الحقيقى للحياة ، وأن أشلهم بحزن غريب عنهم ، وأن أشوّههم بما أشعر به من آلام . غير إننى أشعر الآن بخلاف ذلك كله . فأرى أنه سيكون من الجحود وعدم الشفقة أن أبدو هكذا بوجه متجهم ، حتى إذا جاء أصدقائى لرؤيتى كان عليهم أن يجعلوا وجوههم أكثر تجهماً لـكى يظهروا عطفهم . أو ، إذا رغبت فى اكرام وفادتهم ، أن أدعوهم إلى الجلوس فى صمت إلى مائدة من الأعشاب المرة واللحم الذى نضج بنار المـآتم . يجب أن أتعلم كيف أكون منشرحاً وسعيداً .

ولقد حاولت فى المرتين الأخيرتين اللتين سمح لى فيهما هنا برؤية

أصدقائى أن أكون منشرحا قدر استطاعتى ، وأن أظهر لهم هذا الانشراح ؛ وذلك لكى أكون أديت ولو القليل من جميلهم فى تحمل متاعب الطريق من المدينة لزيارتى . إننى أعلم أن هذا شىء طفيف ، كرد لجميلهم ، غير أننى متأكد من أنه يسرهم إلى أبعد حد . لقد رأيت « روبى » لمدة ساعة فى سبت الأسبوع ، وحاولت أن أعبر بأقوى ما يمكن عن الابتهاج الذى شعرت به فعلا حال لقائنا(١٠٣) . أما الدليل على أننى مصيب تماماً فيما أشكله هنا لنفسى من آراء وأفكار فقد أظهرته هذه الحقيقة ، وهى أننى الآن ، للمرة الأولى منذ دخولى السجن ، أشعر برغبة صادقة فى الحياة .

لا يزال أمامى الكثير مما يجب فعله . فان مت قبل أن يتاح لى أن أكمل ولو القليل منه فإن الأمر سيكون مأساة فظيعة بالنسبة إلى . إننى أرى مظاهر جديدة من التقدم فى الفن والحياة ، وكل منها يشكل حالة جديدة من الكمال. انى والحق راغب فى أن أعيش حتى أكمل اكتشاف مالا يقل عن عالم جديد بالنسبة إلى . فهل تدرى ما هو هذا العالم ؟ تستطيع أن تحدس ! فهو العالم الذى كنتُ أعيش فيه .

الحزن ، إذن ، وكل ما يعلمه المرء ، هو عالمى الجديد. لقد درجت على أن أعيش بكليتى للسرور. تجنبت الحزن والألم من كل نوع. كرهت الاثنين . وصممت على تجاهلهما قدر استطاعتى ؛ وأن أعالجهما ، بمعنى الكلمة ، كحالات من النقص . ولم يكونا جزءا من خطتى فى الحياة ، ولم يكن لهما محل فى فلسفتى . وكانت والدتى ، وقد خبرت الحياة بصورة كاملة ، كانت تعمد غالباً إلى إسماعى سطوراً لـ « جوته Goethe » كتبها « كارليل Carlyle » فى كتاب أهداه إليها قبل سنوات ، وأحسبها ترجمت بواسطته أيضاً ، وهى :

إن من لم يأكل قط خبزه فى الحزن ،
ومن لم يقض ساعات منتصف الليل
يبكى وينظر إلى الغد ،
لا يعرفك قط ياقوى السماء(١٠٤)

تلك كانت السطور التى مضت تكررها ملكة بروسيا النبيلة فى ذلة الأسر ، بعد أن أمعن « نابليون » فى الاساءة إليها(١٠٥) . وهى نفس السطور التى مضت والدتى تكررها فى متاعبها فى أيامها الأخيرة . أما أنا فقد رفضت بتاتاً أن أقبل ما انطوت عليه من معنى صادق أو أعترف به ، بلى ، لم أستطع أن أفهمها . وإنى أذكر جيداً كيف مضيت أخبرها إننى لا أريد أن آكل خبزى فى الحزن ، ولا حاجة بى إلى قضاء الليل باكياً فى تطلع إلى فجر أشد مرارة . ولم يكن لدى فكرة بأن ذلك كان مما اختزنته الأقدار لى بصورة خاصة ؛ وأنه لن يكون لدى بالتأكيد إلا القليل لأفعله بجانب ذلك طوال عام كامل من حياتى . ولكن هكذا قدّر لى نصيبى منه . وقد استطعت خلال الشهور القليلة الماضية ، بعد كثير من الكفاح والصعوبات ، أن أفهم بعض الدروس التى انطوى عليها قلب الألم . إن رجال الدين وغيرهم من أصحاب العبارات الجوفاء يشيرون أحياناً إلى الألم كما لو كان سرّاً غامضاً . وهو ليس كذلك فى الحقيقة ، بل هو كشف . فالمرء به يرى أشياء لم يرها قط من قبل ؛ والمرء به يقترب من التاريخ بجملته من نقطة بدء مختلفة ؛ وما كان يشعر به عن الفن فى غموض بواسطة الغريزة يمكن أن يميّز به عقلياً وانفعالياً فى وضوح تام من الرؤيا وشدة متناهية من الإدراك .

إنى أرى الآن أن الحزن ، إذ أنه أعظم انفعال يستطيع أن يتأثر به الإنسان ، هو برمته النمط والتجربة لكل أنواع الفن المظيم . إن

ما يبحث عنه الفنان دائماً هو تلك الحالة من الوجود التى تكون فيها النفس والجسد شيئا واحداً لا يقبل التقسيم . تلك الحالة التى يكون فيها الظاهر معبراً عن الباطن . تلك التى تكشف فيهـــا الصورة عن نفسها[١٠٦] . من مثل هذه الحالات من الوجود هناك كثير . فالشباب بما احتل تفكيره من فنون يمكن أن يؤدى لنا دور المثال فى وقت . وفى وقت آخر ربما أحببنا أن نفكر فى الفن الحديث للمناظر الطبيعية على أنه ، بما فيه من دهاء وحساسية فى التأثير ، وإيحاء بالروح التى تستوطن الأشياء الخارجية وتصنع كساءها من الأرض والهواء ، كما تصنعه من المدينة والضباب ، ومن العطف السوداوى الذى يتأتى فى حالاته ، وأنغامه ، وألوانه ، يستطيع أن يميز لنا تصويرياً ماميزه من قبل، كذلك الكمال التشكيلى الذى تجلى فى الفن الاغريقى . إن الموسيقى التى يذوب فيها الموضوع بأكمله ولا يتأتى فصله عنها تقدم مثلا مركبًا لما أرمى إليه . أما الطفل أو الزهرة فإنها تقدم مثلا بسيطاً . غير أن الحزن هو النمط النهائى فى كل من الحياة والفن .

من وراء الفرح والضحك قد تكون هناك جبلة خشنة ، جافة ، صلبة . ولكن من وراء الحزن لا يوجد دائماً إلا الحزن . والألم بخلاف الفرح ، لا يستطيع أن يرتدى قناعاً . إن الحقيقة فى الفن ليست شيئاً من الصلة بين الوجود العارض والفكرة الجوهرية . إنها ليست مشابهة من الظل للشكل ، أو صورة منعكسة فى المرآة من الصورة نفسها . إنها ليست صدى يأتى من تل أجوف ، وما كان أعظم من ذلك فهو لا يعدو بئر الماء الفضى فى الوادى ، حيث يرى القمر ذاته ويرى « نارسيس » نفسه . وإنما الحقيقة فى الفن هى وحدة الشىء مع ذاته . إنها الخارج يعبر عن الداخل . النفس تتجسد . غريزة الجسد تسرى فى كيان الروح . لهذا السبب لا يوجد حقيقة تماثل الحزن . بل ان الحزن يبدو لى أحياناً

وكأنما ليس هناك حقيقة غيره . إن الأشياء الأخرى ربما كانت تخيلات جاءت من زيغ البصر أو من جموح الشهوة ، يعمى بها الأول وتفعم الثانية . وإنما بنيت العوالم من الحزن . وحينما يولد طفل أو كوكب يوجد ألم .

أكثر من ذلك ، هناك حقيقة قاسية غريبة عن الحزن . فقد قلت عن نفسى إننى كنت واحداً وقفت فى صلات رمزية للفن والثقافة فى عصرى . وأقول أنه لا يوجد رجل تعيس واحد بجانبى فى هذا المكان التعيس لم يقف فى صلات رمزية لسر الحياة فى صميمه . وذلك لأن سر الحياة هو الألم . انه الشىء الذى يختفى وراء كل شىء . حينما نبدأ الحياة يكون الشىء الحلو حلواً ، والمرّ مراً . فلا يسعنا إلا أن نوجه جميع رغباتنا نحو السرور ، وأن نبحث لا عن « شهر أو اثنين لنعيش على قرص الشهد »(١٠٧) وحسب ، بل عما يجعلنا طوال حياتنا لا نتذوق طعاماً آخر ، متجاهلين فى نفس الوقت اننا بذلك ربما حرمنا النفس من غذائها بصورة تامة .

أذكر أنى تكلمت يوما فى هذا الموضوع إلى واحدة من أجمل الشخصيات التى عرفتها فى حياتى(١٠٨) : امرأة كان عطفها النبيل علىّ قبل وأثناء مأساة سجنى أبعد من المقدرة وأجل من الوصف . واحدة قد ساعدتنى حقاً ، وإن لم تعرف هى ذلك ، على أن أحمل عبء متاعبى أكثر مما فعل آخر فى العالم كله ؛ وقد جاءتنى هذه المساعدة من مجرد وجودها ، وكونها ما هى : مثالا من جانب وقوة مؤثرة من جانب آخر . مصدرَ وحى بما قد يصير إليه المرء ، وقوة مساعدة نحو ما هو صائر إليه . نفساً تحيل الهواء المادى إلى عنصر لطيف ، وتجعل الشىء الروحى يبدو فى بساطة ضوء الشمس وطبيعة البحر . انسانة يسعى لأجلها الجمال والحزن

يحملان نفس الرسالة ويد كل منهما فى يد الآخر . وفى تلك المناسبة التى أفكر فيها الآن أذكر جيداً كيف قلت لها إن هناك كثيراً من الآلام فى بعض أزقة لندن ، وهو مايدل على أن الله لايحب الناس . وإنه حيثما وجد شىء من الحزن ، ولو اقتصر على بكاء طفل فى حديقة صغيرة بسبب غلطة حدثت منـه أو لم تحدث ، فإن هذا يشوّه وجه الخليقة بصورة تامة . فردت على بأنى مخطىء كل الخطأ . غير أنى لم أستطع أن أصدق ذلك ؛ إذ لم أكن فى جو يسمح بالوصول إلى مثل ذلك الاعتقاد . أما الآن فيبدو لى أن الحب من أى نوع هو التوضيح الوحيد لوجود هذا القدر الكبير من الألم فى العالم . إنى لا أستطيع أن أتصور أى توضيح آخر . بل انى مقتنع بأنه ليس هناك توضيح آخر . فإذا كانت العوالم قد بنيت حقاً من الحزن , كما قلت ، فيجب أن يكون ذلك قد حدث بأيدى الحب وذلك لأن النفس الإنسانية ، وهى التى صنعت لأجلها تلك العوالم ، لا تستطيع عن طريق آخر أن تصل إلى الحالة التامة من كمالها . إن السرور للجسد الجميل أما النفس الجميلة فليس لها غير الألم .

عندما أقول انى مقتنع بهذه الأشياء أقول ذلك فى كثير من الفخر . فهناك ، عن بعد ، تبدو مدينة الله كلؤلؤة لا شائبة فيها . ومن العجيب أنها تبدو وكأنما يستطيع طفل أن يصل إليها فى بعض أيام الصيف ! هكذا يستطيع طفل أن يفعل . غير أن الأمر يختلف معى ومع أمثالى . إن المرء يستطيع أن يحقق شيئاً فى لحظة ، غير أنه يفقده فى الساعات التى تتعاقب فى بطء فمن الصعب الاحتفاظ بـ « المرتفعات التى تستطيع النفس أن تبلغها »(١٠٩) . اننا نفكر فى الأبدية ، غير أننا نتحرك فى بطء من خلال الزمن . لست فى حاجة إلى التحدث ثانية عن الزمن إذ يمضى معنا بطيئاً نحن الذين نرتمى فى السجن ؛ ولا عن الملل واليأس

إذ يعاودان الزحف إلى زنزانة كل منا . ولا يقف كل منهما عند ذلك الحد بل يتسرب إلى قلبه . ويفعل ذلك فى إصرار غريب كما لو كان يريد أن يرى البيت رتب وزين استعداداً لقدومه ، كما يفعل المرء لاستقبال زائر وان كان غير مرغوب ، أو سيد مرهوب ، أو عبد لا مناص من الرضوخ لاستعباده . ومع أنه قد يكون من الصعب عليك حالياً أن تصدق ما أقول، فإنى لا أعدو الحقيقة إذا قلت إن تعلم دروس الانضاع أسهل عليك منى ؛ إذ بينما تعيش فى حرية وبطالة وراحة , أبدأ يومى بالإنكباب لغسل أرض زنزانتى . وذلك لأن حياة السجن ، بما فيها من حرمان وتشديد لا حد لها ، تجعل من المرء متمرداً . وأفظع شىء فيها أنها لا تحطم القلب — فالقلوب لم تخلق إلا لكى تتحطم — بل تحيله إلى حجر ! والواقع أن المرء يشعر أحياناً بأنه لا يستطيع أن يعيش يومه إلا إذا أوتى جبهة من نحاس وشفتين من الاحتقار . وثمة عبارة أغرمت بها الكنيسة ، وهى أن من كان فى حالة تمرد لا يتلقى قط بركة من السماء . وأحسبها على حق فى ذلك . فحالة التمرد فى الحياة ، كما هى فى الفن، تسد قنوات النفس وتمنع عنها أنفاس السماء . ومع ذلك فيجب أن أتعلم هذه الدروس هنا ، إذا كان لى أن أتعلمها فى أى مكان . ويجب أن يمتلىء قلبى بالسرور إذا كانت قدماى على الطريق الصحيح ، وكنت ميمما وجهى شطر الـ « مسلك الذى يدعى بالجميل »(١١٠) ، وإن كان من المحتمل أن أسقط مرات فى الوحل ، وأضل غالباً فى الضباب .

هذه الحياة الجديدة ، كما يدفعنى حبي لدانتى أحياناً إلى أن أسميها ، ليست بالطبع جديدة بأى حال . فهى ببساطة استمرار وارتقاء لحياتى السابقة عن طريق التطور . أذكر انى وقت أن كنت فى اكسفورد كنت أتمشى ذات صباح مع واحد من أصدقائى فى الممرات الضيقة التى

تعشش فيها الطيور حول « مجدالن » . وكان ذلك فى يونيو ، قبل حصولى على درجتى الجامعية . فقلت له انى أريد أن أتذوق ثمار جميع الأشجار فى حديقة هذا العالم ، وإننى خارج إلى الدنيا أحمل بين جنبى هذه الشهوة . وكان أن خرجت مشوباً بها ، وعشت دائماً فى تيارها . وإنما كان خطئى فى اننى حصرت نفسى فى التقاط ثمار ما بدا لى انه الجانب المشرق من الحديقة وتجنبت ما تراءى لى انه ظلال وكآبة . فالخيبة والفضيحة ، والفقر والحزن، واليأس والألم ، وحتى الدموع ، والكلمات المتكسرة التى تخرج من شفتى الألم ، والندم الذى يجعل المرء يمشى فى الشوك ، والضمير الذى يدين ، والذل الذى يعاقب ، والبؤس الذى يحثو التراب فوق رأسه ، والكرب الذى يختار الخيش ملبساً ويصب المرّ فى شرابه — كل هذه الأشياء كانت تخيفنى . ولكننى ، وقد صممت على ألا أعرف شيئاً منها ، أقسرت على أن أتذوقها جميعاً ، كلاً بدوره ، وأن أعيش عليها ، وألا يكون لدى فى الواقع طعام غيرها لفترة طويلة . ومع ذلك فإننى لا أشعر قط بشىء من الأسف على أن عشت للسرور . فقد فعلت ذلك إلى النهاية ، كما يفعل المرء شيئاً حتى نهايته . ولم يكن هناك نوع من السرور لم تكن لى فيه تجربة . لقد طرحت جوهرة نفسى فى كأس من النبيذ ، وانحدرت فى درب زهور الربيع إلى صوت الناى ، وعشت على قرص الشهد . ولكن كان من الخطأ الاستمرار فى حياة تبينت أنها تحدّ من الطاقة . فكان يجب أن أمضى قدما . لقد كان للنصف المظلم من الحديقة أسراره كذلك .

كل هذا قد رمز إليه طبعاً وصور من قبل فيما أخرجته من أعمال فنية . فقد جاء بعضه فى « الأمير السعيد » ، وجاء بعضه فى « الملك الشاب » ، خصوصاً فى العبارة التى يقول فيها الأسقف للشاب الراكع :

« أوَ لا ترى أن مَن صنع البؤس أحكم منك ؟ » ، وهى عبارة لم أر فيها حينما كتبتها أكثر من عبارة . وإنما اختفى قدر كبير منه فى نغم القضاء المبرم الذى ينساب خلال النسيج الذهبى لـ « دوريان جراى » كما ينساب خيط أرجوانى . أما فى « الناقد كفنان » فقد عرض فى ألوان كثيرة . وفى « روح الانسان » كتب ببساطة بحروف سهلة القراءة . وهو واحد من المذاهب التى تجعل دوافعها المتكررة من « سالومى » قطعة من الموسيقى وتوجد فيها تماسك القصيدة . كما أنه يبدو متجسداً فى القصيدة النثرية للرجل الذى كان عليه أن يجعل من صورة برونزية لـ « السرور الذى يعيش للحظته » صورة من « الحزن الذى يعيش إلى الأبد »(١١١) . ولم يكن فى الامكان أن يكون شيئاً غير ذلك . فى كل لحظة من حياة الانسان لا يكون المرء أقل فيما هو صائر إليه مما كان فيه من قبل . إن الفن رمز ، وذلك لأن الانسان رمز .

إنه الادراك النهائى للحياة الفنية ، إذا استطعت أن أصل إليه كاملا وذلك لأن الحياة الفنية تطور ذاتى يمضى فى بساطة . والاتضاع فى الفنان هو قبوله كل التجارب فى صراحة . كما أن الحب فيه هو ببساطة ذلك الشعور بالجمال الذى يكشف للعالم عن جسده وعن روحه .

فى « ماريوس الأبيقورى Marius the Epicurean » يسعى « باتر Pater » فى إيجاد توافق بين الحياة الفنية والحياة الدينية بمعنى الكلمة العميق ، القوى ، الجميل . غير أن « ماريوس » لا يزيد كثيراً عن مشاهد . مشاهد مثالى فى الواقع ، وواحد عُهد إليه أن « يتأمل فى منظر الحياة بعواطف متناسبة » ، وهو مايعرّفه « ورد سورث » بأنه الهدف الحقيقى للشاعر(١١٢) .

ولكنه مجرد مشاهد . وربما كان انشغال تفكيره بما فى أوانى

المعبد من جمال جمله لا يفطن إلى أن ما ينظر إليه هو معبد الحزن !

انى أرى ارتباطا أوثق صلة بين حياة المسيح الصادقة وحياة الفنان الصادقة . وأشعر بسرور عظيم حينما أذكر انى ، قبل أن يجعل الحزن من أيامى شغلته ويربطنى اليأس إلى عجلته ، كتبت فى « روح الانسان » أن ذلك الذى يستطيع أن يعيش حياة تكون صورة من حياة المسيح يجب أن يكون هو نفسه ، بل وأن يكون ، كأبطالى ، قد أخذ « لا فقط دور الراعى فوق التل والسجين فى الزنزانة ، بل أيضاً المصور إذ يرى فى العالم موكبا ، والشاعر إذ يرى فيه أغنية . أذكر انى قلت مرة لـ « أندريه جيد André Gide » ، بينما كنا نجلس فى بعض مقاهى باريس ، انه بينما لا تثيرنى إلا قليلا علوم الميتافيزيقا ، ولا يثيرنى بالمرة علم الأخلاق فإن شيئاً ما قاله أفلاطون أو قاله المسيح لا يمكن أن يجد صعوبة فى تحويله فى الحال إلى مجال الفن ، ليجد فيه إنجازاً تاماً . لقد كان الأمر تعميما لم يكن فى عمقه بأقل منه فى جدته .

والواقع إننا نستطيع أن نرى فى المسيح لافقط تلك الوحدة التامة بين الشخصية والكمال ، وهى التى تشكل التمييز الصحيح بين الفنين الكلاسيكى والرومانتيكى ، وتجعل من المسيح الرائد الصادق للحركة الرومانتيكية فى الحياة ، بل أيضاً أن أساس طبيعته فى صميمه كان هو نفسه أساس طبيعة الفنان : مخيلة قوية متوقدة . لقد أدرك فى دائرة العلاقات الإنسانية بكاملها ذلك العطف الخيالى الذى هو السر الوحيد للابداع فى مجال الفن . فرأى جذام المجذوم ، وظلام الأعمى ، والبؤس القاتل لأولئك الذين يعيشون للسرور ، والفقر العجيب لمن تصوروا أنهم أغنياء ، انك تستطيع أن ترى الآن — أم تراك لا تستطيع ؟ — تستطيع أن ترى انك حينما كتبت إلى فى مرضى تقول : « حينما

لا تكون منتصبا على قدميك فإنك لا تثير اهتمامى . وعندما تقع فى المرض مرة أخرى سأهجرك فى الحال » ، حينما قلت ذلك كنت بعيداً عن مزاج الفنان بقدر ما كنت بعيداً عما يسميه « ماثيو أرنولد Matthew Arnold » « سر عيسى »(١١٣) . وكلا الأمرين كان يجب أن يعلمك أن ما يحدث لآخر يحدث لك أنت نفسك . فهل لك فى شعار تكرره فى الصباح وفى المساء ، وتقرأه للسرور كما تقرأه للألم ؟ اذن أكتب على حائط منزلك بحروف تسطع عليها أشعة الشمس ، وتقع عليها أضواء القمر « إن ما يحدث لشخص آخر يحدث المرء نفسه » . فإذا سألك سائل عن معنى ذلك فقل له إنه يعنى « قلب الســيد المسيح وعقلية شكسبير » .

إن مكان المسيح هو فى الحقيقة بين الشعراء . أما فكرته الكاملة عن الإنسانية فقد قفزت رأسا من المخيلة ، وبالمخيلة وحدها يمكن أن تدرك . لقد كان الانسان فى نظره ما كان الله فى نظر المعتقد بوحدة الوجود . وكان هو أول من فكر فى الأجناس المنقسمة كوحدة. وكان هناك قبل زمنه آلهة وأناس ، فكان هو وحده الذى رأى انه لا يوجد فوق تلال الحياة إلا الله والانسان . وإذ كان يشعر من خلال تصوفه العاطف بأن كلا منهما قد تجسد فيه ، فقد دعا نفسه ابن الواحد أو ابن الآخر ، حسبما كان ينتابه من حال . وأكثر من أى واحد فى التاريخ ، أيقظ فينا ذلك المزاج من العجب الذى ترجع إليه الرومانسية دائماً ، ولا يزال هناك شىء بالنسبة إلى لا يكاد يصدق : فكيف تخيل فلاح شاب من قرية الجليل انه قادر على أن يحمل على كتفيه عبء العالم كله... كل ما فعله الناس من قبل وكل ما تألموا منه ، وكل ما هو فى سبيل الحدوث من أفعال وآلام ... خطايا نيرون ، وخطايا سيزار بورجيا ،

وخطايا الاسكندر السادس ، وخطايا ذلك الذى كان إمبراطورا لروما وكاهناً للشمس(١١٤) ... آلام أولئك الذين كانوا يدعون بـ « لجيون Legion » ويقيمون بين المقابر(١١٥) ... الشعوب المظلومة ، وأطفال المصانع ، واللصوص ، ونزلاء السجون ، والمشردين ، وأولئك الذين حبست ألسنتهم تحت الظلم ، وأولئك الذين لم يسمع شكواهم إلا الله(١١٦) بل ولا يكتفى بتخيل هذا كله وإنما يمضى عملياً فى تنفيذ فكرته . فكان أن أصبحنا فى هذا الوقت وجميع أولئك الذين يتصلون بسبب بشخصيته ، وإن لم ينحنوا نحو مذبحه أو يركعوا تجاه كاهنه ، يجدون بالرغم من ذلك أن قبح خطاياهم أزيل بطريقة مامن نفوسهم ، ليتكشف لهم مافى أحزانهم من جمال ؟

لقد قلت ان مكانه بين الشعراء . وهذا حق . فـ « شيلى Shelley » و « سفوكليس Sophocles » من زمرته . غير أن حياته كاملة هى أيضاً أعجب مافى الشعر من قصائد . فمن « الشفقة والرعب »(١١٧) لا يوجد فى عصر المأساة الإغريقية بتمامه ما يصل إليها . ففيها ترفع طهارة الممثل التامة النسق كاملا إلى ذروة من الفن الرومانتيكى استبعدت منه كلية آلام « خط طيبة وبيلوبس(*) »(١١٨) بما فيها من رعب كبير . وهى

(*) « طيبة Thèbes » المشار إليها هنا ليست العاصمة القديمة لمصر ، وهى التى تقوم على انقاضها مدينة الأقصر حاليا . بل هى العاصمة القديمة لملكة « بيوتى Béotie » فى بلاد الاغريق . وقد ورد ذكرها فى أسطورة « أوديب » .

أما « بيلوبس Pelops » فهو حفيد جوبيتر وابن « تانتان » ملك ليديا . وقد ذبحه أبوه قربانا للالهة وقدمه لهم طعاما فى وليمة أعدها لهم فى قصره . فلم يتناول من هذا الطعام الفظيع سوى « سيريه Cérès » آلهة الزراعة ، إذ كانت مستغرقة فى الحزن بسبب فقد ولدها . وقد أعاد « جوبيتر » إليه الحياة ، وعوضه كتفا من العاج عما تناولته « سيريه » من جسده « المترجم »

تظهر كيف كان أرسطو مخطئاً حينما قال فى مقالته عن التمثيلية إن المرء قد يستحيل عليه أن يحتمل مشهد برىء فى الألم[119] . كلا ، ولا فى « اسخيلوس Aeschylus » أو « دانتى Dante » ، وهما الفارسان العابسان فى تصوير المزاج الرقيق . ولا فى « شكسبير » أطهر الانسانيين بين جميع الفنانين، ولافى جميع الخرافات والأساطير السلتية « Celtic » حيث عرض جمال العالم من خلال غمامة من دموع، وبدت حياة الانسان وكأنما هى لا تزيد عن حياة زهرة . ليس فى هذا كله شىء ما يمكن أن يقال انه ، لمجرد البساطة فى الحنان وقد اقترن واتحد بسمو التأثير المفجع، يتعادل ، أو حتى يتقارب ، من الفصل الأخير من آلام المسيح . فالعشاء البسيط مع رفاقه، ومن بينهم واحد سبق أن باعه لقاء دراهم، والكرب الذى كان يعانى منه فى حديقة الزيتون الساكنة فى ضوء القمر ، والصديق الكاذب ، إذ يقترب منه ليخدعه بقبلة ، ذلك الصديق الذى كان هو لا يزال يتوسم فيه الصدق ، بل ويرجو أن يعتمد عليه ، كما يعتمد المرء على صخرة ، فى بناء بيت يكون ملاذاً للانسان . فإذا به ينكره وقت أن صاح الطائر معلنا طلوع الفجر ! .. ووحدته المطبقة، وتسليمه ، ثم قبوله كل شىء . كل ذلك وما كان بجانبه من مشاهد أخرى، كمشهد كبير كهنة الأرثوذكسية « Arthodoxy » إذ يشق ثوبه غضباً ،ومشهد قاضى المحكمة المدنية ، إذ يدعو بماء للتطهر عبثاً من تلك اللطخة من دم البرىء التى جعلت منه رقما قرمزيا فى التاريخ ؛ ومشهد حفلة التتويج بالحزن ، وهى من أعجب ما سجل من أحداث الزمن ، وصلب الانسان البرىء على مرأى من أمه ومن التلميذ الذى أحبه ، والجنود إذ يخاطرون على ملابسه ويلقون بالنرد للحصول عليها ؛ والموت المرعب، الذى أعطى للعالم أعظم رموزه خلوداً ، ثم دفنه أخيراً فى قبر الرجل الغنى ، بعد أن

لف جسده فى كتان مصرى وضمخ بعطور ثمينة ، كما لو كان من أبناء الملوك . عندما يتأمل المرء فى هذا كله من وجهة النظر الفنية البحتة لا يملك إلا أن يشعر بالسرور ، إذ يرى أن أسمى وظائف الكنيسة يجب أن يكون تمثيل المأساة بغير إراقة دماء : عرضها رمزياً بواسطة الحوار ، والملابس، والحركات ، ولو كانت آلام سيدها نفسه ! والواقع أنى أشعر بشىء من الفزع يخالطه السرور حينما أذكر أن الكورس الإغريقى قد فقد نهائياً من مجال الفن، فلم يعد يوجد إلا فى وظيفة ذلك المساعد إذ يرد على الكاهن فى قيامه بالقداس .

ومع ذلك فإن حياة المسيح فى جملتها ، حيث يمتزج الحزن بالجمال فى معناها وتجليهما بصورة تامة ، هى فى الواقع صورة من نشيد الرعاة ، وإن كانت تنتهى بتمزيق قناع المعبد ، وانتشار الظلمات على وجه الأرض ثم تدحرج الحجر إلى باب القبر . إن المرء يفكر فيه دائماً كما لو كان عريساً بين رفاقه ، وهو فى الواقع ما وصف به نفسه ، أو راعياً يضرب فى بطن الوادى مع أغنامه ، بحثاً عن مرج أخضر أو مجرى من الماء البارد ، أو مغنياً يحاول بموسيقاه أن يقيم جدران مدينة الله ، أو محباً ضاق العالم كله عن أن يتسع لحبه . أما عن معجزاته فهى تبدو لى رائعة بقدر ما تبدو الروعة فى مجيء الربيع ، وهى بالمثل طبيعية تماماً . انى لا أرى صعوبة ما فى الاعتقاد بأن شخصيته كانت ساحرة لدرجة أن مجرد وجوده كان كافياً لإدخال الاطمئنان إلى النفوس المعذبة . وليس لدى شك فى أن أولئك الذين كانوا يلمسون يده أو ثوبه كانوا ينسون ما كانوا فيه من ألم ؛ أو انه بينما كان يمشى فى طريق الحياة العام استطاع أن يجعل من لم يروا شيئاً من أسرارها يرون هذه الأسرار فى وضوح ، كما استطاع أن يجعل غيرهم ممن أصابهم الصمم فلم يسمعوا غير صوت السرور

يسمعون صوت الحب لأول مرة ، ويجدونه لا يختلف عن « موسيقى قصبة أبوللو »[١٢٠] ؛ أو ان مجرد اقترابه كان يجعل الانفعالات الشريرة تتلاشى ، كما كان يجعل أولئك الذين كانت حياتهم بعقمها فى التخيل مجرد حالة من الموت يهبون حالما دعاهم ، كما لو كانوا يخرجون من الأجداث ؛ أو إنه ، بما كان يلقيه من تعاليم على جانب التل ، جعل الجموع التى كانت تلتف حوله تنسى الجوع والعطش وتسقط من حسابها كل اهتمام بما فى هذا العالم ، أو إنه حينما مضى يتحدث إلى أصدقائه ، إذ يجلس بينهم إلى طعام ، جعل الطعام الخشن يبدو شهيا ، وجعل الماء يكتسب مذاق الجيد من النبيذ ، وجعل البيت كله يمتلىء بعبير من العطر الجميل .

يقول « رينان Renan » فى كتابه « حياة عيسى » — ذلك « الإنجيل الخامس » الجميل ، كما يستطيع المرء أن يدعوه ، فى متابعة لنهج القديس توما — يقول فى بعض المواضع إن أعظم إنجازات المسيح أنه جعل نفسه يكتسب من الحب بعد مماته قدر ما اكتسبه فى حياته[١٢١] . وهذا حق . فإذا كان مكانه بين الشعراء فيجب أن يكون قائد المحبين جميعاً . فقد رأى أن الحب كان ذلك السر الذى فقد فى العالم فمضى يبحث عنه جميع العقلاء . ورأى أن الانسان يستطيع بالحب وحده أن يقترب إما من قلب مجذوم أو من قدمى الله .

وفضلا عن ذلك فإن المسيح كان بلاشك أعظم الفرديين . فالاتضاع ، وهو لا يختلف عن القبول الفنى لكل التجارب ، مجرد حالة من الكشف . لقد كانت روح الانسان هى الشىء الذى بحث عنه دائماً . وقد سماها « مملكة الله » ، ووجدها فى كل مكان . وكان يقارنها بالأشياء الصغيرة ، فقد قارنها بالبذرة الدقيقة ، وبالقبضة من الخميرة ،

كما قارنها باللؤلؤة . وذلك لأن الانسان لا يستطيع أن يدرك روحه إلا إذا استبعد جميع الاحساسات الغريبة والثقافة المكتسبة والممتلكات الخارجية ، طيبة كانت أو رديئة .

لقد تحملت كل شيء فى قليل من عناد الارادة وكثير من تمرد الطبيعة ، حتى لم يعد هناك شيء ترك لى فى العالم غير « سيريل » . فقد فقدت اسمى ، ومركزى ، وسعادتى ، وحريتى ، وثروتى ؛ وأصبحت سجيناً معدما ، ثم بقى لى شيء جميل واحد . وهو ابنى الأكبر . ولكنه أخذ منى فجأة بواسطة القانون ، فكان فى ذلك ضربة مذهلة أفقدتنى المقدرة على التصرف . فلم يسعنى إلا أن أركع وأحنى رأسى ثم أقول فى بكاء : « إن جسد الطفل كجسد الرب . وها أنذا لم أعد جديراً بهذا ولا ذاك ! » فى تلك اللحظة شعرت بأنى نجوت. فقد رأيت أن الشيء الوحيد لخلاصى أن أقبل كل شيء . ولا شك أنك ستدهش إذا علمت أنى بدأت أشعر بسعادة كبيرة منذ ذلك الوقت .

انها بالطبع كانت روحى فى أقصى درجات جوهرها ، تلك التى وصلت إليها . لقد كنت عدواً لها من طرق عديدة ولكننى وجدتها فى انتظارى كصديق . عندما يعامل المرء الروح فإنها تجعل منه مخلوقا فى بساطة الطفل. وهذا ما نصح به المسيح . من المحزن ألا يكون هناك إلا القليل ممن استطاعوا قط أن « يملكوا أرواحهم » قبل أن يموتوا[١٢٢] ! يقول « إمرسن » ، « ليس هناك ما هو أندر فى الانسان من فعل جاء من ذاته هو »[١٢٣] . وهذا صحيح تماما . فأكثر الناس آخرون بالنسبة إلى أنفسهم . فأفكارهم من آراء غيرهم ، وحياتهم محاكاة ، وعواطفهم اقتباسات . وإنما كان المسيح لا أعظم الفرديين وحسب بل أول فردى فى التاريخ . لقد حاول الناس أن يصوروه

إنسانياً من الدرجة العادية : واحداً على غرار أولئك الانسانيين المريعين من أصحاب القرن التاسع عشر . ثم حاولوا أن يضعوه في صفوف الخيرين ممن يفتقرون إلى العلم والشعور. غير أنه في الواقع لم يكن هذا ولا ذاك. فقد كان بالطبع يشعر بالشفقة على الفقراء ومن أطبقت عليهم السجون ، كما كان يشعر بها على التعساء والمتواضعين . ولـكنه كان يشعر بهـا بصورة أشد على الأغنياء والمترفين ... كان يشعر بها على أولئك الذين يضحون بحريتهم ليصيروا عبيداً للأشياء ... أولئك الذين يرتدون الملابس الناعمة ويعيشون في القصور . فقد رأى أن في الغنى والسرور من المـآسى ما هو أعظم في الواقع مما في الفقر والحزن . وفيما يتعلق بالايثار لم يكن هناك من علم أكثر منه بأن مصيرنا يتحدد لا بالإرادة بل بالحرفة ؛ فليس من الممكن أن تجنى الأعناب من الأشواك ، ولا أن تجمع ثمرات التين من رأس قنفذ .

لم تـكن عقيدته أن يعيش المرء للآخرين ، كفرد محدد من الوعى الذاتى. فهذا لم يكن أساس عقيدته . وحينما قال : « اغتفر لأعدائك » لم يكن ناظراً إلى صالح العدو بقدر ما كان ناظراً إلى صالح المتسامح . وإنما قال ذلك لأن الحب أجمل كثيراً من البغض . وحينما قال للشاب الذى أحبه حال أن وقعت عينه عليه : « بع كل ما ملـكت وأعط ثمنه للفقراء » كان يفـكر لا في حالة الفقراء بل في روح ذلك الشاب .. تلك الروح الجميلة التى كان يشوهها الغنى . لقد كان في نظرته إلى الحياة مع الفنان الذى يعلم أن هناك قانوناً للـكمال الذاتى يفرض في توكيد على الشاعر أن يغـنّى ، وعلى المثـّال أن يعالج البرونز ، وعلى المصور أن يجعل من العالم مرآة لانعـكاس حالاته ، كما يفرض على الحشائش البرية أن تزهر في الربيع ، وعلى حبات القمح أن تتحول إلى لونها الذهبى

وقت الحصاد ، وعلى القمر أن يتحول فى دورته المفروضة من ترس إلى منجل ومن منجل إلى ترس .

ولكن ، مع أن المسيح لم يقل الناس « عيشوا للآخرين » إلا أنه أشار إلى أنه لا يوجد بتاتاً فرق بين معيشة المرء نفسه ومعيشة الآخرين ، وبهذه الوسيلة أعطى كل واحد شخصية متسمة كشخصية مارد . ومنذ مجيئه أصبح تاريخ كل فرد قائم بذاته تاريخاً للعالم كله ، أو أصبح فى الإمكان جعله كذلك . ولقد عظمت الثقافة فى شخصية الانسان بالطبع كما جعل الفن كلاً منا ذا طاقات عقلية متعددة . فأصبح أصحاب المزاج الفنى يذهبون إلى المنفى مع دانتى ليروا كيف يكون مُرًّا خبز الآخرين ، وكيف تكون منحدرة مراقيهم[١٢٤] . ومضوا يختطفون للحظات مافى معانى « جوته » من صفاء وهدوء ، ثم يدركون إلى حد كبير لم هتف « بودلير Baudelaire » بالله قائلا :

يا إلهى ! امنحنى من القوة والشجاعة .
ما يكفى للتأمل فى جسدى وفى قلبى بغير اشمئزاز[١٢٥] .

ومن قصائد « شكسبير » مضوا يستخلصون سر حبه ، ويجعلونه لأنفسهم ، وهو أمر ربما كان ضاراً بهم . ثم باتوا ينظرون بأعين جديدة إلى الحياة الحديثة ؛ فقد سمعوا واحدة من تسابيح « شوبان Chopin » ، أو عالجوا بعض الأشياء الأغريقية ، أو قرأوا قصة عاطفية لرجل مات على حب إمرأة ماتت هى كذلك ، كانت تتميز بشعر كخيوط رقيقة من الذهب وفم كحبات دقيقة من الرمان . غير أن العطف فى المزاج الفنى يكون بالضرورة مع الشيء الذى وجد طريقاً إلى التعبير .

فني الـكلمات أو الألوان ، وفي الموسيقى أو الرخام ، ومن خلف الأقنعة المنقوشة لبعض تمثيليات « أسخيلوس » ، ومن خلال القصبات المخرومة الموصولة لبعض رعاة سيشلي ، من هذا كله يجب أن يُـكتشف الانسان وتُـدرك رسالته .

وبالنسبة إلى الفنان فإن التعبير هو الحالة الوحيدة التي يستطيع فيها أن يتصور الحياة كلية . فهو يرى أن ما هو صامت ميت . غير أن الأمر لم يكن كذلك مع المسيح . ففي مخيلة بلغ من سمتها وعجبها أنها كادت أن تملأ النفس رعباً أخذ عالم اللاناطق بتمامه وجعل من نفسه معبراً خالداً عن آلامه . أما أولئك الذين تـكلمت عنهم ، وهم من يفقدهم الظلم القدرة على الـكلام ، ومن « لايسمع صمتهم إلا الله »(١٢٦) ، فقد اختارهم أخوة له . لقد أراد أن يجعل من نفسه بصراً للأعمى ، وسمعاً للأصم ، وصيحة تخرج من شفاه أولئك الذين قيدت ألسنتهم . ورغب في أن يكون بوقا لتلك الجموع التي لم تجد طريقاً للنطق تستطيع من خلاله أن ترسل نداءها إلى السماء . وقد جعلته طبيعته الفنية يرى أن الحزن والألم حالتان يمكن فيهما إدراك الـكائن الجميل . وشعر بأن الفـكرة لا قيمة لها حتى تتجسد وتصبح صورة ماثلة ؛ فجعل من نفسه صورة لإنسان الأحزان ، وجعل من هذه الصورة شيئاً يجتذب الفن ويسيطر عليه . وهو ما لم يستطع أي إلـه إغريقي أن يفعله .

فآلهة الإغريق ، بالرغم مما اعترى أطرافها الجميلة الرشيقة من تلوين ، لم تـكن في الحقيقة تلك التي عرفها الناس . فقد كان « أبوللو » حقاً ذا جبهة تشبه في تقوسها ذلك الهلال الذي يتراءى من الشمس فوق تل وقت الشروق ، كما كانت قدماه كجناحي الصباح ؛

غير أنه كان قاسياً مع « مارسياس Marsyas »(*) ؛ ثم أنه جعل « نيوبى Neobie » تفقد جميع أبنائها وكذلك فمات «بالاس Pallas» ، فلم يكن فى عينها اللتين تبدت فيهما قسوة الحديد ذرة من شفقة على « أرا كنى Arachne » المسكينة ! فإذا كان قد تبدى فى « هيرا Hera » شيء من النبل ، فإنه لم يزد عن عجبها وخيلائها أما كبير الآلهة نفسه فقد كان أهم ما شغله أن يستمتع ببنات البشر ! والواقع أنه لم يكن فى الميثولوجيا الإغريقية من الشخصيات الرمزية ذات الإيحاء العميق سوى اثنتين : واحدة للدين ، وهى « ديمتر Demeter » ، ولم تكن من آلهة

(*) مارسياس Marsyas شاب من « فريجى Phrigie ». وهى من بلاد أسيا الوسطى القديمة ، كان بارعا فى استعمال المزمار . وقد بارى فى ذلك « أبوللو » فحكمت الربات لأله الحب . فعلقه أبوللو إلى شجرة صنوبر وسلخه حيا .

نيوبى Neobie ابنة ناتال Natale وزوجة امفيون Amphion ملك طيبة (الاغريقية) . كان لها سبعة أولاد وسبع بنات . فأخذها العجب بهذا العدد من الذرية وسخرت من لاتون Latone التى لم يكن لها غير ولدين : أبوللو وديانا . . فلم يسع هذان إلا أن يثأرا لأمهما بقتل جميع أبناء نيوبى رميا بالسهام . وإذ صعقت الأم التعسة من هذا الأمر فقد تحولت إلى صخرة ، ثم أصبحت رمزاً لحزن الأمومة فى الأدب القديم .

أرا كنى Arachne صبية من ليديا كانت ماهرة فى فن الحياكة . فلما مزقت بالاس (وهى مينرفا فى تسمية أخرى) شيئاً من تطريزها شنقت نفسها حزنا . فحولتها إلهة الحكمة إلى عنكبوت .

هيرا Hera هى زوجة جوبيتر وآلهة الزواج .

پروزرپينا Proserpina هى ابنة جوبيتر وسيريه. وهى زوجة بلتون Pluton وملكة الجحيم .

سيميلى Semele هى أم ديونيسس ، وابنة كادموس Cadmos ملك طيبة الإغريقية . « المترجم »

الأوليب بل كانت ربة أرضية ؛ والثانية للفن ، وهى شخصية « ديونيسس Dionysus » ، وكان ابنا لامرأة من البشر اختطفها الموت لحظة ولادته .

غير أن الحياة ، من أحط طبقاتها وأكثر بيئاتها تواضعاً ، جاءت بواحد أعجب كثيراً من أم « پروزربينا Proserpina » وابن « سيميلى Semele » . فمن حانوت نجار فى قرية الناصرة خرجت شخصية تعظم إطلاقاً أى شخصية صنعتها الأساطير . فقد كانت لواحد استطاع ، وهو ما يدعو إلى العجب ، أن يكشف للعالم عما هو غامض من معنى فى النبيذ وعما فى زهور الزنبق من جمال حقيقى . وهو ما لم يستطع أن يقوم به أحد قط ، لا فى « سيثارون Cithaeron » ولا فى « إنّـا Enna »[١٢٧] .

إن أغنية أشعياء التى تقول : « إنه قد حـقـّـر ونبذ من الجميع : رجلا للأحزان وصديقا للآلام . أما نحن والحالة تلك فلا يسعنا إلا أن نخفى وجوهنا منه »[١٢٨] — هذه الأغنية بدت له كما لو كانت تعنيه هو ، وفيه قد تحققت النبوءة . يجب ألا نخشى من مثل هذه العبارة . فكل عمل فنى إنما هو تحول الفـكرة فى صورة ، وكل واحد من البشر يجب أن يكون إنجازاً لنبوءة . وذلك لأن كل إنسان يجب أن يكون تحقيقاً لمثال ، إما من عقل الله أو من عقل الانسان . وقد وجد المسيح المثال وثبّـته ، فأصبح حلم أى شاعر من أتباع « ڤرچيل » ، سواء فى أورشليم أو فى بابل ، متجسدا فى ذلك الذى كان العالم ينتظره[١٢٩] . « كان وجهه أكثر تشوها من وجه أى رجل آخر ، وكذلك كانت صورته »[١٣٠] . هذه بعض العلامات التى لاحظها أشعياء فى تمييزه للمثال الجديد . وحالمـا استطاع الفن أن يدرك ماذا عنى بذلك تفتح كالزهرة بوجود ذلك الذى وضعت فيه حقيقة الفن بصورة لم تحدث من

قبل . وإلا فهل تعنى الحقيقة فى الفن غير ما قلته ، وهو « ذلك الذى يكون فيه الخارج معبراً عن الداخل . ذلك الذى فيه تتجسد النفس وتسرى غريزة الجسد فى الروح ... ذلك الذى فيه تـكشف الصورة عن ذاتها ؟ »(١٣١) .

والواقع انى أرى أن من بين ما حدث فى التاريخ ممـا يستوجب الأسف العظيم أن النهضة الذاتية للمسيح ، وهى التى أخرجت لنا كاتدرائية « شارتر Chartres » ، وما شاع فى عصر « أرثر Arthur » من أساطير ، وحياة القديس «فرانسيس الأسيسى» وفن «جوتو Giotto» وملهاة دانتى المقدسة — هذه النهضة لم يسمح لها بأن تتقدم على خطوطها الأصلية ، بل أوقفت وأفسدت بتدخل النهضة الـكلاسيكية الـكئيبة ، وما جاءتنا به من أعمال « بترارك Petrarch » و « فرسكو »* رافائيل وفن « باللادينو Palladino » المعمارى ، والمأساة الفرنسية الرسمية ، وكتدرائية القديس بولس ، وشعر « پوپ Pope » ، وبكل شىء صنع من الخارج ، ووضع على قواعد جامدة ، ولم ينبع من الداخل بواسطة روح قامت بتشكيله . ولـكن حيثما كانت هناك حركة رومانتيكية فى الفن كان المسيح هناك ، بكيفية ما وبشكل ما ، أو كانت هناك روحه فهو فى « رميو وچولييت » ، وهو فى « قصة شتاء » ، وهو فى شعر « بروفنسال Provençal » ؛ وهو فى « الملاح القديم » ؛ وهو فى قصيدة الإحسان لـ « شترتون Chatterton » .

اننا فى الحقيقة ندين له بأكبر قدر من مختلف الأشياء والناس . فـ « البؤساء » لـ « هوجو » و « زهور الشر » لـ « بودلير » . ونغم

(*) الـ « فرسكو Fresco هو التصوير على الحائط . « المترجم »

الشفقة فى القصص الروسى ، والزجاج الملون ، والطنافس الملونة كذلك ، والأعمال الأربعمائة لـ « بيرن — جونز » و « موريس » و « فرلين » وقصائد فرلين — كل هذا يعود الفضل فيه إليه بدرجة لا تقل عما يعود إليه فى شوامخ «چوتو» و« لانسلو Lancelot » و«جنيڤر Guinevere و « تانهويزر Tannhauser » والرخام الرومانتيكى الداكن لـ «ميكائيل أنجلو Michael Angelo » والفن المعمارى المدبب ، ثم حُب الأطفال والزهور . وهذان لم يكن لهما فى الفن الكلاسيكى فى الواقع إلا مكاناً صغيراً لم يكد يتسع لنموها ولعبهما . ولكنهما لم يكفا عن الظهور منذ القرن الثانى عشر حتى اليوم . وقد ظهرا فى الفن بأساليب متباينة وفى أوقات مختلفة فقد جاءا فى نوبات وباصرار ، كما هى طبيعة الأطفال والزهور . فالربيع يبدو دائماً للمرء كما لو كانت الزهور قد اختفت ثم ظهرت فى الشمس لمجرد أنها كانت تخشى أن يصيب الملل الكبار فيكفوا عن البحث عنها . وحياة الطفل لا تزيد عن يوم من أبريل يسقط فيه المطر كما تشرق الشمس من أجل النرجس .

ثم إن خصيصة التخيل فى طبيعة المسيح هو نفسه هى التى جعلته هكذا مركزا لخفقان الرومانسية . حقاً إن آخرين قد استطاعوا أن يخلقوا بمخيلتهم شخصيات غريبة فى التمثيلية الشعرية وفى القصيدة ؛ غير أن عيسى الناصرى استطاع هو نفسه أن يخلق من مخيلته صورة تامة لنفسه . فصيحة أشعياء قبيل مجيئه لم تكن فى الواقع إلا كتغريدة عندليب وقت ظهور القمر ، لا أكثر وربما لا أقل . لقد كان انكاراً كما كان توكيداً للنبوءة ؛ إذ ما من شىء حققه مما كان متوقعاً إلا وكان بجانبه شىء آخر قام بتحطيمه . يقول « باكون » : فى كل شىء من الجمال يوجد « بعض الغرابة فى التناسب »[١٣٢] . ويقول المسيح عن

أولئك الذين ولدوا من الروح ... أولئك الذين يصح القول بأنهم مثله، هم القوى المحركة — يقول إن هؤلاء مثل الريح التى « تهب حيث تميل ولا يدرى أحد من أين تأتى ولا أين تذهب »[١٣٣] . وهذ هو السبب فى أنه كان ساحراً للفنانين . فقد اجتمعت فيه كل عناصر الألوان : الغموض ، والغرابة ، والعطف ، والإيحاء ، والنشوة ، والحب . وهو بطبيعته يرجع إلى المزاج الإعجازى ، ويستطيع أن يخلق تلك الحالة التى بها وحدها يمكن أن يُفهم .

وإنه يسرنى أن أذكر أنه إذا كان المسيح « ذا مخيلة مُحكمة تماماً »[١٣٤] فإن هذا العالم من نفس العنصر . لقد قلت فى « دوريان جراى »[١٣٥] إن خطايا العالم الكبيرة تتخذ محلها فى المخ . وأقول إن كل شىء يتخذ مكانه فى هذا المخ . إننا نعلم الآن أننا لا نرى بالعين ولا نسمع بالأذن ؛ فما كانت هذه الأعضاء إلا مجرد مجارى لتوصيل الانطباعات الحسية ، صحيحة كانت أو غير صحيحة . ففى المخ يكون الخشخاش أحمر ، وفيه تكون التفاحة ذات عبير ، وفيه تغنى القنبرة .

لقد عكفت أخيراً على دراسة القصائد النثرية الأربع عن المسيح فى شىء من النشاط. وحينما حل عيد الميلاد كنت دبرت الأمر لكى أحصل على نسخة باليونانية من الكتاب المقدس وفى كل صباح ، بعد أن أقوم بتنظيف زنزانتى وتلميع آنيتى الصفيح ، أقرأ قليلا من الأناجيل ، اثنى عشر سفرا أو نحوها ، أعمد إلى قراءتها من أى مكان وكيفما اتفق . إن هذا طريق سار لافتتاح اليوم. أما بالنسبة إليك، فى حياتك الهائجة التى لا تخضع لنظام ، فإنه يكون شيئاً عظيما إذا استطعت أن تفعله ؛ فهو لن يقف بك عند نهاية من الأمور الحسنة . ثم إن اليونانية فى منتهى البساطة. إن التكرار المملول الذى لا يقف عند حد ، والذى يحدث فى وقته وفى غير وقته ، قد أتلف ما فى الأناجيل من براءة ونضارة ، وجعلنا لا نشعر

بما فيها من سحر رومانتيكي بسيط . اننا نسمعه غالباً أكثر مما يجب ، ونرى أنه أسوأ مما ينبغي . ثم إن كل تكرار يتعارض مع ما يتصل بالروح . أما عندما يرجع المرء إلى اللغة اليونانية فإنه يشعر كأنما هو يسير في حديقة من الزنبق خارج بيت ضيق مظلم .

وبالنسبة إلى ، فإن سروري يتضاعف لاعتقادى أن من المحتمل جداً اننا نقرأ الكلمات الحقيقية التي استعملها المسيح . لقد كان هناك فكرة دائماً بأن المسيح كان يتكلم الآرامية . حتى « رينان » نفسه كان يعتقد ذلك . غير أننا نعلم الآن أن الفلاحين من قرية الجليل كانوا يتكلمون لغتين كما هو حال الفلاحين الإيرلنديين في أيامنا . وكانت الإغريقية لغة التخاطب العامة ، لا في فلسطين وحدها بل في العالم الشرقي كله . إنني لا أحب أبداً مثل هذه الفكرة ، وهي اننا لم نعلم من كلمات المسيح إلا ما جاءنا عن طريق ترجمة عن ترجمة . بل على العكس يسرني أن أعتقد بمقدار ما يعني الأمر أحاديثه ، أن « خارميدس Charmides »(136) ربما كان قد أصغى إليه ، وأن سقراط كان يباحثه ، وأن أفلاطون قد فهمه ، وأنه حقيقة قد قال : « أنا الراعي الصالح(*) »(137) ، وأنه حينما نظر إلى زهور الزنبق في الحقل فرأى أنها لا تكدح ولا تدور عبر عن ذلك بقوله : « انظروا إلى الزنبق في الحقل كيف ينمو بغير أن يكدح وبغير أن يدور ! »(138) ، وان كلمته الأخيرة حينما صاح قائلا : « إن

(*) خارميدس Charmides هو إحدى الشخصيات التي جاءت في « محاورات أفلاطون »

(*) وردت هذه الجملة باليونانية ، كما جاء غيرها في هذا الموضع . ارجع إلى التعليقات . « المترجم »

حياتى قد تمت ... إنها وصلت إلى إنجازها ... أنها قد «تمت» كانت بالضبط كما يقص علينا القديس يوحنا : « لقد انتهى الأمر(*) »(١٣٩) ، ولم يعد هناك شيء آخر .

وبينما أرى فى قراءتى للأناجيل، وعلى الأخص إنجيل القديس يوحنا أو أى سفر قديم حمل إسمه ورداءه — بينما أرى هذا التوكيد المستمر المخيلة كأساس للحياة من جميع نواحيها الروحية والمادية ، أرى أيضاً أنها ، بالنسبة إلى المسيح ، كانت صورة من الحب ، كما أرى أن الحب بالنسبة إليه كان سيدا بكل ما فى الكلمة من معنى .

قبل نحو ستة أسابيع رخص لى الطبيب بأن أتناول من الخبز الأبيض بدلا من الخبز الأسود الخشن المعروض فى طعام السجن بصورة عامة . فكان فى هذا لذة عظيمة . وقد يدهشك أن يكون الخبز الجاف لذة لأى إنسان . فأؤكد لك أنه كذلك بالنسبة إلى . فقد كنت بعد كل وجبة أعنى بالتهام ما ترك منه على طبق الصفيح من فتات أو ماتساقط على المنشفة الخشنة التى تغطى المائدة . وكنت أفعل ذلك لا بدافع من الجوع ، فأنا الآن أحصل على قدر كاف من الطعام ، بل لمجرد المحافظة على الشيء الذى أعطيته كاملا . هكذا يجب أن ينظر إلى الحب .

إن المسيح ، ككل الشخصيات الساحرة ، قد أوتى المقدرة لا ليقول هو نفسه أشياء جميلة وحسب بل ليجعل الآخرين يقولون له مثل هذه الأشياء الجميلة . وإنى أحب القصة التى يخبرنا بها القديس مرقص عن المرأة الإغريقية التى حينما قال لهـــا المسيح — وكان الأمر اختباراً لإيمانها — انه لا يستطيع أن يعطيها من خبز بنى اسرائيل ردت عليه

(*) هذه العبارة وما قبلها وردت باليونانية . وهى مقتبسة من الكتاب المقدس . ارجع إلى التعليقات فى آخر الكتاب . « المترجم »

بقولها إن الكلاب الصغيرة القابعة تحت المائدة تأكل من الفتات الذى يتساقط من الأطفال[140] . أكثر الناس يعيشون للحب والإعجاب . وإنما الصحيح أن نعيش بالحب والإعجاب[141]. إذا أظهر لنا أى حب يجب أن ندرك أننا لسنا جديرين به . ليس هناك من هو جدير بالحب . أما الحقيقة القائلة بأن الله يحب الانسان فإنها تدل على أنه، فى النظام القدسى للأشياء المثالية ، كتب أن يمنح الحب الخالد لمن لا يستحقه فى خلود . فإذا بدت هذه العبارة أشد مرارة مما تحتمل فدعنى أقول أن كل واحد مستحق للحب إلا ذلك الذى يعتقد أنه يستحقه . إن الحب ضرب من التقديس، فيجب أن يتلقاه المرء راكعاً ، وأن يتلقاه بينما تعمر قلبه هذه الكلمات وتضطرب بها شفتاه : « ياإلهى ! لست مستحقاً » . أود لك أن تفكر أحياناً فى ذلك . فأنت فى أشد حاجة إلى مثل هذا التفكير .

إذا قدر لى أن أكتب ثانية قط ، أعنى فى مجال الأعمال الفنية ، فهناك بالضبط موضوعان أرغب فى التعبير عن نفسى من خلالهما . الأول هو : « المسيح كرائد الحركة الرومانتيكية فى الحياة » ، والثانى هو : « الحياة الفنية من وجهة نظر علاقتها بالسلوك » . والأول ساحر للغاية بطبيعة الحال : وذلك لأننى أرى فى المسيح لا عناصر المثال الرومانتيكى العظيم وحسب بل جميع المصادفات، وحق التصميمات، المزاج الرومانتيكى. لقد كان أول من قال للناس إن حياتهم يجب ألا تختلف عن حياة الزهور . لقد ثبت العبارة ؛ فقد أخذ الأطفال على أنهم المثال الذى يجب أن تكون عليه حياة الناس ، ورفعهم كأمثلة لمن هم أكبر منهم . وهو ما فكرت أنا نفسى دائماً فى أن يكون الاستعمال الغالب للأطفال ، إذا كان الشىء الكامل يحتمل استعمالا . إن « دانق » يصف خروج روح الانسان من يد الله فيقول إنها تخرج « وهى تبكى وتضحك كما

يفعل الطفل الصغير »[١٤٢] ؛ وكذلك رأى المسيح أن روح الانسان يجب أن تكون . لقد شعر بأن الحياة متغيرة ، سائلة ، ناشطة ؛ وأنه إذا سمح لها بأن تتجمد فى أى شكل فإن معنى هذا هو الموت . لقد قال ان الناس يجب ألا يكونوا جادين أكثر مما ينبغى فى سعيهم إلى الفوائد المادية والأهداف العامة ؛ وإنه إذا استطاع الانسان أن يكون غير عملى فإن هذا شىء عظيم . وهو يرى أن الانسان يجب ألا يقلق باله كثيراً حول شئون الحياة . « إن الطيور لا تفعل ذلك ، فلم يفعله الانسان ؟ » وهو يبدو ساحراً إذ يقول : « لا تفكر فى الغد ! أو ليست الروح أعظم من القوت ؟ أوَ ليس الجسد أعظم من الثوب ؟ »[١٤٣] . ربما نطق مفكر إغريقى بالجملة الأخيرة ؛ فهى مفعمة بالشعور الاغريقى. غير أن المسيح وحده هو الذى استطاع أن يقول الجملتين معا ، وبذلك أجمل لنا الحياة بصورة تامة .

إن الناحية الأخلاقية فيه هى الوجدانية ، وهو بالضبط ما يجب أن تكون عليه الناحية الأخلاقية . فإذا كان الشىء الوحيد الذى قاله قط هو « إن خطاياها قد اغتفرت لها لأنها أحبت كثيراً » فإن هذه الجملة تستحق أن يموت المرء فى سبيل التصريح بها. أما عدالته فإنها شاعرية ؛ تماماً كما يجب للعدالة أن تكون . إن السائل يذهب إلى النعيم لأنه لم يكن سعيداً . لا أستطيع أن أتصور سبباً أقوى لإرساله إلى النعيم . أن الذين يعملون فى مزرعة لمدة ساعة فى برد الليل يلقون نفس الجزاء الذى يلقاه غيرهم ممن يعملون هناك طوال اليوم فى دفء الشمس . ولم لا يحصلون على نفس الجزاء ؟ لم يكن هناك من يستحق أى جزاء . أو ربما كانوا نوعا آخر من البشر. لم يكن لدى المسيح صبر على النظم الآلية الميتة الجامدة التى تتحكم فى حياة الناس كما لو كانوا أشياءً ، وتتحكم فى

حياة كل واحد بالمثل ، أو كل شيء لذلك الغرض ، كما لو كان شيئاً آخر فى العالم . لم يكن هناك قوانين بالنسبة إليه ، بل كان هناك استثناءات فقط .

وذلك الذى هو بمثابة الأساس الحقيق بالنسبة إلى الفن الرومانتيكى كان بالنسبة إليه القاعدة الصالحة للحياة العملية . فعندما جاءوا إليه بواحدة أخذت من صميم « الخطيئة » وأطلعوه على حكم القانون فيها مكتوباً ، ثم سألوه ما يراه هو فى هذا الأمر ، مضى يخط بأصبعه على الأرض كما لو كان لا يحس وجودهم . فإذا ما مضوا يلحون عليه مرة بعد أخرى رفع رأسه ثم قال لهم : « دعوا ذلك الذى لم يخطىء منكم قط يكون أول من يقذفها بحجر ! » لقـد استحق العيشُ الاهتمامَ إذ قيل ذلك .

لقد أحب الجهلاء ، كما فعل جميع أصحاب الطبائع الشعرية . فقد علم أن نفس الجاهل مفتوحة دائماً لقبول فـكرة عظيمة. غير أنه لم يستطع أن يحتمل غباوة الأغبياء ، خصوصاً أولئك الذين جعل التعليم منهم أغبياء .. أناساً امتلأت عقولهم بأفـكار لا يفقهون منها شيئاً ... نوعاً جديداً بصورة خاصة ، ونوعاً أجمل المسيح حقيقته حينما وصفه بأنه أوتى مفتاح العلم فلم يستطع أن يستعمله ولم يترك غيره يفعل، مع إن ذلك ربما أدى إلى فتح باب مملـكة الله ! لقد كانت حربه الـكبرى ضد المـاديين(*) . وتلك كانت الحرب التى وجب على كل وليد من النور

(*) الـكلمة هنا ترجمة لـكلمة Philistine التى استعملها وايلد أكثر من مرة بالمعنى الذى اتخذ لها اصطلاحا فى اللغات الأوروبية ، وهو ما يدل على الطبيعة التى لا تهتم إلا بالماديات . أما أصل الـكلمة فيرجع إلى قوم من قدامى آسيا هم الفلسطينيون، الذين ربما كانوا متجانسين مع طوائف الـ« بيلاسج Pélasges » =

أن يشنها . لقد كانت المادية هي النغمة السائدة في عصره وبيئته . ففي جموده الثقيل عن الوصول إلى الآراء ، وفي اعتباره المظلم، وفي استقامته المملة ، وفي عبادته للنجاح السوقي ، وفي انشغاله الكلي بالجانب المادي من الحياة بصورة بالغة الخشونة ، وفي تقديره المضحك لنفسه ولأهميته ، كان يهودي أورشليم في عصر المسيح صورة مقابلة للبريطاني المادي في هذا العصر. لقد سخر المسيح من « القبور المبيضة » التي كانت تتخذ من باب التمييز والاكبار ، وثبتت هذه العبارة إلى الأبد . وقد عالج النجاح الدنيوي كشيء يجب أن يحتقر بصورة تامة ، إذ لم ير فيه شيئاً بتاتاً ؛ ونظر إلى الثروة على أنها من عوامل تعويق الانسان ؛ ولم يكن يسمح بالحياة وقد ضحى بها في سبيل نظام من الأفكار أو منهج من القيم الأخلاقية ؛ وأشار إلى أن الشكليات والاحتفالات إنما وجدت للانسان ولم يوجد لها الانسان . وأخذ « السبتية »(*) على أنها شيء لا قيمة له ؛ وأبدى احتقاراً شديداً حينما تعرّض لما كان متبعاً من طرق باردة في إظهار محبة البشر ومفاخرة ممجة في تقديم الاحسان علانية ،

= وكانوا قوماً من البدائيين شغلوا أراضي اليونان في عصور ما قبل التاريخ . أما الفلسطينيون فقد انحدروا من كريت نحو الشرق . وبعد أن أخضعوا على يد رمسيس الثالث استقروا في المنطقة ما بين سوريا والبحر المتوسط ويافا . وكانت مدنهم الرئيسية : غزة ، وعسقلون ، وأشدود ، وعكرون ، وجاد. وقد استطاعوا أن يتعسفوا باسرائيل غير أنهم اضطروا بدورهم إلى الخضوع لليهود . وبعد أن تم قهرهم على يد شاؤول وداود دخلوا في خصومات مع الأشوريين، وعلى الأخص مع ملكهم « سرجون Sargon » . ومنذ منتصف القرن السابع أخذوا يخرجون من التاريخ .
« المترجم »

(*) السبتية هي مذهب اليهود في تخصيص اليوم السابع من الأسبوع ، وهو يوم السبت ، للعبادة بصورة بالغة التشديد . « المترجم »

كما احتقر الشكليات المملة ، وكانت من أهم الأشياء فى تفكير الطبقة الوسطى . اننا ننظر الآن إلى ما يسمى بالاستقامة (Orthodoxy) على أنها مجرد اذعان بسهولة فى غباوة . غير أنها لم تكن كذلك فى نظر معاصرى المسيح ، بل كانت فى أيديهم وسيلة من الاستبداد الفظيع المشل لكل حركة . وقد اكتسحها المسيح من الطريق ، فقد أظهر أن الروح وحدها هى التى تركزت فيها الأهمية . وكان يشعر بسرور عظيم حينما مضى يبين لهم أنهم وإن كانوا يقرأون القانون ويطلعون على ما يأتى به الأنبياء إلا أنهم فى الواقع لم يكن لديهم أقل فكرة عما عناه هذا أو ذاك . وفى معارضة لتجزئتهم اليوم بمنتهى الدقة على البرنامج المحدد من الواجبات الموضوعة ، كما لو كانوا يجزئون عقاراً فى وصفة طبية ، مضى يعظ بالأهمية البالغة لجعل العيش يمضى للحظته بصورة تامة .

أما أولئك الذين أنجاهم من خطاياهم فقد نجوا ببساطة من أجل لحظات جميلة من حياتهم . فمريم المجدلية حينما تراه تفزع إلى تحطيم الأصيص المرمرى الثمين ، وقد أهداه إليها واحد من عشاقها السبعة ، ثم تعمد إلى صب العطر الشذى على قدميه المتعبتين المعفرتين بالتراب . من أجل تلك اللحظة قدر لها أن تعيش إلى الأبد مع « روث » و « بياتريس » بين خمائل الورود الناصعة البياض فى الفردوس(١٤٤) . كل ما يقوله لنا المسيح فى أسلوب من التحذير الهين هو أنه يجب علينا أن نجعل كل لحظة من حياتنا جميلة ، لتكون الروح دائماً على استعداد لمجيء العريس ... دائماً فى انتظار صوت المحب أما المادية فهى بالتعبير البسيط ذلك الجانب من طبيعة الانسان الذى لم تمسه المخيلة . فهو يرى أن جميع المؤثرات الجميلة فى الحياة حالات من النور . وأن المخيلة نفسها هى نور العالم . فقد صنع العالم بواسطتها ، ومع ذلك فإنه لايفهمها ! ذلك

لأن المخيلة ببساطة هى كشف من الحب . وأن الحب ، وما له من طاقة ، هو الذى يميز إنساناً من آخر .

غير أنه لم يكن فى حالة من الرومانتيكية القوية فى أصدق معانيها كما كان حينما مضى يعالج موضوع الخاطىء . فقد أحب العالمُ القديسَ دائماً لكونه أقرب دنو ممكن من كمال الله . أما المسيح فبفعل بعض الغرائز القدسية فيه ، كما يبدو ، أحب الخاطىء دائماً لكونه أقرب دنو ممكن من كمال الانسان . لم تكن رغبته الأولى فى إصلاح البشر أشد مما كانت فى التخفيف من آلامهم . لم يكن هدفه أن يحول لص يثير الاهتمام إلى تقى يسبب الإملال ، ولا شك فى أنه لم يكن يفكر إلا قليلا فى المنشآت الخيرية ، كجمعية مساعدة المساجين أو غيرها من الحركات الحديثة . ولم تكن هداية واحد من الخارين إلى آخر من الفريسيين(*) عملا عظيماً فى نظره بأى حال. غير أنه ، فى أسلوب لا يزال العالم عاجزاً عن إدراكه، كان يعتبر الخطيئة كالألم ، شيئاً جميلا ، بل شيئاً مقدساً ، كحالات من الكمال . ومثل هذه الفكرة قد تبدو جد خطيرة . وهى فعلا كذلك. فجميع الآراء العظيمة خطيرة وهو ماسلمت به عقيدة المسيح بغير شك. أما أن تكون هذه العقيدة صحيحة فهذا مالا يخامرنى فيه شك .

بالطبع يجب على الخاطىء أن يندم . ولكن لماذا ؟ لأنه ، ببساطة لن يكون قادراً فى غير هذه الحالة على تمييز ما فعل ؛ فلحظة الندم هى لحظة التثبيت أكثر من ذلك ، الوسيلة التى بها يستطيع المرء أن يغير ماضيه . لقد اعتقد مفكرو اليونان أن ذلك من المستحيلات . فقد كانوا يقولون غالباً فى أمثالهم السائرة انه « حتى الآلهة لا تستطيع أن تغير

(*) الفريسون هم كتبة اليهود وأحبارهم فى ذلك العهد . « المترجم »

الـاضى »[١٤٥] . أما المسيح فقد رأى أن أبعد المخطئين انحرافاً يستطيع أن يفعل ذلك . بل إن هذا هو الشىء الذى يستطيع فعله . ولو كان سئل لـكان أجاب ، بكل تأكيد ، بأنه فى اللحظة التى يركع فيها الفتى المسرف ويبكى على ما أضاعه من حيويته مع بنات الهوى ، وقد كان فى ذلك كمن يطعم جياعا بالحسك ، يجعل من ذلك الماضى مصادفات جميلة ومقدسة فى حياته . إن من الصعب على أكثر الناس أن يدركوا هذه الفكرة . فأستطيع أن أقول إن المرء ، لـكى يدركها ، يجب أن يذهب إلى السجن . فإذا كان الأمر كذلك فربما كان ثمة فائدة فى الذهاب إلى السجن .

هناك شىء فريد فى نوعه حول المسيح . فـكما أن هناك ، بطبيعة الحال ، فجر كاذب قبل الفجر ، وكما أنه يحدث فى بعض أيام الشتاء أن تسطع أضواء الشمس فجأة فتخدع الزعفران العاقل وتحمله على أن يبذّر فى ذهبه قبل الأوان ، وتجعل الغبى من الطيور يصيح بأنثاه ليبنيا عشهما فوق الأغصان العارية ، كذلك كان هناك مسيحيون قبل المسيح وهو شىء يجب أن نشكر الله عليه . أما الشىء الذى لا يسعنا إلا أن نعتبره من سوء الحظ فهو أنه لم يكن هناك واحد منذ ذلك الحين . كلا ، بل إننى أستطيع أن أجد واحداً ، وهو القديس « فرانسيس الأسيسى »(*) . فقد أعطاه الله فى مولده روح الشاعر واتخذ هو فى عنفوان شبابه من الفقر عروساً فى صورة من الزواج الصوفى . وهكذا بنفس شاعر وجسد شحاذ لم يجد صعوبة فى طريق الـكمال . لقد فهم

(*) القديس فرانسيس الأسيسى هو مؤسس مذهب الرهبنة الفرنسسكانى . ولد فى « أسيسى Assise » بمقاطعة « امبرى Ombrie » بإيطاليا ، وعاش من عام ١١٨٢ إلى ١٢٢٦ « المترجم »

المسيح فاستطاع أن يكون على غراره . ولسنا فى حاجة هنا إلى « كتاب المطابقة Libre Conformitatum »(١٤٦) لنعلم منه أن حياة القديس فرانسيس كانت محاكاة صادقة لحياة المسيح . فالكتاب الذى يحمل ذاك الإسم إذا قورن بأى قصيدة لن يختلف عنها فى شىء إذا كانت من الشعر المنثور . والحق إن هذا هو السحر حول المسيح ، إذا قيل كل شىء . فهو فيه يبدو كعمل فنى هو نفسه . وهو فى الواقع لا يعلم الناس شيئاً ، ولكن بوجود المرء فى حضرته يشعر بأنه أصبح شيئاً . وقد قدّر على كل واحد أن يكون فى حضرته . وكل إنسان سيمضى معه إلى « عماوس »(*) مرة فى حياته على الأقل .

أما الموضوع الثانى ، وهو علاقة الحياة الفنية بالسلوك ، فلا شك أنه سيدهشك أن ترانى اخترته . فالناس يشيرون إلى « سجن ريدنج » قائلين : « ها هنا قادت الحياة الفنية رجلا » . حسنا ، ربما قادت الحياة الفنية المرء إلى مواضع أسوأ . فالآليون من الناس ، أولئك الذين ينظرون إلى الحياة على أنها تأمّل ذكى يعتمد على حساب دقيق للطرق والوسائل ، هؤلاء يعلمون دائماً أين يذهبون ، ويذهبون فعلا إلى حيث يريدون . إن الواحد منهم يبدأ راغباً فى أن يكون شماساً فى كنيسة ؛ وأينما طوحت به المقادير فهو ينجح فى أن يكون شماساً فى كنيسة ، ولا شىء أكثر . فالشخص الذى يرغب فى أن يكون شيئاً ما منفصلا عن ذاته ، كأن يكون عضواً فى البرلمان ، أو بدّالا ناجحاً ، أو محامياً لامعاً ، أو قاضياً ، أو أى شىء لا يقل إملالا ، هذا الشخص ينجح بصورة لا متغيرة فى أن يكون ما أراد . وهذا هو عقابه . فأولئك الذين يريدون

(*) عماوس Emmaus هو المكان الذى ظهر فيه المسيح لتلاميذه لأول مرة بعد قيامه . وكان على مقربة من أورشليم . ويدعى « كفر يهودا » « المترجم »

قناعاً يجب أن يرتدوه . غير أن الأمر يختلف مع القوى المحركة للحياة وأولئك الذين تجسدت فيهم هذه القوى . فالأشخاص الذين انحصرت رغبتهم فى تمييز أنفسهم لايعرفون أبداً إلى أين يذهبون. إنهم لايستطيعون أن يعرفوا ذلك . فى واحد من معانى الكلمة من الضرورى ، بالطبع ، أن يعرف المرء نفسه ، كما قال وحى الاغريق(١٤٧) . غير أن هذا هو الانجاز الأول من المعرفة . أما الانجاز النهائى من الحكمة فهو أن يدرك الانسان أن نفسه لايمكن أن تدرك فالسر النهائى هوالنفس الانسانية . ولا عجب ، فعندما وضع الانسان الشمس فى كفة الميزان ، وقاس خطى القمر ، ووضع خريطة لنجوم السماوات السبع نجماً بعد آخر ، بقيت نفسه بعيدة عن هذا المنال . فمنذا الذى يستطيع أن يضع حساباً لمدار نفسه ؟ لقد خرج ابن « كيش Kish » ليبحث عن حمير أبيه وهو لايعلم أن هناك رسولا من عند الله فى انتظاره ومعه زيت التتويج وأن روحه كانت من قبل روحا للملك .

إنى أرجو أن أعيش مدة كافية ، لأستطيع إخراج عمل تجعلنى طبيعته قادراً فى نهاية أيامى على أن أقول : « بلى ، فهذا بالضبط هو المكان الذى تقود إليه الحياة الفنية » . من أكمل ما صادفته فى تجربة حياة اثنين: « ڤرلين Verlaine » والأمير« كروبوتكين Kropotkin» وكل منهما أمضى فى السجن عدداً من السنين . أما الأول فيعتبر رأس الشعراء المسيحيين بعد « دانتى » ؛ وأما الآخر فقد كان رجلا معه روح ذلك المسيح الأبيض الجميل الذى يبدو قادما من روسيا(١٤٨) . وطوال الشهور السبعة أو الثمانية الأخيرة ، بالرغم من المتاعب الكبيرة المتلاحقة التى جاءتنى من العالم الخارجى بغير انقطاع تقريباً ، وجدت نفسى فى اتصال مباشر بروح جديدة مضت تعمل فى هذا السجن من خلال الرجال

والأشياء ، فأدت إلىّ مساعدة يعجز القلم عن وصفها . فقد كنت خلال العام الأول من مدة سجنى لا أستطيع أن أفعل شيئاً إلا أن أعصر يدى فى يأس واهن وأقول : « يا لها من نهاية ! يا لها من نهاية مريعة » . أما الآن فإننى أحاول أن أقول : « يا لها من بداية ! يا لها من بداية عجيبة » . بل إننى أقول ذلك فعلا ، وأقوله فى إخلاص ، وذلك حينما لا أكون ماضياً فى تعذيب نفسى . ربما كان الأمر حقا كذلك ، بل ربما صار فعلا إلى ذلك . فإذا حدث ، فإننى سأكون مديناً بالكثير لهذه الشخصية الجديدة التى استطاعت أن تغير حياة كل إنسان فى هذا المكان(١٤٩) .

إن الأشياء فى حد ذاتها ليس لها من قيمة . بل إنها فى الواقع — ولنشكر علوم الميتافيزيقا على ما تعلمناه منها — ليس لها وجود حقيقى . فالروح وحدها هى التى لها كل الأهمية . ربما وُقّع العقاب بطريقة تجعل منه علاجا بدلا من أن تحدث جرحاً . وكذلك ربما جاء الإحسان بطريقة يتحول بها الخبز فى يد المحسن إلى حجر . فإذا كان هناك تغيير ، والتغيير هنا ليس فى القواعد ، فقد ثُبّتت بواسطة سلطة حديدية ، بل بالروح التى تجعل من تلك القوة وسيلة للتعبير عن ذاتها ـ فإنك تستطيع أن تدركه حينما أقول إنه لو حدث أن أطلق سراحى فى مايو الماضى ، كما حاولت أن يكون الأمر ، لخرجت وقد امتلأت النفس اشمئزازاً من هذا المكان وكل موظف فيه ، ممزوجا بمرارة من البغض تكفى لتسميم حياتى . لقد طالت مدة عقوبتى عاما آخر ، غير أن الإنسانية كانت دائما فى السجن معنا جميعا . وحينما أخرج سأذكر كل شىء من الشفقة العظيمة التى لقيتها هنا من كل واحد تقريبا . وفى

اليوم الذى سيطلق فيه سراحى سأوجه شكرى إلى أفراد كثيرين ، وأطلب إليهم أن يذكرونى بدورهم .

إن نظام السجن خطأ من أوله إلى آخره . وعندما أخرج سأعطى أى شىء لأستطيع تغييره . لقد صممت على القيام بهذه المحاولة . غير أنه لا يوجد شىء فى العالم ، مهما بلغ فيه الخطأ ، لا تستطيع الروح الإنسانية ، روح الحب ، روح المسيح الذى لا يوجد فى الكنائس ، إن لم تجعله فى وضعه الصحيح ، أن تجعله على الأقل مما يمكن احتماله بغير كثير مرارة من القلب .

إننى أعلم أيضا أن ما هو فى انتظارى فى الخارج سارّ جدا : من الأشياء التى يسميها القديس فرانسيس الأسيسى « أخى الريح » و « أختى الأمطار » ، وكلها محبوب ، إلى واجهات المخازن التجارية ومغارب الشمس فى المدن الكبيرة . والواقع أننى لو وضعت قائمة بكل ما لايزال فى انتظارى ما علمت أين أقف . وذلك لأن الله ، فى الحقيقة ، قد جعل هذا العالم لى بقدر ما جعله لغيرى . ربما استطعت أن أخرج من هذا المكان بشىء لم أكن حصلت عليه من قبل . ولست فى حاجة إلى إخبارك بأن الاصلاحات فى الأخلاقيات ، كما هى فى اللاهوت ، لا تعنى شيئاً فى نظرى ، وهى لا تخرج عن نهج العوام . ولكن بينما لا يزيد تدبير من يرى أن يكون رجلا أفضل عن قطعة من التصنع القائم على الجهل ، فإن الوصول إلى حالة رجل أكثر عمقا من ميزات أولئك الذين تعذبوا . وأعتقد أننى وصلت إلى ذلك . فأترك لك الحكم .

لو حدث بعد خروجى أن أقام صديق وليمة ولم يدعنى إليها ، فإننى لن أقيم وزناً لذلك ؛ إذ سأستطيع أن أكون سعيداً جداً فى وحدتى .

وإلا فمن ذا الذى لا يكون سعيداً مع الحرية ، والـكتب ، والزهور ، والقمر ؟ فضلا عن ذلك فإن الولائم لم تعـد تعنينى ؛ فقد أقمت منها الـكثير ، فلم أعد أحفل بها . وقد انتهى هذا الجانب من الحياة بالنسبة إلى ؛ وهو ما أعتبره من حسن الحظ . ولـكن لو حدث بعد خروجى أن كان هناك صـديق يعيش فى الحزن ثم رفض السماح لى بأن أشاطره حزنه ، فسأشعر بمنتهى الألم . فإذا أغلق دونى باب بيت أحزانه فسأعود ثانية وأوجه الرجاء ، ليسمح لى بأن أساهم فيما أصبح من حقى المساهمة فيه . فإذا رآنى غير جدير بالبـكاء معه فسيكون فى ذلك أشد أنواع التحقير ، بل إنه سـيكون أفظع ما يمكن أن يصيبنى من عار . غير أن هذا لا يمكن أن يحدث ؛ فقد أصبح لى الحق فى أن أساهم فى الحزن . فذلك الذى يستطيع أن ينظر إلى جمال العالم ، وأن يساهم فى أحزانه ، وأن يدرك ما فى الاثنين من أمر عجيب ، هو فى الواقع فى اتصال مباشر بالأشياء المقدسة ، وهو قد اقترب من السر الالهـى بقدر ما يستطيع أى واحد أن يقترب .

ربما جاء فى فنى أيضاً ما لا يقل عما يأتى فى حياتى من نغم قد يأتى أبعد عمقاً ، وجرس أكثر توافقاً فى الانفعال ، وأشد استقامة فى الباعث . إن الهدف الحقيقى للفن الحديث لا الاتساع بل الـكثافة . إننا فى الفن لم نعد نهتم بالمثال ، بل يجب أن نحصر اهتمامنا فى الاستثناء . إننى لا أستطيع أن أضع آلامى فى أى صورة جاءت فيها ، وهو ما لا حاجة بى إلى قوله . إن الفن يبدأ فقط حيث ينتهى التقليـد . غير أن شيئاً ما يجب أن يأتى فى عملى . ربما جاء فى كلمات أقرب تآلفا ، أو فى نغمات أقوى إثارة ، أو فى مؤثرات من التلوين أشد غرابة ، أو فى ترتيب

من البناء أكثر بساطة ، أو ربما جاء فى بعض الصفات من فلسفة الفن بأى حال .

عندما حدث لـ « مارسياس » أن « أخرج من جراب أطرافه » della Λagina della membre sue[١٥٠] ، باستعمال واحدة من أفظع جمل «دانق» وأبعدها إضماراً — لم يعد لديه أى أغنية . هكذا قال الاغريق . فقد انتصر « أبوللو » ، وقهرت القيثارةُ القصبةَ . ولـكن ، ربما كان الاغريق مخطئين . فالواقع إنى أسمع صرخة « مارسياس » فى كثير من الفن الحديث [١٥١] . فهى تأتى مُرة فى « بودلير » ، وهى تأتى شجية حلوة فى « لامرتين » ، وهى تأتى صوفية فى « ڤرلين » ، وهى تبدو فى التصميمات المؤجلة من موسيقى « شوبان » ، كما تبدو فى عدم الرضاء الذى ينتاب الوجوه المتواترة لنساء « بيرن ـ چونز » ، بل وحتى « ماثيو أرنولد » الذى تخبرنا أغنيتـه عن « كاليـكل Callicles » بـ « انتصار القيثارة المستـميلة الجميلة » و « النصر النهائى الشهير » فى مثل تلك النغمة الصافيـة من جمال الشعر الوجدانى — حتى أرنولد نفسه فى ذلك الهمس المضطرب من الشك والغم الذى ينتاب شـعره لم يكن لديه منها القليل [١٥٢] . ولم يستطع لا «جوته» ولا «وردسورث» أن يشفى جرحه ، مع أنه تبع كلا منهما بعـد الآخر . وحينما يمضى فى البحث عن الحزن لأجل « ثيرسيس Thyrsis » أو للتغنى بـ « الغجرى الأديب » لا يجد إلا القصبة لترجيع أنغامه . ولـكن سواء كان إله الرعاة الفريجيانى[١٥٣] صامتا أو لم يكن فانى لا أستطيع أن أكون . فكما أن الأوراق والزهور ضرورية للفروع السـوداء من الأشجار المتبدية من فوق حائط السجن قلقـة فى مهب الرياح ، كذلك التعبير لى من الضروريات . إن هناك الآن خليجا واسعا بين فنى وبين العالم ؛ غير أنه لا يوجد شىء بينى وبين الفن . أو إن هذا ما أرجوه على الأقل .

كلانا استوفى نصيبه من الحظ . فكان لك الحرية ، والسرور ، واللهو ، وحياة الراحة ، ولم تكن جديراً بذلك ؛ وكان لى الفضيحة العلنية ، والسجن الطويل ، والتعاسة ، والخراب ، والعار ، ولم أكن أيضاً جديراً بذلك ، حتى الآن على الأقل . أذكر أنى كنت أردد دائماً أن فى استطاعتى أن أحمل أية مأساة حقيقية إذا جاءتنى ومعها بساط رحمة أرجوانى وقناع من حزن نبيل[١٥٤] . غير أن الشىء المفزع عن النزعة الحديثة أنها وضعت المأساة فى ثوب الملهاة ؛ فكانت النتيجة أن الحقائق العظيمة ظهرت كأشياء عادية أو مضحكة ، أو ناقصة فى الأسلوب . هذا صحيح تماما عن النزعة الحديثة . بل ربما كان صحيحاً على الدوام عن الحياة الواقعية . فقد قيل إن جميع الشهداء بدوا أخساء فى نظر الشاهد[١٥٥] . وليس القرن التاسع عشر بمستثنى من القاعدة العامة .

كل شىء عن مأساتى كان بشعاً ، سافلا ، منفراً ، ناقصاً فى الأسلوب . حتى ملابسنا نفسها تجعل منا أشياءً مضحكة . فنحن بهاليل الحزن ، ونحن مضحكون تحطمت قلوبهم ، ونحن قد صنعنا خصيصاً لنكون مدعاة إلى السخرية . فى الثالث عشر من نوفمبر سنة ١٨٩٥ جىء بى من لندن إلى هذا السجن[١٥٦] . ومن الثانية حتى الثانية والنصف من ذاك اليوم أوقفت على الرصيف الأوسط من ملتقى الخطوط عند « كلافام Clapham » بينما كنت أرتدى ملابس المجرمين وأحمل فى يدى الحديد ، وذلك ليرانى العالم ! لقد أخذت من قاعة المستشفى بغير أن يدلى إلى بأى ملاحظة . فكنت فى موقفى أعظم ما يمكن أن يثير السخرية . فعندما كان يرانى الناس كانوا يستغرقون فى الضحك . وكان كل قطار يصل يزيد فى عدد الشاهدين . ولم يكن هناك وسيلة أخرى تزيد فى سرورهم . وكان ذلك بالطبع قبل أن يعلموا من كنت .

فإذا ما علموا زادوا ضحكا . هكذا وقفت هناك لمدة نصف ساعة تحت مطر نوفبر الأغبر ، ومن حولى حشد من السفلة يضحك ويتهكم . لقد لبثت طوال عام بعد تلك الحادثة أبكى كل يوم لمدة نصف ساعة وفى نفس الوقت . وقد يبدو لك هـذا الأمر كما لو كان ليس فى شىء من المأساة . أما بالنسبة إلى من يعيشون فى السجن فإن الدموع جزء من تجربة كل يوم . فإذا انقضى يوم بغير بكاء كان يوماً تحجر فيه القلب ، فهو ليس باليوم الذى يقضيه المرء بقلب سعيد .

حسناً ، لقد بدأت الآن أشعر بمزيد من الأسف ، لا على نفسى بل على أولئك الذين ضحكوا منى . فحينما كانوا ينظرون إلى لم أكن بالطبع منتصباً على قاعدتى بل كنت واقعاً فى آلة القمط(*) . غير أن الطبيعة الفقيرة إلى المخيلة هى التى تعنى بالناس فقط حينما يكونون منتصبين على قاعدتهم . فربما كانت القاعدة لا تعنى شيئاً حقيقياً ، أما آلة القمط فإنها حقيقة مرعبة . لقد كان يجب عليهم أن يعلموا أيضاً كيف يترجمون الحزن بصورة أحسن . فقد قلت إن من وراء الحزن دائماً حزناً ؛ وكان من الأصوب أن أذهب أبعـد فأقول إن من وراء الحزن دائماً نفساً . ولا شك أن السخرية من نفس فى الألم شىء مريع . فحياة أولئك الذين يفعلون ذلك لا تتسم بشىء من الجمال . ففى اقتصاد هـذا العالم الغريب فى بساطته لا يحصل الناس على أكثر مما يقدمون . فأى شفقة يستطيع أن يحصل عليها أولئك الذين لم تمكنهم مخيلتهم القاصرة من اختراق ظاهر الأشياء والشعور بالشفقة ، إلا أن تأتيهم فى صورة من الاحتقار الشديد ؟

(*) الكلمة هنا هى Pillory ، وهى تشير إلى آلة تعذيب تدخل فيها الرأس واليدان ، كانت تستعمل فى القرون الوسطى . « المترجم »

لقد أخبرتك بهذه القصة في بساطة ، مشيراً إلى الحالة التي كنت فيها وقت أن نقلت إلى هذا المكان ، لعلك تستطيع أن تدرك كيف صعب عليّ أن أحصل على شيء من عقوبتي إلا المرارة واليأس . وكان يجب أن أفعل على كل حال . أما الآن فإن لدي من حين لآخر لحظات من القبول والتسليم . إن الربيع ربما كان مختفياً كله في نوارة ، وإن عش القنبرة الأرضي المنخفض ربما اتسع لسرور يكفي للتبشير بمقدم فجر بعد آخر في صورة من الورود الحمراء . وهكذا مهما كان ما لا يزال باقياً لي من جمال الحياة فربما كانت تضمنته لحظات من الاستسلام ، والتذلل والخضوع . إنني أستطيع ، كيفما كان الأمر ، أن أتقدم على خطوط تطوري الشخصي فقط . وبقبول كل ما حدث لي أجعل نفسي جديراً بذلك .

لقد قال الناس عني دائماً أنني كنت متغالياً في فرديتي . فأقول أنني يجب الآن أن أكون أكثر تغالياً . بلي ، يجب أن أذهب في الخروج من نفسي أبعد كثيراً مما كنت قط ، وأن أسأل هذا العالم أقل كثيراً مما سألته قط . والواقع إن ما حل بي من خراب قد جاء لا من التزايد في الفردية بل من الإقلال منها . فقد كان الفعل الوحيد المخزي في حياتي ، والذي لا يغتفر ، بل وسيبقى دائماً مبعثاً للاحتقار ، كان أن سمحت لنفسي بأن أقسر على الالتجاء إلى المجتمع للحصول على المساعدة والحماية ضد والدك . فمثل هذا الالتجاء إذا حدث ضد أي واحد يعتبر من وجهة نظر الفردي في منتهى السوء . ولكن ما هو العذر الذي يمكن أن يقدم إذا ما حدث ضد واحد في مثل تلك الطبيعة والمظهر ؟

ومرة يراني المجتمع أضع قواه في الحركة فهو لا بد ملتفت إليّ ليقول : « أو تعيش طوال هذا الزمن متحدياً قوانيني ثم تأتي الآن

طالباً منها حمايتك ؟ إنك ستحصل على تطبيقها بصورة كاملة ، وعليك أن تلتزم ما كنت تعتمد عليه ! » . والنتيجة أنى الآن فى السجن .
وفى مجرى المحاكمات الثلاث التى تعرضت لها ، وقد بدأت فى محكمة الشرطة ، كنت أشعر فى مرارة بما فى وضعى من تهكم وعار حينما أرى أباك يدخل ويخرج فى ضجة مصطنعة لعله يسترعى التفات الجمهور ، كما لو كان كل واحد لن يستطيع أن يلاحظ أو يتذكر مشية سايس الاصطبل ولباسه ، وساقيه المقوستين ، ويديه المرتعصتين ، وشفته السفلى المتدلية ، وتلك التكشيرة البهيمية التى تدل على بلادة الطبع . وحتى حينما كان غير موجود أو بعيداً عن النظر كنت أشعر بوجوده . وكان وجهه الذى يحاكى وجه القرد قد تمثل فى أقنعة لا حصر لها غطت جدران القاعة الكبرى الكئيبة فى المحكمة ، بل وانسابت فى جو المكان ، متطلعة كلها إلىّ . والحقيقة أن شخصاً ما لم يقع هكذا بسفالة كما فعلت ، ويقع بمثل هذه الوسائل السافلة . لقد قلت فى بعض مواضع « دوريان جراى »[١٥٧] إن « أى رجل لا يستطيع أن يكون دقيقاً فى اختيار أعدائه » . والواقع أنى لم أكن أتصور أن منبوذاً يستطيع أن يجعل منى منبوذاً أنا نفسى .

أما ذلك الحث ، وذلك الضغط ، الذى لقيته منك لألتجىء إلى المجتمع طالباً المساعدة فإنه من بين الأشياء التى تجعلنى أحتقرك بشدة وأحتقر نفسى كذلك بشدة لاستسلامى لك. إن عدم تقديرك لى كفنان مما يمكن التجاوز عنه ، فهو أمر يرجع إلى المزاج ، وهو أمر لم يكن لك قدرة على علاجه . غير أنه كان فى استطاعتك أن تشعر بالتقدير لى كواحد من الفرديين . فهذا لم يكن يتطلب شيئاً من الثقافة . ولكنك لم تفعل ، وعليه فقد أدخلت عنصر المادية فى حياةٍ كانت احتجاجاً

كاملا على المـادية كما كانت إبادة كاملة لها من بعض وجهات النظر . إن العنصر المـادى فى الحياة لا يعتبر فشلا فى فهم الفن . فأولئك الساحرون من الناس ، كالصيادين ، والرعاة ، والحراثين ، والفلاحين ، وأمثالهم ، هؤلاء لايعرفون شيئاً عن الفن ، ومع ذلك فإنهم ملح الأرض الحقيقى . وإنما المـادى هو ذلك الذى يؤيد قوى المجتمع الآلية العمياء المعوقة الثقيلة ويساعدها ؛ وهو ذلك الذى لا يميز القوة المحركة حينما يلتقى بها ، إما فى الانسان أو فى الحركة .

لقد اعتقد الناس أنه كان من الفظاعة منى أن دعوت إلى مائدتى تلك الأشياء الشريرة فى الحياة ، وأن وجدت سروراً فى صحبتها . غير أن هذه الأشياء ، من وجهة النظر التى وصلت من خلالها ، كفنان فى الحياة ، كانت ملهمة ومثيرة بصورة بالغة السرور . لقد كان الأمر كما يولم المرء مع بعض النمور . وكانت الخطورة نصف الإثارة . لقد كنت أشعر كما يشعر ساحر الثعابين حينما يعمد إلى إثارة « الـكوبرا » لتتحرك من قطعة القماش الملونة أو من سلة البوص التى تـكومت فيها ، ويجعلها تقيم رأسها وتتأرجح فى الهواء ، كما تتأرجح قطعة من نبات بهدوء فى مجرى ماء . لقد كانوا فى نظرى أبهى أنواع الثعابين المذهبة ؛ وكان سمهم جزءا من كمالهم . ولم أكن أعلم أنهم حينما كانوا يضربون نحوى كان ذلك من أجل تزميرك وجُعل أبيك . ولم أشعر قط بالخجل من كونى عرفتهم ، فقد كانوا مثيرين إلى أبعد حد . أما الذى أشعر بالخجل منه فهو الجو المـادى المريع الذى استطعت أن تدفعنى فيه . لقد كانت أعمالى كفنان مع « أريل Ariel » فإذا بك تضعنى لأتلاكم مع « كاليبان Calipan »(*) . وهكذا بدلا من أن أشغل نفسى بإخراج أشياء جميلة

(*) « أريل » و « كاليبان » شخصيتان لشكسبير فى تمثيلية « العاصفة » . « المترجم »

ذات ألوان وموسيقى، لـ « سالومى » و « المأساة الفلورنسية » و « البغى المقدسة » وجدت نفسى مقسراً على إرسال خطابات محاماة طويلة إلى والدك ، وإخضاع نفسى إلى الالتجاء إلى نفس الأشياء التى كنت دائماً أحتج عليها . إن « كليبورن Cliporn » و « ايتكنز Atkins » كانا بديعين فى حربهما التشهيرية ضد الحياة(١٥٨) . فكان تكريمهما مجازفة مدهشة . لقد كان من الممكن أن يفعل ذلك كل من « دوما الأب » و « تشلليني » و « جويا » و « إدجار الن پو » و « بودلير » . أما الشيء الذى تشمئز منه نفسى فهو ذكرى تلك الزيارات التى لاحصر لها، التى قمت بها فى صحبتك إلى المحامى «همفريز» ، حيث كنا نجلس بوجهين عابسين فى الضوء الباهت من الغرفة الكئيبة ، لندلى بأكاذيب جريئة إلى رجل أصلع ، ونفعل ذلك حتى أزفر وأتثاءب من الملل . هناك ، حيث وجدت نفسى بعد عامين من صداقتى معك فى قلب موطن المادية (Philistia) ، بعيداً عن كل شيء كان جميلا ، أو متألقا ، أو بديعا ، أو جريئا . ثم فى النهاية كان على أن أتقدم ، بالنيابة عنك ، كبطل الاعتبارية فى السلوك ، وفارس التطهيرية فى الحياة ، ورائد المبادىء الأخلاقية فى الفن ... إلى هنا ، حيث تؤدى الطرق المعوجة(*) (١٥٩) .

ثم إن الشيء العجيب فى نظرى انك قد حاولت أن تحاكى والدك فى صفاته الرئيسية . والواقع إنى لا أستطيع أن أفهم لماذا كان لك بمثابة المثال بينما كان يجب أن يكون بمثابة الإنذار ! لا أفهم ذلك إلا

(*) وردت هذه الجملة بالفرنسية ، كما فعل وايلد كثيراً فى هذه الرسالة : مرة بالفرنسية ، وأخرى بالإيطالية ، وثالثة باللاتينية ، ورابعة باليونانية . ارجع إلى التعليقات . « المترجم »

حينا أضع فى اعتبارى هذه الحقيقة ؛ فحينما يكون هناك بغض بين شخصين تكون هناك صلة من الأخوة من نوع ما . وإنى أفترض أنه بفعل بعض القوانين الغريبة لتنافر المتشابهات فإن كلا منكما يشمئز من الآخر ؛ لا لأنكما تختلفان فى نقاط كثيرة بل لأنكما تتفقان فى البعض . فى يونيو ١٨٩٣ ، حينما تركت أكسفورد بغير أن تحصل على درجة ، مخلفا وراءك ديونا إن لم تكن كبيرة فقد كانت كذلك فى نظر رجل فى حالة والدك الإقتصادية ، تلقيتَ منه خطاباً سوقياً ، عنيفاً ، فاضحاً ؛ فلم يكن ردك عليه بأقل سوءا من كل جانب . وكان ما كتبت بالطبع أبعد مما يمكن التسامح فيه . وكنتيجة لذلك كنت فخوراً به للغاية . إنى أذكر جيداً قولك لى وأنت فى ذروة غرورك إنك استطعت أن تضرب والدك « بنفس بضاعته » ! صحيح تماماً . ولكن يالها من بضاعة ! ... يالها من منافسة ! لقد مضيت تضحك وتسخر من والدك ، فتركته فى منزل عمك حيث كان يقيم ، وذهبت إلى الفندق المجاور لتكتب إليه خطابات قذرة . وقد فعلت معى نفس الشيء ، فكنت تتغدى معى على الدوام فى بعض المطاعم العامة ؛ فإذا أصابك العبوس ، أو اصطنعت مشاجرة على الطعام ، ذهبت إلى « هويت كلوب » فكتبت إلى خطابا قذراً . أما الفرق الوحيد بينكما فقد كان أنك تعودت بعد إرسال الخطاب مع رسول خاص أن تأتى بنفسك إلى مسكنى بعد ساعات قليلة ، لا لتعتذر بل لتسأل ما إذا كنتُ طلبت طعاماً من مطعم « سافوى » . فإذا لم يكن فلم لا . وكنت أحياناً تصل فى الواقع قبل أن أكون اطلعت على خطابك المؤذى ! إننى أذكر أنه حدث فى إحدى المناسبات أن سألتنى أن أدعو اثنين من أصدقائك إلى الغداء فى الـ « كافى رويال » . ولم أكن رأيت واحداً منهما قط فى حياتى . وقد فعلت . وبرجاء خاص منك طلبت

مقدماً إعداد طعام جيد بصورة خاصة . وأذكر أن الطاهى لم يكن موجوداً فأرسلوا فى طلبه ، وصدرت إليه تعليمات خاصة فيما يتعلق بأنواع النبيذ . ولكن بدلا من أن تأتى لتناول الغداء أرسلت إلى خطابا مقذعاً فى « الكافى » . وقد ضبطت الوقت ليتسنى وصوله بعد أن نكون أمضينا نصف ساعة فى انتظارك . وبقراءة أول سطر علمت ماذا جاء فى الخطاب ، فوضعته فى جيبى ومضيت أشرح لصديقيك أن المرض قد فاجأك ، وأن مضمون الخطاب يشير إلى أعراضه . والواقع أنى لم أقرأ ذلك الخطاب إلا حينما كنت أرتدى ملابسى لتناول العشاء فى « تايت ستريت » فى ذلك المساء . وبينما كنت فى وسط أوحاله ، وقد استولى على العجب والحزن من إقدامك على كتابة خطابات كان ما فيها كالزبد الذى يتضارب على شفق مجنون ، جاء الخادم فأخبرنى أنك فى البهو فى انتظار السماح برؤيتى لخمس دقائق . فطلبتك فى الحال . فإذا بك تبدو مذعوراً باهت الوجه ، وإذا بك ترجو منى أن أبذل لك النصح والعون ، فقد بلغ أسماعك أن رجلا من « ملى Lumley » ، محامياً ، مضى يسأل عنك فى ساحة « كادوجان Cadogan » ؛ وأنك تخشى أن تكون متاعبك فى أكسفورد باتت تهددك ، أو أن يكون هناك خطر جديد . فعمدت إلى التخفيف عنك ، وقلت لك فيما قلت أن المسألة قد لا تعدو « فاتورة تجارية » ! ثم استبقيتك لتتعشى وتقضى الليلة معى . ولم تذكر حينئذ كلمة عن خطابك المريع ، وكذلك لم أفعل ؛ فقد نظرت إليه فى بساطة على أنه عارض تعيس من مزاج تعيس . ولم يحدث قط أن أشرت إلى الموضوع ، لقد كان من الأمور العادية فى حياتك أن تكتب إلى فى الثانية والنصف خطاباً قذراً ثم تسرع إلى فى السابعة والربع من ذات المساء طالباً المساعدة والعطف . فقد اقتفيت أثر والدك

فى تلك العادة وفى غيرها . أما هو فقـد كان من الطبيعى أن يشعر بالخجل ويتظاهر بالبكاء حينما قرئت خطاباته الثائرة إليك علنا فى المحكمة . ولو كانت خطاباتك إليـه قرئت بالمثل بواسطة محاميه لشعر كل إنسان بمزيد من الرعب والنفور . والواقع إنك لم « تضربه بنفس بضاعته » فى الأسلوب وحسب بل تفوقت عليه تماما فى طريقة الهجوم فقـد أفدت من البرقيات العامة وبطاقات البريد المفتوحة . ولـكننى أعتقد أنه كان أولى بك أن تترك هـذا الضرب من طرق الإزعاج لأناس مثل « الفرد وود Alfred Wood » ، فهو على الأقل لا يجد وسيلة أخرى للتـكسب(١٦٠) . ألا ترى ذلك ؟ غير أن ما كان حرفة له ولأمثاله أصبح وسيلة لك للسرور ، وطريقاً بالغ الشر . إذ أنك لم تقلع عن عادتك السيئة فى كتابة خطابات مؤذية بعد كل ذلك الذى حدث لى من جرائها وبسببها ، بل لا تزال تعتبر ذلك كما لو كان مما هو مطلوب منك من إنجازات . فلا تـكتفى بفعله معى بل تأبى إلا أن تفعله كذلك مع أصدقائى ... مع أولئك الذين كانوا محسنين إلى فى السجن . كما فعلت مع « روبرت شيرارد » وغيره . إن ما فعلته مع ذلك الرجل لمن الأمور المخزية ، فقد كان يجب أن تـكون له شاكراً . فهو حينما عمل على تحقيق رغبتى ، حال دون قيامك — حتى لو لم تقصد — بفتح باب ألم جديد لى . فقد سمع منى أننى لا أريد أن تنشر عنى مقالا فى صحيفة « مركيردى فرانس » سواء تضمن شيئاً من خطاباتى أو لم يتضمن . وكان يجب أن تذكر أن خطابا من النوع المادى يتبنّى فـكرة « إنصاف رجل فى الحضيض » ربما وقع موقع الصواب فى اعتبار صحيفة إنجليزية ، إذ سـيكون متمشياً مع التقاليد القديمة للصحافة الإنجليزية فيما يختص بموقفها مع الفنانين . غير أنه ليس كذلك فى فرنسا ، بل على العكس إن مثل هذه النغمة كانت

تعرضنى للسخرية كما كانت تعرضك للاحتقار . ولذلك لم أكن لأسمح لك بنشر أى مقال ما لم أعرف هدفه ، وطبيعته ، وطريقة اقترابه ، وكل ما يتصل بذلك . إن المقاصد الطيبة ليس لها أى قيمة فى الفن ؛ فالواقع إن الفن السيء قد جاء نتيجة للمقاصد الطيبة .

ولم يكن « روبرت شيرارد » هو وحده من بين أصدقائى الذى وجهت إليه خطابات قاسية مرة ، لأنه أراد وضع رغباتى ومشاعرى فى الاعتبار فى شئون تعنينى شخصيا ، كنشر مقالات عنى ، وإهداء أشعار إلى ، والتصرف فى خطاباتى وهداياى ، بل إنك كدرت آخرين بالمثل ، أو حاولت أن تفعل .

هل خطر ببالك قط ما هو الوضع المريع الذى كان يمكن أن أكون فيه إذا حدث أن اعتمدت عليك كصديق فى العامين الماضيين ، أى خلال مدة عقوبتى المريعة ؟ هل فكرت قط فى ذلك ؟ وهل شعرت قط بأى امتنان لأولئك الذين استطاعوا بما أبدوه من شفقة لا حصر لها ، وإخلاص لا حد له ، وسماحة فى بشاشة وسرور ، أن يخففوا من حملى الأسود ، فأدوا لى الزيارات مرة بعد أخرى ، وكتبوا إلى خطابات جميلة تحمل العطف ، وتولوا تدبير شئونى والإعداد لحياتى المستقبلة ، ووقفوا بجانبى فى وجه الطعن والتعيير والاستهزاء العلنى ، بل وفى وجه الاهانات ؟ إنى أشكر الله كل يوم على أن قيض لى أصدقاء غيرك . إنى أدين بكل شىء لهؤلاء الأصدقاء . فالكتب الموجودة فى زنزانتى دفع ثمنها « روبى » من جيبه ، بل وتولى دفع ثمن الملابس التى سأحتاج إليها وقت خروجى . وبالطبع لا يخجلنى الحصول على شىء وهب فى حب ومودة ، بل على العكس إنى فخور بذلك . ولكن هل فكرت قط فيما كان أولئك الأصدقاء بالنسبة إلى ، من أمثال « مور أدى » ،

و « روبى » و « روبرت شيرارد » و « فرانك هاريس » و « أرثر كليفتون » حينما مضوا يمنحوننى التسلية ، والمساعدة ، والمودة والعطف ، وغير ذلك ؟ أظن أن ذلك لم يلح لك قط . ومع ذلك فلو كان فيك ذرة من مخيلة لكان فى مقدورك أن تعرف أنه لا يوجد واحد من الذين كانوا يشفقون على حياتى فى السجن ، من الرؤساء إلى السجان الذى ربما أدى لى تحية الصباح أو تحية المساء بالرغم من أنها ليست فى برنامج واجباته ؛ إلى رجال الشرطة الذين حاولوا فى أسلوبهم الخشن البسيط أن يسرّوا عنى أثناء انتقالى إلى محكمة التفليسة فى حالة مريعة من الهم الفكرى ؛ إلى ذلك اللص المسكين الذى حينما ميزنى حال تجولنا فى فناء سجن ورد سورث همس إلى فى نبرة علاها الصدأ بفعل السكوت المطبق فى حياة السجن قائلا : « إننى أشعر لك بالأسف ؛ فالحال هنا أشق على أمثالك مما هو على أمثالى » . ليس بين هؤلاء جميعا ، أوَ تسمع ما أقول ؟ ليس بينهم من لا يجب أن تشعر بالفخر إذا صح لك بأن تركع وتنظف حذاءه مما علق به من صميم الوحل .

أوَ لديك مخيلة كافية لترى أى مأساة مخيفة بالنسبة إلى كانت تلك التى جاءتنى عن طريق عائلتك ؟ ... أى مأساة يمكن أن تكون بالنسبة إلى واحد له مركزه العظيم ، وله إسمه الكبير ، وله ما كان له من أهمية ... ليفقد هذا كله ؟ إننى إذ أستثنى « برسى Bercy »[(١٦١)] ، فهو فى الحقيقة شخص طيب ، أقول أنه لا يكاد يوجد شخص واحد من الراشدين من أسرتك لم يساهم من بعض الطرق فى ما حل بى من خراب .

لقد تحدثت إليك عن والدتك فى شىء من المرارة . وإنى أنصح لك بشدة أن تطلعها على هذا الخطاب . فإذا آلمها ما جاء فيه من اتهام لواحد

من بنيها ، فلتذكر أن أمى ، وقد كانت فى صف «اليزابيث باريت براونِنج» من الناحية العقليـة ، كما كانت فى صف « مدام رولان »[١٦٢] من الناحية التاريخية ، قد ماتت كسيرة القلب لأن الابن الذى كانت فخورة بعبقريته وفنه ، وكانت ترجو أن يكون استمرارا جديرا الاسم المميّز ، قد حكم عليه بأن يقضى عامين فى آلة التعذيب . وستسألنى : فى أى طريق ساهمت والدتك فى تدميرى ؟ فدعنى أخبرك . فـكما أجهدت نفسك فى تحويل جميع مسئولياتك اللا أدبية علىّ ، كذلك أجهدت والدتك نفسها فى أن تحول على جميع مسئولياتها الأدبية فيما يتعلق بك . إذ بدلا من أن تتحدث إليك مباشرة عن حياتك ، كما يجب أن تفعل كل أم ، مضت تـكتب إلىّ سرا ، مع توسلات قلقة خائفة بألا أجعلك تعلم أنها كتبت إلى . إنك ترى فى أى موقف وضعتُ بينك وبينها . فقد كان موقفاً كاذباً بقدر ما كان سخيفاً ، وكان مفجعاً بقدر ما كان الموقف الذى وضعت فيه بينك وبين والدك . حدث فى أغسطس سنة ١٨٩٢ أن كنت فى مقابلة طويلة معها ، وقد دار الحديث حولك . ثم حدث نفس الشىء فى الثامن من نوفمبر من نفس العام . وفى كلتا المقابلتين سألتها لِمَ لا تتكلم إليك مباشرة هى نفسها . فسمعت منها كل مرة نفس الجواب ، فقد قالت : « إنى أخشى أن أفعل ، فهو يغضب إذا ما تكلم إليه أحد » . وفى المرة الأولى لم أكن عرفتك إلا قليلا ، فلم أفهم ما عنته . أما فى الثانية فـكنت قد عرفتك جيدا ، فلم يصعب على فهم كل شىء . (خلال تلك الفترة أصبتَ بمرض اليرقان فنصح لك الطبيب بقضاء أسبوع فى « بورنموث » ، وقد أقنعتنى حينئذ بأن أرافقك ، مبـــدية أنك لا تحب الوحدة) ! غير أن واجب الأم يقتضيها

ألا تكون خائفة من التكلم جديا إلى ابنها . ولو كانت والدتك قد تكلمت جديا إليك حول المتاعب التى رأتك فيها فى يوليو ١٨٩٢ ، وجعلتك تثق بها ، لكان ذلك أحسن وأسعد كثيراً لكليكما فى النهاية .
إن جميع المكاتبات السرية التى بعثتْ بها إلى كانت خطأ وإلا فماذا كانت الفائدة من أن تبعث إلى بمذكرات قصيرة لا حصر لها ، تحمل دائماً كلمة « سرى » على الظروف ، ترجونى فيها ألا أدعوك كثيراً إلى الغداء ، وألا أعطيك قط نقوداً ، وتنهى كلا منها بهذه الحاشية القلقة :
« مهما كانت الأسباب ، فلا تجعل « الفرد » يعلم أنى كتبت إليك » ؟
ماهى الفائدة التى كان يمكن أن تتأتى من مثل تلك المذكرات ؟ وهل انتظرت قط حتى تصلك دعوتى إلى الغداء ؟ أبداً . فقد كنت دائماً تتناول وجباتك معى كأمر طبيعى . فإذا اعترضتُ أبديتَ ملاحظة لا تتغير ، فقد كنت تقول : « إذا لم أتغد معك ، فأين إذن أتغدى ؟ أعتقد أنك لا تفترض أن أذهب لتناول الغداء فى المنزل ؟ » . وكانت ملاحظة لا يستطيع المرء أن يرد عليها . فإذا رفضت بتاتاً أن أسمح لك بأن تتغدى معى كنت دائما تهدد بأنك مقدم على حماقة . وكنت دائماً تفعل . ماذا كان يمكن أن يكون هناك من نتيجة لتلك الخطابات التى مضت والدتك تبعث بها إلى غير ماحدث ، وهو إلقاء مسئولياتها الأدبية على كتفىّ بصورة حمقاء مشئومة ؟ لا أريد أن أتكلم أكثر عن التفاصيل المختلفة التى تثبت أن ضعف والدتك وافتقارها إلى الشجاعة كان مدمراً لها ، ولك ، ولى . ولكن من المؤكد أنها حين سمعت بأن والدك كان فى طريقه إلى مكانى للقيام بمشاجرة قذرة وخلق فضيحة علنية لم تكن غافلة عما وراء ذلك من أزمة جدية . وكان فى وسعها أن تتخذ بعض الخطوات العملية لتلافى ذلك . غير أن كل ما استطاعت أن تفعله أنها

أرسلت «جورج ويندهام George Wyndham »[١٦٣] الطامن ، ليقترح على بذلاقة لسانه — ماذا ؟ ... أن أحاول « إهمالك بالتدريج » ! كما لو كان الأمر ممكناً .

لقد حاولت أن أضع حداً لصداقتنا بكل الوسائل . وذهبت فى هذا إلى حد أننى تركت انجلترا فعلا ، وأعطيت عنى عنواناً كاذباً فى الخارج ، مؤملا أن أستطيع بضربة واحدة تحطيم صلة أصبحت مزعجة ، بغيضة ، مدمرة لى . فهل تعتقد أنه كان فى استطاعتى « إهمالك بالتدريج » ؟ وهل ترى أن ذلك كان مرضياً لوالدك ، حتى لو حدث ؟ إنك تعلم أنه لم يكن يرضى بذلك . فالواقع أنه لم يكن يريد فصم عرى صداقتنا بل كان يبتغى خلق فضيحة علنية . ذلك ما كان يجاهد لأجله ؛ فقد كان اسمه غائباً عن الصحف لسنوات ، فرأى فرصة للظهور أمام الجمهور البريطانى فى شخصية جديدة تماماً ، وهى شخصية الوالد العطوف . وكان إحساسه الماجن قد استيقظ . ولو كنت قطعت صلتى بك لكان فى ذلك خيبة أمل مريعة له . ولم يكن القدر الضئيل من سوء السمعة الذى جاءه فى قضية الطلاق الثانية كافياً لتسليته ، مهما كان هناك من إثارة فى أصل تلك القضية وفصلها[١٦٤] . وذلك لأن ما كان يهدف إليه هو الشهرة . وفى ظروف الجمهور البريطانى الحاضرة فإن وقوف الشخص كواحد من أبطال الطهارة ، كما سميت ، أصدق حالة يصبح فيها ذا شخصية بطولية ، وإن كان ذلك لا يتعدى ظرفه الراهن . ولقد قلت عن هذا الجمهور فى واحدة من تمثيلياتى إنه إذا كان يمثل شخصية « كاليبان » نصف العام فإنه يمثل شخصية «تارتوف» نصفه الآخر[١٦٥] . وبهذه الطريقة كان والدك ، الذى يمكن أن يقال إن كلتا الشخصيتين قد تجسدت فيه ، قد تميز على أنه الممثل

المناسب لمذهب المتزمتين « Puritanism »(*) بشكله المدوانى وطابعه المميز . وإذن فلم يكن إهمالك بالتدريج بالأمر الممكن ، حتى لو رؤى أن من السهل وضعه فى التطبيق . أولا ترى الآن أن الشىء الوحيد الذى كان يجب على والدتك أن تفعله كان أن تدعونى لمقابلتها فى وجودك ووجود أخيك ، ثم تقول بالتحديد إن هذه الصداقة يجب أن تتوقف ؟ لقد كانت واجدة فىّ أصدق معضد ؛ ولم يكن هناك ما يخيفها من أن تتكلم إليك ما دام « درمّلانريج Drumlanrig » وأنا موجودين فى الغرفة . غير أنها لم تفعل ذلك ؛ فقد كانت فى الواقع تخشى من مسئولياتها ، فحاولت أن تلقيها على . ولكنها استطاعت أن تكتب خطابا واحداً ، وكان خطاباً قصيراً أشارت فيه بأنها ترى ألا أرسل إلى والدك خطاب المحامى الذى يحذر من الكف عن الأمر وكانت محقة فى ذلك ؛ فقد كان من المضحك أن أقدم على استشارة المحامين وأطلب منهم الحماية . غير أنها أبطلت ما قد يحدثه الخطاب من تأثير بإضافة حاشيتها المعتادة : « مهما كانت الأسباب ، فلا تجعل « الفرد » يعلم أنى كتبت إليك » !

(*) « تارتوف Le Tartuffe » ، أو المنافق، هو بطل مسرحية « موليير» الفكاهية الشهيرة ، وهو منافق جاء إلى متيسر يدعى أرجون فحاول أن يتزوج من ابنته ويغرر بزوجته ويسلبه ثروته .

أما مذهب المتزمتين Puritanism فقد أسسه الكتبة الشيخيون فى انجلترا واسكتلندا ممن زعموا أنهم أصدق فى التزام نصوص الكتاب المقدس. وقد انحط تزمتهم العقلى إلى درجة من الصلابة الوحشية. وكانت ثورة ١٦٤٨ نتيجة لحركتهم بعد أن اختلطوا بالبرلمانيين . ومن الناحية الأخرى فان الاضطهادات التى تعرضوا لها على يد « آل ستيوارت » حملت عدداً كبيراً منهم على الهجرة إلى أماكن بعيدة ، وكان للدور الذى لعبه هذا الرحيل المتعاقب أثر كبير فى تاريخ الاستعمار الانجليزى، وبخاصة فى أمريكا . « المترجم »

لقد سحرتك فكرة قيامى بإرسال خطابات محامين إلى والدك ، كما كنت تفعل . وقد جاءتنى من وحيك فلم أستطع أن أخبرك أن والدتك كانت ضد هذه الفكرة بشدة ؛ وذلك لأنها قيدتنى بأشد الوعود لكى لا أخبرك بشىء عن خطاباتها إلى ، وقد حافظت فى حماقة على وعدى لها . ألا ترى أنها كانت مخطئة بعدم تكلمها إليك مباشرة ؟ وأن جميع مقابلاتها الخلفية معى ومراسلاتها الخاصة إلى كانت خطأ ؟ ليس هناك من يستطيع أن يلقى مسئولياته على الآخرين ؛ فهذه المسئوليات تعود على صاحبها فى النهاية . إن فكرتك الأولى فى الحياة ، وفلسفتك الوحيدة ، إن كان لمثلك فلسفة ، فكرتك هى أن ما تفعله ، مهما كان ، يجب أن يؤدى آخر حسابه عنك . ولا أقصد بذلك فى الاتجاه المالى وحده ، فقد كان هذا الاتجاه مجال التطبيق العملى لفلسفتك فى الحياة اليومية ، بل فى الاتجاه الواسع الكامل لتحويل المسئولية . لقد اتخذت من هذا عقيدة ، ونجحت فى ذلك بقدر ما ذهبت . فقد دفعتنى إلى رفع القضية لأنك علمت أن والدك لن يهاجمك ولن يتعرض لحياتك . وحتى لو فعل فإننى سأدافع عنك وعن حياتك إلى آخر نفس ، وإننى سآخذ على عاتقى كل ما يلقى علىّ . وقد كنت مصيباً تماماً ؛ فقد فعل والدك وفعلت أنا بالمثل ، كلاً من بواعث مختلفة بالطبع ، ما توقعت منا أن نفعله . ولكن بسبب ما ، وبالرغم من كل شىء ، لم تستطع فى الواقع أن تفلت ! إن « نظرية الطفل صامويل » ، كما يستطيع المرء أن يعرفها بقصد الاختصار ، هذه النظرية صالحة جداً من جميع الوجوه بقدر ما يستطيع العالم العام أن يمضى . ربما لقيتَ كثيراً من الاحتقار فى لندن ، وربما لقيتَ قليلا من السخرية فى اكسفورد ؛ غير أن ذلك قد يحدث فقط لأن هناك من يعرفك ، ولأنك تركت آثاراً من خط سيرك . أما خارج

الجماعة الصغيرة فى كل من تلك المدينتين فإن العالم ينظر إليك على أنك الشاب المستقيم الذى كاد أن يغريه إلى فعل السوء ذلك الفنان الفاسد العديم الخلق لولا أن تدراكه والده الرحيم المحب فى الوقت المناسب . إن هذا يقع كما لو كان صحيحاً ، ومع ذلك فإنك تعلم أنك لم تستطع الإفلات ! ولست أشير هنا إلى سؤال ساذج ألقاه محلف غبى ، فلقى الاحتقار بالطبع من جانب التاج كما لقيه من جانب القاضى(١٦٦) ، فليس هناك من اهتم بذلك ، بل ربما كنت أشير إليك بالذات . فنى نظرك أنت ، وستفكر يوماً فى سلوكك ، لن تكون راضياً عن الطريقة التى سارت عليها الأمور ، ولن تستطيع قط أن تكون راضياً عنها ؟ ولا بد أن تفكر خفية فى نفسك فى كثير من الخجل . إن وجهاً نحاسياً شىء عظيم لتظهر به أمام العالم ؛ ولكنك حينما تكون وحيداً ولا يكون هناك من يراك ، ستجد نفسك مضطراً إلى رفع القناع من حين لآخر ، ولو لمجرد التنفس ، وإلا مت اختناقاً

وكان يجب على والدتك بنفس الأسلوب أن تتأسف أحياناً على محاولتها تحويل مسئولياتها الجسيمة على شخص آخر كان لديه من قبل ما يكفيه من أعباء ، لقد شغلت منك مركز الوالد والوالدة معاً ، فهل استطاعت حقاً أن تقوم بواجبات أى منهما ؟ وإذا كنتُ تحملت منك سوء الخلق والخشونة والمشاجرات ، فقد كان يجب عليها أن تتحمل منك ذلك هى أيضاً . عندما رأيت زوجتى أخيراً — وكان ذلك قبل أربعة عشر شهراً — قلت لها إنها يجب أن تكون أباً لسيريل كما هى أم له . وقد أخبرتها بكل شىء عن حالة والدتك فى معاملتها لك بكل التفاصيل التى ذكرتها فى هذا الخطاب ، إلا أننى زدت عليها فى الواقع . فقد أخبرتها بحقيقة تلك المذكرات التى كانت ترد تباعا إلى « تايت

ستريت» بصورة تفوق الحصر ، حاملة دائماً كلمة «خاص» على الظروف، الأمر الذى جعلها فى ذلك الوقت تقول ضاحكة إن الأمر لا بد أن يكون مزاملة بيننا فى « شركة روايات » أو شىء من هذا القبيل ! ولقد توسلت إليها ألا تكون لسيريل ما كانته والدتك لك ، وقلت لها إنه يجب أن ينشأ على أساس أنه لو حدث أن سفك دماً بريئاً فيجب أن يأتى فيخبرها بذلك . وإن عليها فى هذه الحالة أن تطهر يديه أولا ثم تعلمه بعد ذلك كيف يطهر روحه بالتوبة أو بالتكفير . ثم قلت لها إنه لو حدث أن خشيت من مواجهة مسئولية حياة شخص آخر ، ولو كان طفلها ، فيجب أن تستعين بمن تستطيع أن تجعل منه ولياً لأمره ، ليساعدها فى ذلك ويسرنى أن أقول إنها قد أخذت برأيى ، فاختارت ابن عمها « أدريان هوب Adrian Hope » لهذا الغرض ، وأحسبك رأيته مرة فى « تايت ستريت » ، وهو رجل نبيل المولد ، عالى الثقافة ، دمث الخلق ؛ وهذا ما يجعلنى أعتقد أن كلاً من سيريل وڤيڤيان سيجد معه فرصة طيبة لمستقبل جميل(١٦٧). وكان يجب على والدتك ، مادامت تخشى من التحدث جدياً إليك ، أن تختار من بين أقاربها واحداً كان من الممكن أن تستمع إليه . بل كان يجب ألا تخشى شيئاً ، فتضع الأمر معك فى وضوح وتواجهه . ولكن انظر إلى النتيجة الآن ! فهل تراها راضية عنها ومسرورة بها ؟

إننى أعلم أنها تلقى اللوم علىّ . إننى أسمع ذلك من أناس ، لا ممن يعرفونك بل ممن لا يعرفونك ولا يرغبون فى معرفتك . إنى أسمع كثيراً فى هذا الشأن . فهى تتكلم ، مثلا ، عن تأثير الشاب الكبير فيمن هو أصغر منه سناً . وهذا من أحب المواقف إليها تجاه الموضوع ؛ وهو دائماً التجاء ناجح إلى المحاباة المألوفة والجهالة . ولست فى حاجة إلى أن أسألك

عما كان لى من تأثير عليك . فأنت تعلم أنه لم يكن لى شىء من ذلك .
وكان مما مضيت تفاخر به كثيراً أنه لم يكن لى تأثير عليك ، وكان هذا
فى الواقع هو الشىء الوحيد الذى قام على أساس صحيح . فحق لو افترضنا
الأمر حقيقة فماذا كان فيك لأستطيع التأثير فيه ؟ أكان مخك ؟ لم يكن
قد نشأ . أم كان مخيلتك ؟ لقد كانت ميتة . أم كان قلبك ؟ لم يكن قد
ولد بعد . والواقع إنك كنت الشخص الوحيد من بين جميع الذين
التقيت بهم فى حياتى الذى لم أكن قادراً بأى طريقة على التأثير فيه فى أى
اتجاه . فعندما وقعت مريضاً وبت عاجزاً من أثر حمى جاءتنى عدواها
من قيامى برعايتك لم يكن لى من التأثير عليك ما يقنعك حتى بوجوب
إحضار كوب من اللبن أتناوله فى تلك الحالة ، أو بوجوب الالتفات إلى
ما يحتاج إليه المريض فى غرفته من ضروريات عادية ، أو بتكليف نفسك
عناء الانتقال ما لا يزيد عن مائتى ياردة لتحضر لى كتاباً على حسابى !
وعندما كنت مستغرقاً فى الكتابة ، أسطر من ألوان الملهاة ما يضرب
تألق « كونجريف » وفلسفة « توما الابن » ، وأى صفة للآخرين ،
كما أعتقد ، لم يكن لى شىء من التأثير عليك لأجعلك تتركنى فى هدوء ،
كما يجب أن يترك الفنان . وأينما كانت غرفة الكتابة الخاصة بى فقد
كانت دائماً لك متكأً عادياً : مكاناً تدخن فيه وتتناول النبيذ ، وتثرثر
حول السخيف من الأمور . وإذن فإن « تأثير الشاب فيمن هو أصغر
منه سناً » نظرية بديعة حقاً ، ولكنها تكون كذلك حتى تصل إلى مسامعى
وحينئذ تصبح شيئاً مضحكا . أما عندما تصل إلى أسماعك فأعتقد أنك
تبتسم — لنفسك طبعاً — فهذا ما خولت فعله بالتأكيد . إننى أسمع أيضاً
كثيراً مما تقوله عن النقود . فهى تذكر ، فى صدق تام ، أنها لم تتوقف
عن التوسل إلى كى لا أمدك بشىء من المال . وهذا ما أسلم به ، فالواقع

إن خطاياتها لم تكن تقف عند حد ، وكانت كلها تحمل نفس الحاشية :
« أرجو ألا تحمل الفرد يعلم أنى كتبت إليك » . وبالطبع لم يكن يسرنى أن يُفرض على دفع الحساب عنك فى كل شىء : من حلاقة الصباح حتى ركوب منتصف الليل . لقد كان شيئاً مضجراً فظيعاً ؛ وقد شكوت إليك منه مرة بعد أخرى ، ومضيت أخبرك ، كما تذكر ، كيف كنت أشمئز من اعتبارى شخصاً « نافعاً » ، وقد قلت لك أنه لا يوجد فنان يرغب فى ذلك أو يرضى بأن يعامل على أنه شخص نافع ؛ وذلك لأن الفنانين ، كالفن نفسه ، تنعدم منهم المنفعة . وكنت تشعر بالغضب كلما سمعت ذلك ؛ فقد كانت الحقيقة تغضبك دائماً . والواقع إن الحقيقة أشد ما يؤلم سماعه ، كما أنها أشد ما يؤلم قوله . غير أن ذلك لم يجعلك تغير من أسلوبك أو تتنازل عن أغراضك فى الحياة ؛ فقد كان علىّ كل يوم أن أتولى عنك الدفع لقاء كل شىء فعلته طوال اليوم . وهو أمر لم يكن يقبله إلا شخص بلغت طيبته حد السخف أو فاقت غباوته حد الوصف . وقد اجتمعت فىّ الصفتان لسوء الحظ . وكنت كلما اقترحت عليك أن تعتمد على والدتك فى الحصول على ما تريد من مال أسمع منك دائماً جواباً لطيفاً ظريفاً ، فقد كنت تقول إن ما خصصه لها والدك — وكان حوالى ١٥٠٠ جنيه فى العام ، كما أعتقد — لا يفى بمطالب سيدة فى مثل مركزها ، وأنك لذلك لا تريد أن تحصل منها على أكثر مما حصلت عليه من قبل . وكنت مصيباً تماماً حينما رأيت أن مثل ذلك المبلغ لا يكفى سيدة فى مثل مركزها وذوقها ، غير أنه لم يكن يجمل بك أن تتخذ من هذا ذريعة لتعيش فى ترف على حسابى . بل على العكس كان يجب عليك أن تجد فى ذلك وازعا لتقتصد فى معيشتك . وإنما الحقيقة أنك كنت عاطفياً نموذجياً ، بل وربما لا تزال كذلك ، كما افترض .

فالعاطفي هو ببساطة ذلك الذى يبتغى الحصول على نعيم العاطفة بغير أن يدفع الثمن ! لقد كان جميلا أن تفكر فى اقتصاد مال والدتك ، ولكن كان قبيحاً أن تجعل ذلك على حسابى . انك تعتقد أن المرء يستطيع أن يحصل على عواطفه بغير مقابل ؛ غير أنه لايستطيع. فحتى أرق العواطف وأبعدها فى التضحية بالذات يجب أن يكون لها ثمن . ومن الغريب أن هذا ما يجعلها جميلة ! إن حياة العاديين من الناس ، عقلية أو عاطفية ، مسألة حقيرة . فكما أنهم يستعيرون أفكارهم من نوع من مكتبة الفكر المتداول — من روح العصر الذى لا روح فيه — ثم يعيدونها ملوثة فى آخر الأسبوع ، كذلك يحاولون دائماً أن يحصلوا على عواطفهم على الحساب ثم يرفضون دفع القائمة حينما تأتى إليهم ! يجب أن تخرج من هذا التصور للحياة ، وحالما تستوجب على نفسك دفع ثمن العاطفة فإنك ستعرف نوعها ، وتصبح أجدر بمثل هذه المعرفة . ثم تذكر أن العاطفى يسر التهكم دائماً فى قرارة قلبه . والواقع أن العاطفية ليست إلا الإجازة الرسمية للسخرية . والسخرية ، وإن كانت سارة من الناحية العقلية — وهنا تترك القدر تحت رحمة الهراوة — إلا أنها لا تزيد عن الفلسفة الصحيحة لرجل مجرد من الروح(١٦٨). إن لها قيمتها الإجتماعية بلاشك ، وبالنسبة إلى الفنان فإن جميع حالات التعبير مهمة ؛ غير أنها مسألة حقيرة فى حد ذاتها ، وذلك لأن شيئاً ما لا يمكن أن يتكشف لمن يتخذها هزواً .

أعتقد أنك لو فكرت الآن فيما كان عليه موقفك تجاه إيراد والدتك ثم موقفك تجاه إيرادى فإنك لن تكون فخوراً بنفسك . فإذا لم تطلع والدتك على هذا الخطاب فقد تعمد يوما إلى شرح المسألة لها ، فتخبرها أن معيشتك على حسابى كانت مسألة لم يكن لرغبتى فيها أى

اعتبار من جانبك . لقد كان الأمر صورة غريبة تبدى فيها ولاؤك لى ، وكانت بالنسبة إلى شخصياً من أخطر الأمور . إن إعتمادك على فى الحصول على أصغر المبالغ وأكبرها جعلك تبدو فى نظر نفسك وقد اكتسبت كل سحر الطفولة ؛ وفى إصرارك على أن أدفع ثمن كل شىء من مسراتك كنت تعتقد أنك قد اكتشفت سر الشباب الخالد . والواقع أنى أشعر بالألم حينما أسمع بملاحظات والدتك عنى . وليس لدى شك فى أنك إذا تأملت فى الأمر ستوافقنى على أنه كان أولى بها أن تلتزم الصمت ، إذا لم يكن لديها كلمة أسف أو عبارة حزن على ماجرته أسرتك على من خراب . بالطبع ليس هناك ما يمنع من أن تطلعها على أى جزء من هذا الخطاب يشير إلى ما أسير فيه من تطور عقلى ، أو إلى أى نقطة تحوّل أرجو الوصول إليها . ربما لايبدو الخطاب مشوقاً لها ، ومع ذلك فلو كنت فى مكانك لوجب أن أطلعها على ماجاء فيه ، وبخاصة ما يتعلق بحياتك بالذات .

والواقع إننى لو كنت فى مكانك ماعنيت بأن يحبنى الغير على أساس من ادعاءات كاذبة . وحقاً إنه ليس هناك سبب يحمل الانسان على أن يطلع العالم على حياته ، إذ أن هذا العالم لا يفهم كل شىء ؛ غير أن الأمر يختلف مع أولئك الذين يبتغى المرء أن يحصل على محبتهم . لقد جاء صديق عظيم ليرانى قبل وقت قصير — وقد تصادقنا منـــذ عشر سنوات(١٦٩) — وقد أخبرنى أنه لا يصدق كلمة واحدة مما قيل ضدى ، وأنه يريد منى أن أطمئن إلى أنه يعتبرنى بريئاً وضحية لمؤامرة شنيعة دبرها والدك . فلم أتمالك أن انفجرت باكياً حينما سمعت قوله ، ثم أخبرته أنه ، وإن كان ما وجهه إلى والدك يحتوى على كثير من الأكاذيب وغير ذلك ممــا وجه إلى بدافع من حقده الثائر ، إلا أن حياتى فى الواقع

كانت مفعمة بالمسرات الشاذة والانفعالات الغريبة ، وأنه إذا لم يتقبل واقعى هـذا كحقيقة عنى ويدركه كاملا فقد لا أستطيـع أن أحتفظ بصداقته ، بل وربما لا أكون بعد فى صحبته . وبالطبع كان فى هذا صدمة له ، غير أننا لا نزال صديقين ، وقد عزفت بصداقتى معه عن أن تقوم على ادعاءات كاذبة . لقد قلت إن قول الحق مما يؤلم . وأقول إن قسر النفس على قول الـكذب أشد ألمـاً .

إننى أذكر ماذا كانت عليه حالتى ساعة أن جلست فى قفص الاتهام أثناء المحاكمة الأخيرة استمع إلى ما كان يتناولنى به «لوكوود Lochwood» من تشهير شنيع . لقد كان حينئذ كما لو كان يقرأ شيئاً من «تاسيتوس» أو عبارة من « دانتى » ، أو بعض الاتهامات التى وجهها « سافونا رولا »(*) إلى بابوات روما . وقد أصابنى الرعب ممـا كنت أسمع . وفجأة خطرت ببالى هذه الفـكرة « فـكم كان بديعاً لو كنت أنا الذى قال ذلك كله عن نفسى ! » . لقد رأيت حينئذ فى التو أن ما يقال عن المرء ليس بشىء ، إذ أن النقطة هى : مَن الذى يقوله ؟ وما من شك فى أن اللحظة العظيمة فى حياة الانسان تـكون حينما يركع على التراب ويضرب صدره ثم يتحدث بجميع خطايا حياته . وكذلك يكون الأمر معك . لقد كان فى وسعك أن تشعر بمزيد من السعادة لو أخبرت والدتك أنت نفسك بشىء قليل عن حياتك كيفما كان . لقد أخبرتها أنا بالـكثير عنها فى ديسمبر ١٨٩٣ ؛ غير أننى أقسرت بالطبع على التزام الصمت والدخول فى العموميات . ولم يلمح أن ما فعلته جعلها تشعر بشىء

(*) تاسيتوس Tacitus مؤرخ رومانى عاش فى القرن الأول بعد الميلاد . أما سافونا رولا Savonarola فهو إيطالى من رجال الدين عاش فى القرن الخامس عشر وأحرق حياً لاتهامه بالزندقة . « المترجم »

من الشجاعة فى علاقاتها معك . بل على العكس . فقد تحاشت النظر إلى الحقيقة فى إصرار أشد . ولو كنت أنت نفسك أخبرتها لكان الأمر يختلف . إن كلماتى ربما جاءتك فى الغالب أكثر مرارة . غير أنك لا تستطيع إنكار الحقائق . فالأشياء كانت كما قلت أنها كانت ، وإذا قرأت هذا الخطاب بما يستحق من عناية فلا شك أنك ستلتقى بنفسك وجها لوجه .

لقد كتبت إليك الآن ، وكتبت فى إسهاب ، لكى تدرك ماذا كنتَ لى قبل أن أسجن ، أثناء تلك السنوات الثلاث من صداقة مشئومة ، ثم ماذا كنت لى أثناء مدة سجنى ، ولم يبق إلا شهران تقريباً على نهايتها. ثم ما أرجو أن أكونه لنفسى وللآخرين بعد أن أخرج من السجن . إننى لا أستطيع أن أعيد إنشاء خطابى أو أكتبه من جديد ، فيجب أن تقبله كما هو : مطموساً بالدموع فى مواضع كثيرة ، وبعلامات الانفعال والألم فى مواضع أخرى . ويجب أن تجعل منه أحسن ماتستطيع فعله فيما يتعلق بالمواضع المطموسة والتصحيحات وكل شىء . أما عن التصحيحات فقد قمت بها لتكون كلماتى تعبيراً صرفاً عن آرائى ، ولكى لا يكون هناك خطأ من زيادة أو نقصان . إن اللغة يجب أن تضبط ، كما يحدث فى ضبط « الكمان » فكما أن قدراً يزيد أو ينقص فى ذبذبات صوت المغنى أو فى اهتزازات وتر الآلة يجعل النغم يخرج فى غير أصالة ، كذلك يفسد الرسالة قدر من الكلمات أكثر أو أقل مما ينبغى . على كل حال إن خطابى فى وضعه الراهن يحتوى على معنى محدود وراء كل جملة . وهو لا يتضمن شيئاً من البلاغة . وحيثما وجد كشط أو إبدال مهما كان طفيفاً أو محكما ، فإن ذلك لأننى أردت أن أترجم ما لدى من انطباع صادق ، وأن أجد المعادل الصحيح لكل ما ينتابنى من أحوال .

كل شيء يأتى أولا فى الشعور يأتى أخيراً فى الصورة .

إنى أسلم بأنه خطاب قاس ، وإنى لم أبق عليك . والواقع أنك تستطيع أن تقول إنى ، بعد التسليم بأنك لو وُزنت بأقل أحزانى وأحقر خسائرى لن يكون فى ذلك إنصاف لك ، قد فعلت ذلك حقيقة ؛ وقد صنعت ، وزنةً بعد وزنة ، أدق تجربة من طبيعتك . هذا حق . وإنما يجب أن تذكر أنك وضعت نفسك فى الميزان .

يجب أن تذكر أنه إذا خفت كفتك عن لحظة واحدة مما قاسيته فى السجن فإن ذلك يرجع إلى غرورك ، فهذا الغرور هو الذى جعلك تختار الميزان وتتعلق به . كان فى صداقتنا خطأ سيكولوجى كبير ، وهو افتقارها إلى التناسب . فقد فرضت طريقك بالقوة إلى حياة أوسع كثيراً لمن هو مثلك : حياة زاد فلكها عن قوتك فى الرؤية ، كما زاد عن قوتك فى الحركة الدائرة ؛ وكانت أفكارها وانفعالاتها وأعمالها ذات مضمون عظيم وفائدة كبيرة ، وقد مُلئت ، إلى حد بعيد فى الواقع ، بنتائج عجيبة أو مريعة . أما حياتك الصغيرة بما فيها من نزوات صغيرة وحالات محدودة فقد كانت بديعة فى دائرتها الذاتية الصغيرة : كانت بديعة فى اكسفورد ، حيث كان أسوأ ما يمكن أن يحدث لك توبيخ من العميد أو تعنيف من الرئيس ؛ وأقوى ما يثيرك أن تصبح « مجدالن » وقد تفوقت فى السباق النهرى ، أو تُشعل أضواء الزينة فى الميادين احتفالا بعيد أغسطس . وكان يجب أن تستمر حياتك فى دائرتها بعد أن تركت اكسفورد . فقد كنت فى ذاتك كما يجب : كنت مثالا كاملا لنوع من الحياة العصرية إلى آخر حد . وإنما يبدو الخطأ فيك ببساطة حينما يشار إلىّ . لم يكن أسرافك فى طيش جريمة . فالشباب مسرف دائماً . وإنما كان إقسارك لى على أن أتحمل نتائج

إسرافك ليس بالجميل . وكان ساحراً أن تبتغى صديقاً تمضى معه اليوم من صباحه إلى مسائه ، بل إن هذا كان يدل على نزعة شاعرية . غير أن الصديق الذى كان يجب أن ترابط حوله لم يكن يصح أن يكون أديباً ، ولا فناناً ، ولا واحداً كانت ملازمتك المستمرة له مدمرة لأعماله الجميلة بقدر ما كانت مشلّة لقوته الخلاقة . ولم يكن هناك ضرر فى أن تقدّر جاداً أن أمثل الطرق لقضاء أمسية كان تناول عشاء مع شمبانيا فى مطعم « سافوى » ، واتباع ذلك بالجلوس فى « لوج » بصالة موسيقى ، ثم تناول وجبة أخرى من الطعام والشمبانيا فى مطعم «ويليس» فى منتصف الليل ، لاختتام الليلة بـ « لقمة حلوة » . فهذا ما يراه عدد كبير من الشباب المرح فى لندن ، وهو بعد طريق التأهل لعضوية « نادى هوايت » ، وليس فيه ، بالطبع ، شىء من الشذوذ . غير أنه لم يكن لك الحق فى أن تفرض على أن أكون ممولك الخاص لكل ذلك . وإنما دل الأمر على أنك كنت عاجزاً عن تقدير عبقريتى . أما نزاعك مع أبيك ، مرة أخرى ، فمهما فكر المرء فى طبيعته يرى ظاهرياً أنه كان يجب أن يبقى بينك وبينه ، وكان يجب أن يحدث بعيداً عن الأنظار . فالواقع أن هذا النوع من النزاع يوجد كثيراً . وإنما كان خطؤك أن أصررت على أن تجعل منه قطعة جمعت بين المأساة والملهاة ومثلت على مسرح مرتفع فى التاريخ ، ليراها العالم كله ، وكنت أنا فيها جائزة المنتصر فى المباراة الخسيسة . أما أن يكون أبوك قد اشمأز منك ، وأن تكون أنت بالمثل قد اشمأززت منه ، فإن هـــذا الأمر لم يكن يثير اهتمام الجمهور الإنجليزى فى كثير ولا قليل ؛ فمثل هذا الشعور يوجد بكثرة فى الحياة العائلية الإنجليزية ، وحينما يوجد منه شىء فيجب أن يحصر فى المكان الذى يقوم فيه ، وهو المنزل . فإذا تعدى دائرة المنزل فإنه يكون قد خرج

تماماً عن مكانه . وتناقل مثل هذا النزاع إساءة ؛ فحياة العائلة يجب ألا تعالج كما لو كانت راية حمراء يلوح بها فى الطريق ، أو بوقاً ينفخ فيه من فوق السطح . ولكنك خرجت بالحياة العائلية عن دائرتها المناسبة ، كما خرجت بنفسك عن دائرتك المناسبة .

وأولئك الذين يخرجون عن دائرتهم المناسبة إنما يغيرون محيطهم فقط ؛ فهم لا يغيرون طباعهم . وهم لا يحصلون على الأفكار والانفعالات المناسبة للدائرة التى دخلوا إليها . وليس فى مقدورهم أن يفعلوا ذلك . وكما قلت فى موضع ما من « المقاصد » ، فإن القوى العاطفية ، كقوى الطاقة الفيزيقية[١٧١] ، محدودة فى الامتداد والدوام . فالقدح الصغير الذى صنع ليتسع لقدر معين من شىء ما لا يتسع إلا لذلك القدر ، حتى وإن كانت جميع الدنان الحمراء فى « بورجونديا » قد ملئت بالنبيذ إلى الحافة ، وكان الدوّاسون واقفين إلى الرُّكب فى الأعناب المجموعة من مزارع الكروم الحجرية فى اسبانيا . ليس هناك من الأخطاء ما هو أكثر شيوعا من الاعتقاد بأن أولئك الذين هم السبب فى المآسى الكبيرة ، أو المناسبات التى خلقتها ، يشاركون فى الشعور الملائم لحالة المأساة . وليس هناك خطأ أشد خطورة من توقع ذلك منهم . إن الشهيد فى « قميص اللهب »[١٧٢] الذى يرتديه ربما ظهر على وجه الله ؛ غير أن ذلك الذى يكوم الأحطاب أو يلقى بالكتل فى النار لا يرى فى المنظر كله أكثر مما يراه جزار فى ذبح ثور ، أو فحام فى إسقاط شجرة فى الغابة ، أو حصّاد فى سقوط زهرة بينما يكون ماضياً فى جز الأعشاب بمنجله . إن الانفعالات العظيمة للنفس العظيمة ، كما أن الأحداث العظيمة لا ترى إلا من جانب أولئك الذين يكونون على مستواها .

لست أعلم فى كل أنواع الدراما شيئاً أكثر فى انقطاع نظيره من

وجهة نظر الفن ، أو أقوى إيحاء بدهائه فى الملاحظة ، من الصورة التى أخرجها « شكسبير » لكل من « روزنكرانتس Rosencrants » و « جلدنشترن Guildenstern » ، وهما صديقا « هملت » فى الكلية . لقد كانا رفيقيه ؛ وكانا يحملان معهما ذكريات من أيامهما الحلوة معه . وفى اللحظة التى يواجهانه فيها فى الرواية يكون مضطرب الجوانح من ثقل عبء لا يحتمله من هو فى طبيعته . فقد خرج « الميت » من القبر مدججاً بالسلاح ليفرض عليه رسالة بالغة العظمة من جانب وبالغة الانحطاط بالنسبة إليه من جانب آخر . انه يعيش فى عالم الأحلام ، ولكن هاهو يدعى ليعيش فى عالم العمل . وإن له طبيعة الشاعر ، ولكنه يسأل ليدخل فى صراع مع التعقيدات العامة للسبب والنتيجة فى الحياة ، لا فى جوهرها المثالى ، وهو ما يعرف عنه الكثير ، بل فى واقعها العملى ، وهو مالا يعرف عنه شيئاً . لم يكن لديه رأى فيما يجب فعله ، وكان جنونه تصنعا للجنون . لقد اتخذ « بروتس » من الجنون رداءً ليخفى السيف الذى أعده لغرضه : الخنجر الذى عبر عن إرادته[١٧٣] ؛ غير أن الجنون بالنسبة إلى « هملت » كان مجرد قناع لإخفاء الضعف . فهو يرى فى ابداء سمات التقطيب تارة واشارات المزاح أخرى فرصة للتأخير ، وهو يستمر على اللعب بالعمل ، كما يلعب الفنان بإحدى النظريات ، وهو يجعل من نفسه جاسوساً على أعماله الخاصة . وإذ يستمع إلى نفس كلماته يعلم أنها مجرد « كلمات ، كلمات ، كلمات» . وبدلا من أن يحاول أن يجعل من نفسه بطلا لتاريخه يكتفى بأن يكون مشاهداً لمأساته . إنه لايعتقد فى أى شىء بما فى ذلك هو نفسه ، ومع ذلك فإن شكه لايساعده ، فهو لم يأت من تشككه بل جاء من إرادته المنقسمة . ومن هذا كله لايدرك شيئاً كلٌّ من «جلدنشترن» و «روزنكرانتس» ، فهما

ينحنيان ، ويتكلفان الابتسام ، ويبتسمان ، وما يقوله أحدهما يردده الآخر فى تكرار ممل . وعندما يتأتى لهملت فى النهاية ، عن طريق تمثيل رواية فى الرواية ، والمرائس الصغيرة التى مضت تعبث فى ملك الرواية ، أن « يقبض على ضمير الملك » ، ويدفع بالرجل المسكين إلى الفزع من عرشه ، لا يرى « جلد نشترن » و « روزنكرانتس » فى سلوكه أكثر من خروج طفيف عن « انيكيت » البلاط كل ما يسببه هو بعض الامتعاض . وذلك بمقدار ما يستطيعان أن يبلغا فى « تأمل مشهد الحياة بعواطف مناسبة »(١٧٤) . انهما قريبان من صميم سره ، ولكنهما لا يعرفان عنه شيئاً ولم يكن هناك فائدة من إخبارهما . إنهما الأقداح الصغيرة التى تتسع لقدر معين ، ولا أكثر من ذلك . وفى مقترب الختام يوحى الأمر بأنهما ، وقد وقعا فى شرك ماكر نصب لغيرهما ، قد لقيا ، أو ربما يلقيان ، موتا عنيفا مفاجئاً . غير أن مثل هذه النهاية الحزينة ، وان كانت قد مست بشىء من الدهشة والغرابة جاء من مزاج هملت ، ليست فى الحقيقة لمثل هذين فهما لن يموتا قط . أما « هوراشيو Horatio » الذى ، لكى « يدلى بخبر هملت وقضيته بالضبط إلى غير المقتنعين » ،

يغيّبه من الغبطة فترة

وفى هذا العالم الخشن يسحب أنفاسه فى ألم

فإنه يموت ، وإن لم يمت أمام نظارة ، ويموت بغير أن يترك أخاً . غير أن « جلدنشترن » و « روزنكرانتس » يكتب لهما الخلود ، كما كتب لـ « انجلو » و « تارتوف » ، وهما يرتفعان إلى صفهما . إنهما ما ساهمت به الحياة الحديثة من صداقة المثال القديم . فإذا كان هناك من يكتب صورة جديدة من « دى أمتشيتا De Amicitia » فيجب أن

يحتفظ لهما بمكان لائق ، وأن يثنى عليهما فى نثر من النوع « التوسكولانى »* . انهما من النماذج التى ثبتت لكل عصر ، ولذلك فإن توبيخهما يدل على نقص فى التقدير . فهما خارج دائرتهما فقط . وهذا كل ما هناك . ليس ثمة عدوى فى سمو النفس ، فالأفكار السامية والعواطف السامية منعزلة فى صميم وجودها . وما لم تستطع « أوفيليا Ophilia » هى نفسها أن تفهمه لم يكن يستطيع أن يدركه « جلدنشترن وروزنكرانتس الرقيق » ولا أن يدركه « روزنكرانتس وجلدنشترن الرقيق » . بالطبع لم أقصد بذلك عمل مقارنة . فهناك فرق كبير بينكما إذ بينما كان الأمر معهما فرصة كان معك اختيارا . فقد أقحمت نفسك فى دائرتى متعمداً ، وبغير دعوة ، لتغتصب مكاناً لم يكن لك حق فيه ولا مؤهلات له . فإذا ما استطعت أن تنجح فى ابتلاع حياتى بعثابرتك العجيبة ووجودك الدائم ، وقد أصبح جزءا من كل يوم ، لم تستطع أن تفعل بها أكثر من تحطيمها شذرا . ومن الغريب ، كما قد يقع فى روعك ، انك لم تفعل إلا ما كان طبيعياً أن تفعله . فحينما يعطى الطفل لعبة يفوق العجب فيها تفكيره القاصر ، أو يزيد الجمال فيها عن نظره المحدود ، يعمد إلى تحطيمها إذا كان عنيدا ، أو يتركها تفلت من يده إذا كان بليدا ، ليعود إلى رفاقه فيلهو معهم . وكان الأمر كذلك معك ، فبعد أن أحكمت قبضتك على حياتى لم تعرف ماذا تفعل بها ، فلم تكن علمت شيئاً ، وكان غريباً أن تراها فى قبضتك . وكان يجب أن تتركها تنساب من بين يديك وتعود إلى رفاقك فى لعبهم ، غير أنك كنت عنيداً

(*) Tusculan ، نسبة إلى Tusculum ، وهو مكان فى إيطاليا القديمة يعرف اليوم باسم فراسكاتى Frascati ، وفيه كتب شيشرون قطعه المعروفة بذلك الإسم. « المترجم »

لسوء الحظ ، فأقدمت على تحطيمها . ربما كان هذا هو السر النهائي لكل ذلك الذي حدث ، حينما يكون كل شيء قد قيل . فالأسرار أصغر دائماً مما نكون حينما يكشف عنها . وربما أدى نقل ذرة من مكانها إلى حدوث اهتزاز عالم بأكمله . ولكن ، لكي لا أكون أبقيت على نفسي أكثر مما أبقيت عليك ، فإني أضيف هذه النقطة . ان التقائي بك كما كان خطرا بالنسبة إلى قد تحول إلى هذه الخطورة بفعل نفس اللحظة التي التقينا فيها . فقد كنت حينئذ في ذات اللحظة من حياتك حيث كان كل ما يستطيع المرء فعله أن يضع البذرة ، لا أكثر ، وكنت أنا حينئذ في ذات اللحظة من حياتي حيث كان كل ما يستطيع المرء فعله أن يجنى الثمرة ، لا أقل .

هناك قليل غير ما أشرت إليه يجب أن أكتب إليك حوله . وأول هذه الأمور يدور حول إفلاسي . فقد سمعت قبل أيام ، وأقول ذلك في كثير من الخيبة ، سمعت أن موعد الدفع من جانب عائلتك إلى أبيك قد انتهى . ومعنى هذا أنه لم يعد ممكناً من الناحية القانونية . وعليه فيجب أن أبقى وقتاً طويلا في وضعي المؤلم الراهن . وهذا قاس بالنسبة إليّ ، وذلك لأنني تأكدت من جانب جهات قانونية من أنني لا أستطيع حتى أن أطبع كتابا بغير تصريح من المستلم الذي يجب أن تدفع إليه جميع المبالغ . كذلك لا أستطيع أن أدخل في تعاقد مع مدير مسرح ، أو أخرج تمثيلية ، بغير أن تكون الايصالات قدمت إلى أبيك وإلى غيره من الدائنين . أعتقد أنه حتى أنت نفسك لايسعك الآن إلا أن تسلم بأن مشروع « كسب نقاط » من أبيك بمجرد تركه يعمل على إشهار إفلاسي لم يكن في الواقع ذلك النجاح المتألق من كل جانب ، كما تصورته ! لم يكن كذلك في نظري على كل حال . وإنما كان يجب أن تفكر فيما

سيحدث لي من ألم ومذلة حينما أصبح هكذا فقيراً ، وذلك بدلا من اعتمادك على حواس مزاجك مهما كانت حادة أو غير متوقعة ! ومن وجهة نظر الواقع فإنك بالسماح بإشهار إفلاسي ، كما فعلت في حتى على رفع القضية الأساسية ، كنت في الواقع ألعوبة سهلة في يد والدك ، وكنت تفعل تماما ما يريده . وأعتقد أنه لو كان وحده ، ولم يحصل على مساعدة ، لشعر من البدء بعجزه . ومع أنك لم تقصد القيام بمثل تلك الوظيفة الفظيعة ، كما أدرك ، إلا أنه وجد فيك دائماً أكبر حليف .

لقد أخبرني « مور أدي » في خطابه أنك قلت له في الصيف الماضي أكثر من مرة أنك ترغب صادقا في تعويضي عن « قليل مما أنفقته » عليك . وكما قلت له في إجابتي فإنني ، لسوء الحظ ، قد أنفقت عليك فني ، وحياتي ، واسمي ، ومكاني في التاريخ ! ولو أن عائلتك أوتيت جميع الأشياء العجيبة في العالم وكان لها حق التصرف فيها ، لو كان في حوزتها جميع ما يوجد في هذا العالم من عبقرية ، وجمال ، وغنى ، ومركز عالٍ ، وما يشبه ذلك ، ووضعت كل هذه الأشياء تحت قدمي لما أدى ذلك إلى تعويضي عن جزء من أصغر شيء أخذ مني ، بل ولما استطاع أن يمحو أثر دمعة من الكثير الذي ذرفته . على كل حال ، كل شيء يفعله المرء يجب أن يدفع ثمنه ، بالطبع . فحتى مع المفلس يكون الأمر هكذا . وإنما يبدو أن ما انطبع في نفسك عن الإفلاس أنه وسيلة مريحة يستطيع بها المرء أن يتحاشى دفع ديونه ... « كسب نقاط من الدائن » في الحقيقة ! غير أن الأمر على العكس تماماً . فبهذه الطريقة نفسها يستطيع الدائن أن « يكسب نقاطا » من مدينه ، إذا كان لنا أن نساير جملتك المحبوبة ! إنها الطريقة التي بها يتولى القانون إخضاع المدين بالاستيلاء على ممتلكاته ، لدفع كل شيء من ديونه . فإذا رآه عاجزاً

عن ذلك تركه مفلساً ، كذلك السائل المحترف الذى يقف فى منحنى طريق أو يزحف بجانب جدار باسطا يده لقبول الإحسان ، وإن لم يطلبه بلسانه ، كما هو الحال فى انجلترا على الأقل .

لقد أخذ منى القانون كل شىء ... أخذ ما كان لدى من أثاث ، وصور ، وكتب ، بل وحصل حتى على حقوق الطبع عن أعمالى المنشورة وتمثيلياتى ، وهكذا حصل على كل شىء فى الواقع ... من « الأمير السعيد » و « مروحة لادى وندرمير » حتى أبسطة درج النزل ومنافض الأحذية أمام الأبواب . ومع ذلك فلم يكتف بكل ذلك ، بل أصر على أخذ كل ما يمكن أن أحصل عليه مستقبلا . فقد حدث على سبيل المثل أن بيعت الفائدة التى تخصنى فى تسويات زواجى . غير انى لحسن الحظ استطعت أن أستردها بواسطة أصدقاء اشتروها لحسابى، وهكذا استطعت أن أتدارك مستقبل ولدىّ ، إذ لو حدث أن ماتت زوجتى لعاشا فى فقر مدقع طالما كنت على قيد الحياة ، كما هو حالى الآن . وهكذا الفائدة التى تخصنى فى عقارنا فى إيرلندا ، وقد أوقفت على بواسطة والدى . فهى كما أرى ستلقى نفس المصير . والواقع إنى أشعر بمرارة حينما أتصور أنها بيعت . ولكن لا حيلة لى فى ذلك .

إن لوالدك سبعمائة من البنسات — أم تراها من الجنيهات ؟ هذا المبلغ يقف الآن فى الطريق . فهو يجب أن يسدد . حتى حينما أكون جردت من كل شىء فإن علىّ أن أسدده . ويجب أن يكون على ذلك دائماً ، حتى إذا ما حصلت على مخالصة ، كمفلس ميئوس من حالته !

إن وجبات الغداء الشهية ، بما كان فيها من حساء الترسة الصافى ، والعصافير الصغيرة اللذيذة ، التى كان يؤتى بها من « سيشلى » مغلفة بأوراق الكروم المجمدة ، وذلك النوع من « الشمبانيا » الذى كان

فى لون الـكهرمان الداكن ، بل وحتى مذاقه كان فى الواقع معطراً برائحة الـكهرمان — أعتقـد أن نبيذك المفضل كان « داجونيه ـ ١٨٨٠ » — كل ذلك لا تزال أثمانه فى انتظار التسديد !

كذلك وجبات العشاء فى مطعم « ويليس » ، بما كان فيها من عصير العنب الخاص الذى كان دائماً يحفظ لنا خصيصا ، والفطائر المدهشة التى كان يؤتى بها للتو من « ستراسبورج » ، و « الشمبانيا » الفاخرة التى كانت تقدم لنا دائماً فى أقداح كبيرة فى شكل الناقوس ، لتـكون الفكهة أشهى مذاقا فى فم المتشهى الصادق لما كان حقا شيئاً نفيسا فى الحياة — هذه الأشياء لا يمكن أن تترك بغير دفع أثمانها ، باعتبار أن الأمر ديون ميتة فى ذمة عميل غشاش ! بل حتى زرار القميص ، وهى أربع قطع فى شكل القلب من فضة رصعت بالياقوت والمـاس ، وقد صممتها بنفسى وقام « هنرى لويس » بصياغتها لأقدمها إليك كهدية صغيرة بمناسبة نجاح ملهاتى الثانية — حتى تلك القطع التى أعتقد أنك بعتها لقاء أغنية بعد حصولك عليها بشهور قليلة ، يجب أن أدفع ثمنها ، إذ أننى لا أستطيع أن آكل حق الجواهرجى بسبب هدايا قدمتها إليك، وليس يهم ماذا فعلت بها . وعليه ، فحتى لو حصلت على مخالصة فإنك ترى أنه لا يزال على أن أسدد ديونى .

ثم إن ماهو صحيح بالنسبة إلى المفلس صحيح بالنسبة إلى أى واحد آخر فى الحياة . فكل شىء يحدث لا بد من أن يؤدى شخص ما ثمنه . فحتى أنت نفسك — بالرغم من كل مافيك من رغبة فى التحرر المطلق من كل الواجبات وإصرار على الحصول على كل شىء بغير مقابل ، وتصميم على رفض كل مطالبة بإبداء المودة والاعتبار والامتنان — حتى أنت سترى نفسك يوماً مضطراً إلى التفكير جديا فيما فعلت ؛ وتحاول ، مهما كان الأمر صعبا ، أن

تقوم بأى شىء للتكفير عما فعلت . وحينما ترى أنك غير قادر على القيام عمليا بشىء سيكون هذا جزءا من عقابك . انك لن تستطيع أن تغسل يديك من جميع المسئوليات ثم تمضى ، فى هزة كتف أو ابتسامة ، فى طلب صديق جديد ، أو تخطو إلى وليمة أعدت فى الحال . ولن تستطيع أن تعالج كل ذلك الذى جلبته على كما لو كان ذكرى عاطفية تقـــدم فى المناسبات مع السجاير وأقداح الشراب ، وهو منظر فى حياة السرور الحديثة لايقل بهاء عن منظر طنفسة قديمة علقت فى بهو نزل عام . فربما جاء هذا فى لحظته بسحر لا يقل عما يتأتى فى صبغ(*) جديد ، أو فى قطاف كروم يبشر بالمحصول ؛ غير أن نهاية الوليمة سرعان ما تصبح قديمة ، كما أن رواسب القارورة مرة دائماً . فسترى نفسك اليوم ، أو غداً ، أو يوما ما ، مجمولا على إدارك الأمر . وإلا فربما مت بغير أن تفعل . فيالها حينئذ من حياة منحطة ، جوفاء ، مجردة من التخيل، تلك التى تـكون عشتها ! لقد أبديت فى خطابى إلى « مور » وجهة نظر كان أجدر بك أن تأخذ بها للاقتراب من الموضوع بأسرع ما تستطيع . وسيخبرك ما هى . ولـكن لـكى تستطيع أن تفهمها يجب أن تثقف مخيلتك تذكر أن المخيلة هى القوة التى تعين المرء على أن يرى الأشياء والأشخاص فى علاقاتها الواقعية والمثالية . فاذا لم تستطع أن تدرك ذلك بنفسك فتحدث فى الموضوع إلى آخرين . لقد نظرتُ إلى ماضىّ وجها لوجه . فانظر كذلك إلى ماضيك وجها لوجه . اجلس فى سكون ثم فـكر فى الأمر . فان الضحالة أعظم الرذائل ، ومهما كان ما أدرك فهو

(*) الـكلمة هنا ترجمة لـكلمة Souce ، بمعنى « الصلصة » بالعامية .
« المترجم »

صحيح . تحدث إلى أخيك عن الأمر ، فالواقع إن « برسى » هو الشخص المناسب لتتحدث إليه . دعه يقرأ هذا الخطاب ، ويعلم بكل ظروف صداقتنا . فعندما تتضح له كل الأمور لن يكون هناك أصدق منه فى إصدار الحكم . ولو كنا أخبرناه بالحقيقة من البدء لكان من الممكن تجنب الكثير مما لقيته من آلام وفضائح . انك تذكر انى اقترحت ذلك فى الليلة التى وصلتَ فيها إلى لندن قادما من الجزائر . ولكنك رفضت بتاتا . فلما جاء إلينا بعد الغداء لم يكن أمامنا إلا أن نمثل تلك المهزلة التى صورنا فيها أباك رجلا معتوها تنتابه وساوس سخيفة لا حد لها . لقد كانت مهزلة عظيمة طالما كانت باقية . ولم يكن لها إلا أن تكون بعد أن أخذها « برسى » على محمل الجد . ولكن منَ سوء الحظ أن نهايتها جاءت فى أسلوب من الفتنة الشديدة . وهذا الموضوع الذى أعالجه الآن من بعض نتائجها . فإذا كان هذا الأمر يسبب لك متاعب فأرجو ألا تنسى أنه أعمق بواعث إذلالى ، وانه لم يكن لى مناص من المضى فيه . فأنا لا أملك حق الخيار ، وكذلك لا تملك أنت .

والشيء الثانى الذى أريد أن أتحدث إليك عنه هو فيما يتعلق بالأحوال والظروف والمكان الذى يمكن أن نلتقى فيه بعد خروجى من السجن . لقد علمت من بعض خلاصات الخطابات التى كتبتَها إلى « روبى » فى أوائل صيف العام الماضى انك قد جمعت ما بعثت به إليك من خطابات وهدايا — أو ما بقى منها على الأقل — فى طردين أغلقتهما وانك مهتم بتسليمها إلى يداً بيد . ومن الضرورى ، بالطبع ، أن تماد إلى هذه الأشياء . فقد عجزت عن أن تفهم لم كتبت إليك خطابات جميلة ، ولم أرسلت إليك هدايا جميلة . وقد فشلت فى أن ترى أن الأولى

لم يقصد بها أن تنشر ، وأن الثانية لم يقصد بها أن ترهن . فضلا عن ذلك فان تلك الأشياء تتصل بجانب من الحياة قد انتهى منذ أمد طويل ؛ وهى تتعلق بصداقة لم تستطع بكيفية ما أن تقدرها حق قدرها . يجب أن تعود بتفكيرك فى دهشة إلى تلك الأيام حيث كانت حياتى كلها فى يديك ! إن هذا ما أفعله الآن أنا نفسى ، وان كنت أفعله لا فى دهشة وحسب بل فى شعور آخر : فى عواطف تختلف .

سيطلق سراحى فى أواخر مايو ، إذا سارت الأمور كما ينبغى . وحينئذ سأذهب فى الحال إلى الخارج ، حيث أحل ببعض القرى الصغيرة على ساحل البحر ، وسيكون معى « روبى » و « مور أدى » . إن البحر ، كما يقول « يوريبيدس Euripides » فى إحدى تمثيلياته عن « إيفيچنيا Iphigenia » ، يغسل لطخ الحياة ويداوى جراح النفس(١٧٥) فأرجو أن أقضى شهرا على الأقل مع أصدقائى ، وأن أستعيد فى صحبتهم المنعشة بما فيها من مودة هدوئى واتزانى ، وأن أخفف من آلام قلبى وأصبح فى حالة أكثر تناغماً . انى أشعر بشوق غريب إلى الأشياء الفطرية البسيطة العظيمة ، كالبحر ، الذى هو بالنسبة إلى بمثابة الأم ، كما هى الأرض . وإنما يبدو لى أننا ننظر إلى الطبيعة أكثر من اللازم ونعيش معها أقل مما يجب . انى أرى قدراً كبيراً من الحصافة فى موقف الإغريق . فهم لم يثرثروا قط حول جمال غروب الشمس ، ولم يبحثوا ما إذا كانت الظلال التى تقع على الأعشاب حقاً بنفسجية اللون أم ليست كذلك . بل رأوا أن البحر قد وجد للسبّاح ، وأن الرمال قد وجدت لقدمى ممارس الجرى . وقد أحبوا الأشجار لما تلقيه من ظلال ، كما أحبوا الغابة لما فيها من سكون وقت الظهيرة . وقد عمد فلاحهم فى مزرعة الكروم إلى جدل شعره بنبات اللبلاب ليحمى نفسه من أشعة

الشمس بينما كان منحياً فوق الأغصان الصغيرة . أما الفنان والصارع ، وهما النوعان اللذان توارثناهما عنهم ، فقد كانا يجدلان فى ضفائر أوراق الغار المر والقدونس البرى ، ولم يكن لهذين أى نفع آخر فى أغراض الانسان .

- اننا ندعو أنفسنا جيلا منفعياً ، ومع ذلك فاننا لا ندرى كيف ننتفع بشىء واحد ! لقد نسينا أن المـاء يمكن أن ينـقّى ، وأن النار يمكن أن تطهّـر ، وأن الأرض هى أمنا جميعاً . وكنتيجة لذلك فقد بقى فننا يستمد من القمر ، ويتلاعب بالظلال ، بينما كان فن الإغريق يستمد رأساً من الشمس ، ويتعامل مع الأشياء ! انى أشعر أكيداً بأنه يوجد تطهير فى القوى الجوهرية ! ولذلك فانى أريد أن أعود إلى تلك القوى لأعيش فى وجودها . بالطبع بالنسبة إلى شخص عصرى مثلى ، أعنى طفل جيلى فان مجرد النظر إلى الدنيا سيكون دائماً محبوباً . والواقع أن جوانحى لتهتز سروراً حينما أذكر أنه فى نفس اليوم الذى سأغادر فيه السجن ستـكون الزهور الصفراء والحمراء ماضية فى تفتحها فى الحدائق ، وانى سأرى الرياح تهز فى جمال لا يتوقف ما فى الواحدة من ذهب يتأرجح ، وتجعل الثانية تقذف بما فى رياشها من أرجوان شاحب ، فيـكون فى هذا كله جوّ لا يقل جماله بالنسبة إلى عما كان فى « الحدائق المعلقة » ! لقد خر « لينيوس Linneaus » على ركبتيه وبكى من شدة الفرح حينما رأى للمرة الأولى مرجاً طويلا فى بعض النجاد الإنجليزية وقد كسته صفرة بفعل الزهور العطرية الصفراء لشجيرة الرتم العادية . وإنى أعلم أنه فيما يتعلق بى ، وقد كانت الزهور دائماً جزءاً من رغبتى ، فان هناك دموعاً فى انتظارى فى أوراق بعض الورود . لقد كان الأمر دائماً معى هكذا منذ طفولتى . فليس هناك لون ما اختفى فى كأس زهرة ، ولا

شىء مّا فى منحنيات صدفة ، لا تستجيب له طبيعتى بفعل التعاطف الخفى مع روح الأشياء فى جوهرها . وكما كان « جوتيه Gautier »(*) ، كنت واحداً من أولئك الذين وجد العالم المنظور من أجلهم[١٧٦] .

بل إن هناك ما هو أكثر . فالواقع اننى أشعر الآن بأن من وراء كل هذا الجمال ، وإن كان فيه كل الرضا ، روحا تختفى ليست كل هذه الصور والأشكال فى تلونها إلا مظاهر منها . وقد أصبحت راغباً فى أن أكون فى توافق مع تلك الروح ؛ فقد وصلت إلى حالة الملل من التفوهات المعقدة من الناس والأشياء . إن الشىء المبهم فى الحياة ... الشىء المبهم فى الطبيعة ، هو ما أبحث عنه . وربما وجدته فى «سيمفونيات» الموسيقى العظيمة ، أو فى أوليات الحزن ، أو فى أعماق البحر . وإنما المهم جدا أن أجده فى أى مكان .

كل المحاكمات محاكمات لحياة الإنسان ، وكل الأحكام أحكام لموته . وقد حوكمت ثلاث مرات . وفى المرة الأولى تركت القفص ليقبض على ثانية : وفى المرة الثانية أخذت إلى المعتقل ، وفى الثالثة أرسلت إلى السجن لمدة عامين . إن المجتمع ، كما أقماه ، لن يكون لديه مكان لى ، وهو لا يملك تقديم شىء . أما الطبيعة ، بأمطارها التى تسقط على الظالم والعادل على السواء ، فان لديها شقوقاً بين الصخور أستطيع أن أختبىء فى واحد منها ، كما أن لديها وديانا خفية أستطيع فيها أن أبكى بغير أن يزعجنى أحد . إنها ستمد فى طول الليلة المزدهرة بالنجوم لأستطيع أن أمشى إلى الخارج فى الظلام بغير أن أتعثر ، وسترسل الرياح لتمحو آثار

(*) Théophile Gauteir شاعر وناقد فرنسى ، ولد فى عام ١٨١١ وتوفى عام ١٨٧٢ . ومن بين كتبه « تاريخ الرومانتيسية » .

« المترجم »

قدمى حتى لا يستطيع أحد أن يتعقبنى قاصداً إيذائى . وهى سوف تطهرنى فى مياه عظيمة ، وبأعشابها المرة ستعيدنى سليما .

وفى نهاية شهر ، حينما تصبح ورود يونيه فى كامل بهائها ، سأدبر الأمر بواسطة « روبى » ، إذا رأيت نفسى قادراً ، لألتقى بك فى بعض المدن الأجنبية الهادئة ، كمدينة « بريج Bruges » ، التى كان لبيوتها الرمادية ، وقنواتها الخضراء ، وطرقها الباردة الساكنة ، سحر على السنوات خلت . وسيكون عليك أن تغير اسمك موقتا ، وتطرح جانباً ذلك اللقب الصغير الذى خلق فيك هذا الغرور — وهو الذى جعل اسمك يبدو فى الواقع كما لو كان اسما لزهرة ! ويجب أن تقبل ذلك ، إذا كنت ترغب فى أن ترانى . وهو ما سأفعله أنا أيضاً باسمى الذى كان يوما نغما موسيقياً فى فم الشهرة ، إذ سأتخلى عنه بدورى . ما أضيق قرننا هذا ، وما أخسّه ، وما أقل ملاءمته لأعبائه ! انه يستطيع أن يقدم للنجاح قصراً من المرمر ، غير أنه لا يحتفظ للحزن والفضيحة ببيت ولو من صفصاف ربما استطاعا أن يتواريا فيه ! إن كل ما يستطيع أن يفعله لى أن يفرض على أن استبدل باسمى اسماً آخر ، بينما كان فى استطاعة القرون الغابرة ، حتى القرون الوسطى ، أن تقدم لى قلنسوة الراهب ، أو غطاء وجه الأبرص ، لأشعر بشىء من الهدوء من وراء هـذا أو ذاك .

أرجو أن يكون لقاؤنا ما يجب أن يكون من لقاء بينك وبينى . بعد كل ذلك الذى حدث . كان هناك دائماً هوة بيننا فى الأيام القديمة ، تلك كانت هوة الفن المنجز والثقافة المكتسبة . ثم أصبح بيننا الآن هوة أوسع ، هى هوة الحزن . ومع ذلك فلا يوجد مستحيل فى حالة الحزن . كما ان كل الأشياء سهلة فى حالة الحب .

أما فيما يتعلق بردك على الخطاب ، فتستطيع أن تجعله طويلا أو قصيرا ، كما تشاء . أكتب على المظروف : « الحافظ ، سجن صاحبة الجلالة ، ريدنج » . وفى الداخل فى مظروف آخر مفتوح ، ضع خطابك إلىّ . فاذا كتبت على ورق رفيع فلا تكتب على وجهى الورقة ، فهذا يجعلها عسيرة القراءة على الآخرين . لقد كتبت إليك فى حرية تامة ، فتستطيع أن تكتب إلى بنفس الأسلوب . إن ما يجب أن أعلمه منك هو : لمَ لمْ تحاول قط أن تكتب إلى ؟ فمنذ أغسطس من العام الأسبق كنت تعلم كم سببت لى من عذاب ، وكم كان إدراكى لذلك ، بل واعترفت لآخرين بأنك علمت ذلك . وقد زاد علمك بالأمر فى مايو من العام الماضى . وها قد مضى أحد عشر شهراً بينما كنت أنتظر شهراً بعد آخر لأسمع منك دون جدوى . وحتى لو كنت لم أنتظر بل أغلقت أبوابى دونك ، فقد كان يجب أن تذكر أن أحداً لا يستطيع أن يغلق أبواب الحب إلى الأبد . فالقاضى الجائر ، كما جاء فى الإنجيل ، ينهض فى النهاية ليصدر قراراً عادلا ، بعد أن مضى العدل يومياً يقرع بابه . والصديق الذى لم يكن فى قلبه ذرة من الصداقة الحقة إذا ما جاء الليل يستسلم فى النهاية لصديقه « بسبب الحافه »(١٧٧) . ليس هناك سجن ما فى أى عالم لا يستطيع الحب أن يجد إليه طريقه . فاذا لم تفهم هذا فإنك لم تفهم شيئاً بتاتاً عن الحب . ثم دعنى أعلم كل شىء عن مقالتك عنى إلى صحيفة «مركير د فرانس» . لقد علمت عنها بعض الشىء ، إذ أنها طبعت . فالأفضل إذن أن تقتبس منها . كذلك أريد أن أعرف ما هى الصيغة الصحيحة التى وضعتها فى إهدائى أشعارك . فاذا كانت نثراً فانقله إلى ، وإذا كانت شعراً فانقله كذلك . فليس لدى شك فى أن فيها شيئاً من الجمال . اكتب إلى فى صراحة تامة عن نفسك : عن حياتك ، وعن أصدقائك ، وعن أوجه نشاطك ، وعن كتبك .

واخبرنى عن كتابك وكيف استقبل . ومهما كان ما تريد قوله عن نفسك فقله بغير خوف . لا تكتب ما لا تعنيه . فهذا ما لا أريده . فاذا جاء شىء فى خطابك كذباً أو زوراً فاعلم أنى سأتقصاه فى الحال بواسطة الخاتم . أم حسبت أنه كان عبثاً أو إلى غير غاية أن جعلت من نفسى فى عقيدتى من الأدب طوال حياتى

بائساً بالجرس وبالمقطع ، لا يقل
عن « ميداس »(*) بضرب نقوده(١٧٨) .

تذكر أيضاً انى لا أزال فى حاجة إلى معرفتك . ومن يدرى ، فربما كنا لا نزال فى حاجة إلى معرفة أحدنا الآخر !

أما لك ، فلم يبق إلا هذا الشىء الأخير لأقوله : لا تخف من الماضى ! فاذا قال لك الناس إنه لا ينقض فلا تصدقهم . إن الماضى ، والحاضر ، والمستقبل ، كلها ليست إلا لحظة واحدة فى علم الله . وهو الذى يجب أن نحاول أن نعيش فى علمه . إن الزمن والفضاء ، والتعاقب والامتداد ، هذه كلها مجرد حالات عرضية للفكر . والمخيلة تستطيع أن تتخطى هذا كله ، لتتحرك فى دائرة حرة من حالات الوجود المثالية . وكذلك الأشياء ، فهى فى جوهرها ما نريدها أن تكون . فالشىء يكون طبقا للحالة التى ينظر المرء فيها إليه . يقول « بليك Blake » : « حيثما لا نرى

(*) ميداس Midas هو ملك « فريجى Phrygie » ، وقد استطاع أن يحصل من الآله « باخوس » على خاصية تحويل كل شىء لمسه إلى ذهب . غير أن هذه الرغبة كلفته عناء ليس بعده عناء ، فقد كان كل شىء لمسه يتحول إلى ذهب ، حتى طعامه ! ولكى يخلصه الاله من هذه الموهبة المشئومة أمره بالاغتسال فى نهر الـ « باكتول Pactole » ، وهو نهر صغير فى « ليديا » . فحملت مياهه تبر الذهب منذ ذلك الحين .

« المترجم »

الآخرون أكثر من الفجر يطلع فوق التلال ، أرى أبناء الله يهتفون للسرور »[179] . إن ما تصور العالم ، وتصورتُ ، انه كان مستقبلى فضاع حينما أقدمت على رفع القضية على والدك أستطيع الآن أن أقول انه قد ضاع فى الواقع قبل ذلك بزمن طويل . إن ما يقع أمامى الآن هو ماضىّ . لقد أوتيت المقدرة على أن أنظر إليه بعين مختلفة ، وأن أجعل العالم ينظر إليه بعين مختلفة ، وأن أجعل الله ينظر إليه كذلك بعين مختلفة . غير أنى لا أستطيع أن أفعل ذلك بتجاهله ، أو بالتقليل من شأنه ، أو بامتداحه ، أو بإنكاره . فليس هناك طريق إلا قبوله كاملا ، كجزء لا مفر منه من نشوء حياتى وتطور طبيعى ... ليس هناك إلا أن أحنى رأسى لكل شىء تعذبت منه . كم أنا الآن بعيداً عن مزاج نفسى الحقيقى ! هذا ماسيظهره لك هذا الخطاب بوضوح تام ، فى حالاته المتقلبة المتشككة ، وما فيه من سخرية ومرارة ، ومن تلهفات ، وفشل فى تحقيق هذه التلهفات! ولكن لا ننس فى أى مدرسة مريعة جلست الآن أمام واجبى ! فإذا كنت لا أزال بعيداً عن الكمال فربما كان هناك الكثير مما تستطيع أن تستفيده منى . لقد أتيت إلى لتتعلم السرور فى الحياة والسرور فى الفن . ولكن من يدرى ، فربما كان قد وقع علىّ الاختيار لأعلمك شيئاً أكثر عجباً : معنى الحزن ، وما فيه من جمال !

صديقك الودود

اوسكار وايلد

تعليقات

استعملت الاختصارات الآتية فى التعليقات :

Glaenzer Two Hundred Books from the Library of Richard Butler Glaenzer (Anderson Auction Co., New York 1911).

مائتا كتاب من مكتبة ريتشارد بتلر جلينزر (أندرسن أوكشن وشركاهم ، نيويورك ، ١٩١١) .

Harris Oscar Wilde, His life and Confessions, by Frank Harris, (New York, 1918).

أوسكار وايلد ، حياته واعترافاته ، بقلم فرانك هاريس (نيويورك ، ١٩١٨) .

Mason Bibliography of Oscar Wilde, by Stuart Mason (1914).

سيرة أوسكار وايلد بقلم ستيوارت ماسون (١٩١٤) .
هذا الكتاب وإن لم يكن فُهرس بدقة بل رتب بطريقة سيئة ، إلا أنه قد أفعم بمعلومات صحيحة ، غالبا ما خرجت عن الموضوع .

Meyerfeld	Max Meyerfeld's notes to his translation of Wilde's Letzte Briefe, (Berlin, 1925). تعليقات ماكس ميرفلد على ترجمته لخطابات وايلد الأخيرة (برلين ١٩٢٥) .
Miscellanies منوعات	Volume XIV of the Collected Edition of Wilde's Works; edited by Robert Ross, (1908). الجزء الرابع عشر من الطبعة المجمعة من أعمال وايلد ، طبعت بواسطة روبرت روس (١٩٠٨) .
O'Sullivan	Aspects of Wilde by Vincent O'Sullivan, (1936). مظاهر وايلد بقلم فينست أو سوليفان (١٩٣٦) .
Reviews عرض	Volume XIII of the Collected Edition of Wilde's Work, edited by Robert Ross, (1908). الجزء الثامن عشر من الطبعة المجمعة من أعمال وايلد ، طبعت بواسطة روبرت روس (١٩٠٨) .
Rothenstein	Men and Memories py William Rothenstein (Vol. 1, 1930). رجال وذكريات بقلم ولیم روذنشتاين (جزء ١ ، ١٩٣٠) .
Trials محاكمات	The Trials of Oscar Wilde, edited with an introduction by H. Montgomery Hyde (1948). محاكمات أوسكار وايلد ، طبعت مع مقدمة بواسطة هـ . مونتجمری هاید .

للتدليل على النسخة الأصليـة استعمل المؤلف : مستر روبرت هارت ـ داڤيز ، هذين الحرفين « M S » كما استعمل حرفى « T S » للتدليل على النسخة المنقولة . (مثال : M S هولاند) . للوقوف على توضيـح أوفى عن مصادر هذه المواد ومواضعها ارجع إلى «خطابات أوسكار وايـلد» التى قام بترتيبها روبرت هارت ـ داڤيز ونشرتها « شركة هاركورت ، بريس والعالم » .

التعليقـات

١ — روبرت بلدوين روس Robert Baldwin Ross (١٨٦٩-١٩١٨). كان كندياً . وكان جده ، روبرت بلدوين ، أول رئيس وزراء لكندا العليا . أما أبوه ، جون روس ، فقد كان النائب العام . وحينما مات أبوه ، وكان لا يزال فى الثانية ، توجهت به والدته إلى انجلترا قصد تعليمه . ولم يؤرّخ منهج دراسته . غير أنه ذهب فى ١٣ من أكتوبر سنة ١٨٨٨ إلى « كلية الملك » بكمبريدج حيث اتجه فى دراسة التاريخ . ومع أنه كان بين الفريق الثانى للكلية فى سباق الزوارق إلا أنه سرعان ما وقع فى متاعب بسبب قيامه بنشر ملاحظات فى بعض صحف الطلبة تضمنت نقـداً جريئاً لطريقة انتخاب الزملاء فى الكلية ؛ فألقى به فى الينبوع ، وأصيب بالتهاب رئوى ، ثم ترك كمبريدج باختصار عام ١٨٨٩ (انظر « روبرت روس فى كليـة الملك » بقلم بروس ديكنز Bruce Dickins فى صحيفة كمبريدج ، عدد ٢٣ يناير سنة ١٩٦٠) . ولقـد أصبح بعد ذلك صحفياً أديباً وناقداً فنيا . والتقى بوايلد المرة الأولى فى

عام ١٨٨٦ . للالمام بتفاصيل حياته العملية ومراسلاته فيما تلا ذلك ، ارجع إلى :

Robert Ross : Friend of Friends; edited by Margery Ross (1952).

٢ — De Profundis .

٣ — لورد ألفرد بروس دوجلاس Lord Alfred Bruce Douglas ، الابن الثالث للمركيز الثامن من أسرة كوينزبرى Queensberry ، ولد فى عام ١٨٧٠ ، وتعلم فى ونشستر ثم فى كلية مجدالن باكسفورد .

٤ — فى الثانى من أبريل كتب الحافظ إلى مفوضية السجون سائلا ما إذا كان من الممكن السماح لخطاب « كتب فى الثلاثة أو الأربعة أشهر الأخيرة » بأن يرسل خارج السجن . فردت المفوضية فى السادس منه بأن ذلك مستحيل . وإنما يستبقى الخطاب ثم يسلم إلى السجين وقت خروجه . وقد حدث هذا فى ١٨ من مايو ، ثم سلم وايلد الخطاب إلى روس فى « دييب » حينما نزل هناك فى ٢٠ منه . (انظر تعليق ٢٦) .

٥ — وليم مور أدى William More Adey (١٨٥٨ — ١٩٢٤) . نشر فى عام ١٨٩١ ، تحت اسم مصطنع هو وليم ولسون ، الترجمة الإنجليزية الأولى لكتاب « براند Brand » لـ « ابسن Ibsen » . وكان صديقا حميما لروبرت روس . وقد اشترك معه فيما بعد فى إدارة معرض صور « كارفاكس » . وكان محررا مشتركا فى « صحيفة Burlington Magazine» من عام ١٩١١ إلى ١٩١٩ . للوقوف على حياته فى السنوات الأخيرة ارجع إلى « رحلة سيجفريد ساسون Siegfried Sasson » (١٩٤٥) .

٦ — كونستانس مارى لويد وايلد Constance Mary Lloyed Wilde (ولدت فى عام ١٨٥٧) ، كانت ابنة لهوراس لويد ، مستشار الملكة (١٨٢٨ — ١٨٧٤) .

٧ — سيريل Cyril ، الإبن الأكبر لوايلد ، ولد فى ١٦ تايت ستريت فى ٥ من يونيه ١٨٨٥ . أما ڤيڤيان Vyvyan ، الإبن الثانى ، فقد ولد فى ٣ من نوفمبر ١٨٨٦ . وقد غير اسمه فيما بعد إلى ڤيڤيان هولاند .

٨ — كان مور أدى يعيش فى ٢٤ هورنتن ستريت ، كينسنجتون . وكان روبرت روس يعيش قريباً منه فى ١١ أپر فيليمور جاردنز .

٩ — انظر تعليق ٢٦ .

١٠ — أكثر ما جاء فى هاتين العبارتين مما تضمنه ما نشر من خطاب « د برفوندى » فى عام ١٩٠٥ . انظر تعليق ٢٦ .

١١ — أديلا شوستر Adela Schuster . كانت ابنة لـ « ليو شوستر Leo Schuster » ، وكان مصرفيا من أثرياء فرانكفورت أقام فى ڤيلا كبيرة فى ويمبلدن بانجلترا كانت تدعى « كانيزارو » . وكانت أديلا امرأة على جانب كبير من الأدراك ، كما كانت ذات مروءة . وكانوا يدعونها الآنسة « نونو » (Miss Tiny) متهكمين بسبب ضآلة جسمها .

١٢ — فرانكى فوربس — روبرتسن Frankie Forbes-Robertson . كانت روائية (١٨٦٦ — ١٩٥٦) ، وهى شقيقة كل من « جونستون » و « نورمان » و « أريك » و « إيان » .

١٣ — « مكبث » ، الفصل الخامس ، المشهد الثالث .

١٤ — يقول « مير » إن هذه الجملة تشير إلى اقتراح لروس جاء على محمل الهزل بتكوين جماعة تعارض فى شعر شكسبير ما كان يبدو فيه كثير من المغالاة . وأن القصيدة التى نشرها دوجلاس فى « مدينة النفس » فى عام ١٨٩٩ ، وعنوانها « إلى شكسبير » كتبت بدافع الغضب من هذا الاقتراح .

١٥ — واقعيا فى العاشر من مارس .

١٦ — السادة هارجروف وشركاهم .Hargrove and Co ، كانوا محامين آل لويد ، أسرة كونستانس وايلد .

١٧ — جورج هنرى لويس George Henry Lewis (١٨٣٣ — ١٩١٦) . حصل على رتبة فارس فى عام ١٨٩٣ ، ثم على رتبة بارون فى عام ١٩٠٢ . وكان رئيسا لبيت « لويس ولويس » للمحاماة . وتذكر « اليزابيث روبينز » أن وايلد قال عنه فى عام ١٨٨٨ : « ان جورج لويس أحسن محامى فى لندن ؛ فهو لامع ومهيب ومعروف فى العالم كله ؛ وهو مهتم بكل قضية كبيرة فى انجلترا . انه يعلم عنا كل شىء ، وهو يغفر لنا جميعاً » انظر أيضاً ص ١٥٧ .

١٨ — مارتن هولمان Martin Holman ، من بيت « باركر ، جاريت وهولمان » .

١٩ — فى ٢٦ من مارس كتبت كونستانس وايلد ما يأتى من إيطاليا إلى أخيها « أوتو هولاندلويد » (١٨٥٦ — ١٩٤٣) ، (MS هولاند) :

كان هناك ضغط علىّ مرة أخرى لإقناعى بالرجوع إلى أوسكار . ولكننى متأكدة من أنك ترى معى أن هذا لم يعد فى الإمكان . لقد

أخبرت أنى بذلك سأنقذ نفساً بشرية . غير أنى لا أملك تأثيرا على أوسكار ، ولم يكن لى شىء من ذلك . وحقاً إنه محب ، كما أعتقد ؛ إلا أنى لا أرى ما يحمل على الاعتقاد بأن فى استطاعتى الآن أن أقوم بشىء من المعجزات . وإنما يجب أن أهتم بأمر ولدىّ ، وألا أجازف بمستقبلهما . هناك من يعتقد بأنه سقط ولن يستطيع النهوض ؛ فهو فى هذه الحالة كما لو كان شيئاً معوقا . وإنما أعتقد أن حظه هو الذى كان معوقا ، فقد جلب عليه الحزن بقدر ما أبعده عن الطريق القويم .

٢٠ — من « وداعاً أى مارى ستيوارت » ، وقد نشرت مع قصائد أخرى فى عام ١٨٨٢ .

٢١ — هذه الإشارة لا بد أن تكون راجعة إلى شقيق وايلد وزوجته ، إذ أن مسز ويلى وايلد كانت الشخص الوحيد الذى تسلم ٥٠ جنيها من ليفرسن .

٢٢ — ارنست داڤيد ليفرسن Ernest David Leverson كان ابناً لتاجر ماس ؛ وزوجاً لـ « أدا ليفرسن Ada Leverson » (أدا استر بدينجتون) . وكانت أدا تكتب قطعاً فكاهية فى صحيفة « بنش » وغيرها ، ثم قامت بنشر روايات ناجحة . وكانت من صديقات وايلد المقربات . وكان يطلق عليها هذا الاسم « The Sphinx » (أبو الهول) .

٢٣ — جيمس توماس (فرانك) هاريس James Thomas (Frank) Harris (١٨٥٦ ؟ — ١٩٣١) . مؤلف ، ومحرر ، ومغامر ، قضى شطراً كبيراً من شبابه فى أمريكا ثم عاد إلى انجلترا ، واضطلع فى عام ١٨٨٣ بتحرير الـ « ايفننج نيوز » . ومنذ عام ١٨٨٦ أصبح محررا لصحيفة « فورتنايتلى ريڤيو » . وكان متسفلا فى بعض الطرق . أما

مواهبه كقصاص يعتمد على الخيلة فهى أكثر وضوحا فى سيرة حياته وما ترجم به لنفسه منها فى قصصه الخيالية . ومع ذلك فإن كتابه « أوسكار وايلد : حياته واعترفاته » (١٩١٦) ، وان لم يكن مرجعا يمكن الاعتماد فيه على الواقع إلا أن فيه الكثير من التقدير المؤثر . وكان أجمل شيء فى هاريس إنه لم يأل جهدا فى إبداء العطف على وايلد وإظهار المروءة معه .

٢٤ — أرثر بلامى كليفتن Arthur Bellamy Clifton ، (١٨٦٢ — ١٩٣٢) . كان ابناً لأستاذ الفلسفة التطبيقية فى جامعة اكسفورد . وكان محاميا ؛ ثم أصبح تدريجياً ممن يتعاملون فى الفنون . وفى عام ١٨٩٨ قام هو و « چون فوذرچيل » بإنشاء « معرض كارفاكس » فى « ريدر ستريت » ، واشتغل مديراً له . وفى عام ١٩٠٠ انضم كل من « روبرت روس » و « مور أدى » إلى المعرض الذى كان مهتما بأعمال « كوندر » و « چون » و « ماكس بير بوم » و « شيكرت » و « روذنشتين » .

٢٥ — الكسندر جالت روس Alexander Galt Ross ، (١٨٦٢ — ١٩٣٢) ، الأخ الأكبر لروبرت روس . مؤسس وسكرتير جمعية المؤلفين . وقد صحب « ريدر هاجارد » إلى إيسلاندا فى عام ١٨٨٨ . وبعد فترة قصيرة فى معالجة الأدب أصبح شريكا فى بيت الشئون المالية .

٢٦ — لم يرسل هـذا الخطاب الطويل مباشرة من السجن (انظر تعليق ٤) ، بل سلمه وايلد إلى روبرت روس بعـد خروجه من السجن . وقام روس باستخراج نسختين منه على الآلة . غير أنه لم يرسل النسخة الأصلية إلى دوجلاس ، كما طلب وايلد (انظر تعليق ٩)

بل أرسل واحدة من النسختين المطبوعتين . وقد أنكر دوجلاس دائماً أنها وصلته .

وفى عام ١٩٠٥ قام روس بنشر مختصرات لم تبلغ نصف الخطاب بعنوان « De Profundis » . ثم ظهرت طبعة أخرى أضيف إليها زيادات بسيطة فى المجموعة التى طبعت فى عام ١٩٠٨ . ولم تتضمن كل من هاتين الطبعتين أى إشارة إلى دوجلاس . وفى عام ١٩٠٩ سلم روس النسخة الأصلية إلى المتحف البريطانى ، مشترطا ألا يطلع عليها أحد قبل مرور خمسين عاما .

أما النسخة المطبوعة الثانية ، وهى التى احتفظ بها روس ، فقد أورثها بعد ذلك لڤيڤيان هولاند (انظر تعليق ٧) ، لتكون النص الكامل « للطبعة الصحيحة الأولى » التى نشرها مستر ڤيڤيان ثانية بعنوان «دى برفوندى » فى عام ١٩٤٩ . ولقد ساد الاعتقاد ، بطبيعة الحال ، بأن كلا من النسخة المستخرجة على الآلة والنسخة الأصلية مطابق للآخر ، وأن هذه الطبعة كانت فعلا كاملة وصحيحة . غير أنها لم تكن فى الواقع لا كاملة ولا صحيحة ، بل امتلأت بالأخطاء ، التى يمكن تقسيمها إلى أربع مجموعات رئيسية :

١) قراءات رديئة لكتابة وايلد ؛

٢) أخطاء سمعية ربما كان سببها أن روس كان يعتمد على ناسخة محدودة الثقافة ؛

٣) « تحسينات » أدخلها روس على أسلوب وايلد فى القواعد والتركيب ؛

٤) الانتقال المبهم فى عبارات ، بل وفقرات بأكملها ، من جزء إلى آخر من الخطاب .

بالإضافة إلى ذلك ، فقد حذف روس من الموضوع فى جملته أكثر من ألف كلمة كانت كلها تقريباً نقداً عنيفا وجه إلى دوجلاس وإلى أبيه ، ومنها على سبيل المثل وصفه لـ « كوينزبرى » فى المحكمة . أما الآن فإن هذا الخطاب الذى يعتبر أطول وأهم ما كتب وايلد قد طبع أخيراً بالضبط كما كتبه هو ، باستثناء شىء واحد ، فقد عمدت إلى تقسيم الخطاب إلى فقرات أكثر مما فعل حينما رأى نفسه مضطرا إلى الاقتصاد فى الورق .

لقد كتب الخطاب فى عشرين فرخا (كلا من أربع صفحات) من ورق السجن الأزرق المسطر حمل كل منها الشعار الملكى مطبوعا فى الرأس . وقد حملت الفروخ أرقاما بخط وايلد من ١ إلى ١٨ (بما فى ذلك ١٣ ا و ١٥ ا) . وفى ٤ من أبريل ١٨٩٧ كتب محافظ سجن ريدنج إلى مفوضية السجن شارحا كيف كتب الخطاب فقال : « كل فرخ رقم بعناية قبل إصداره . وكان يسحب كل مساء وقت إغلاق السجن ويوضع أمامى فى الصباح بين الأوراق العادية » ، (مخطوط وزارة الداخلية) . غير أن دراسة دقيقة للنسخة الأصلية تجعل من الصعب تصديق هذا التقرير . والواقع اننى أشك فى أن يكون الماجور نلسن قد شغل نفسه بأمر وايلد أكثر مما فرض عليه منصبه فى مراعاة لموقفه أمام رؤسائه . وقد بنيت اعتقادى على هذه الأسباب :

ا) إن الفروخ ١ و ٢ و ١٣ تحمل كل الظواهر على أنها نسخة مبيضة . فالكتابة فيها أكثر انتظاما وترتيبا وإحكاما . وهى

لا تحتوى إلا على النادر من التصحيحات أو التنقيحات ، بينما تمتلىء الفروخ السبعة عشر الأخرى بذلك .

ب) لا يوجد بين الفروخ العشرين (باستثناء الأخير) سوى اثنين فقط ينتهى فيهما الفرخ بنهاية جملة .

ج) فى الخطاب التمهيدى الذى كتبه وايلد إلى روس بتاريخ أول أبريل سنة ١٨٩٧ (انظر صفحة ١٠٩) نراه يشير إلى مواضع فى عدة فروخ مختلفة ، ويفعل ذلك فى الحال ، قائلا أنه « يقتبس من الذاكرة » . غير أنه من الصعب تصديق ذلك بسبب دقته فيما أورده .

٢٧ — إلى روبرت روس (النسخة الأصلية : كلارك)

السبت (٢٣ أو ٣٠ مايو ١٨٩٦ ؟)(١)

(سجن صاحبة الجلالة بريدنج ؟)

عزيزى روبى :

لم أستطع أمس أن أجمع شتات أفكارى ؛ إذ لم أكن توقعت حضورك حتى اليوم . فأرجو أن تحدد الوقت دائما كلما رأيت أن تتكرم بزيارتى ، إذ أن أى طارئ مفاجئ يسبب لى اضطرابا .

لقد سمعت منك أن دوجلاس فى سبيل إهداء ديوان شعر إلىّ(٢) . فأرجو أن تكتب إليه سريعاً بألا يفعل ؛ إذ أننى لا أقبل إهداءً كهذا ولا أسمح به . فالفكرة ثائرة بقدر ما هى سخيفة . ثم إن لديه ، لسوء الحظ ، عدداً من خطاباتى ، فأريد أن يسلمها إليك فى الحال بغير أن يحتجز منها شيئا . وحال حصولك عليها أرجو أن تحتفظ بها فى مكان مغلق ، فإذا مت كان عليك أن تعدمها ، وإذا عشت توليت أنا ذلك ؛

إذ يجب ألا تبقى بأى حال . إن مجرد التفكير فى وجود هذه الأشياء فى يده يسبب لى الكثير من الفزع . ومع أن طفلىّ المنكودىَ الحظ لن يحملا قط اسمى بطبيعة الحال إلا أنهما يعلمان لمن من الآباء ينتسبان فيجب أن أحاول حمايتهما مما قد يتأتى من فضائح أشد شناعة .

كذلك لديه بعض أشياء قدمتها إليه ، من كتب ومجوهرات . فأرجو أن تتسلم منه أيضاً هذه الأشياء نيابة عنى . وما من شك فى أن بعض هذه المجوهرات قد خرج من حوزته تحت ظروف لا أحب أن أشير إليها ، غير أنى أعلم أنه لا يزال يحتفظ ببعضها ، كعلبة السجاير الذهبية ، والسلسلة اللؤلؤية ، والنوط المثمّن ، وقد قدمته إليه فى عيد الميلاد . فأريد أن أتأكد من أنه لا يحتفظ بشىء مما سبق أن قدمته إليه . وكل هذه الأشياء يجب أن يغلق عليها وتبقى لديك ؛ إذ أن فكرة استعماله شىء مما قدمته إليه ، أو احتفاظه به ، تثيرنى إلى أبعد حد . بالطبع لا أستطيع التخلص من الذكريات المثيرة عن العامين اللذين خاننى فيهما الحظ فأوجبت على نفسى وجوده معى ، أو عن الحالة التى كان يتخذها ليدفع بى إلى هاوية الخراب والفضيحة ، ليشبع ما فى نفسه من غريزة بغضه لأبيه ، وغير ذلك من الشهوات الدنيئة . غير أنى لن أتركه يحتفظ بشىء من خطاباتى أو هداياى . حتى لو استطعت أن أخرج من هذا المكان الذى تشمئز منه النفس ، فإنى أعلم أنه لن يكون أمامى إلا ذلك اللون من الحياة — حياة المنبوذين بما فيها من عار وفاقة واحتقار . غير أنه لن يكون بينى وبينه شىء على الأقل ، ولن أسمح له بأن يقترب منى .

فيجب أن تكتب إليه سريعاً ، وأن تحصل منه على هذه الأشياء . وسأبقى بائساً أكثر مما كنت حتى أعلم منك أنها أصبحت فى عهدتك .

إنى أعلم أنه لم يكن من اللائق أن ألقى عليك هذه المهمة ، بل ولا يخفى على أنه ربما كتب إليك فى سيل من الشتائم الفظة ، كما فعل مع شيرارد عندما حاول أن يمنعه من نشر مزيد من خطاباتى . غير أنى أرجوك ملحاً ألا تلقى بالا إلى ذلك . وحالما تحصل على تلك الأشياء فأرجو أن تكتب إلى ، كما أرجو أن تجمل جزءاً من خطابك ، كما فعلت دائما ، يتضمن جميع الأنباء الهامة عن الأدب والمسرح . اخبرنى مثلا لِمَ ترك « إيرفنج Irving » المحاضرات الأدبية ... إلى آخره ، وما الذى يقوم الآن بتمثيله(٣) ؟ وماذا هناك فى كل مسرح ؟ ومن هو الذى يقوم « ستيفنسن Stevenson » الآن بنقده بشدة فى خطاباته(٤) ؟ وغير ذلك مما يبعد تفكيرى ولو ساعة عن موضوع سجنى المثير .

فى حالة كتابتك إلى دوجلاس يستحسن أن تقتبس خطابى كله فى صراحة . فهذا يجعله لا يجد منفذا للهروب . والواقع أنه لا يستطيع أن يرفض . فقد استطاع أن يدمر حياتى . وهذا يكفيه .

لقد تأثرت جدا مما أبدته لادى ويلدن من شفقة . سيكون لك فضل إذا حضرت لترانى . تحية طيبة إلى « مور » وأعنى أن أراه كذلك .

ا . و .

[عشر كلمات محذوفة] (٥) ... لدى أبى الهول بعض خطابات من د . إلىّ . أرجو أن تعاد سريعا أو تعدم . ا . و .

---

(١) من الصعب تأريخ هذا الخطاب . والإشارة إلى « عيد الميلاد الأخير » توحى بأن العام كان ١٨٩٥ . غير أن وايلد عمد فيما بعد إلى وضع حادثة الإهداء فى مايو ١٨٩٦ ، ويبدو أن ذلك هو الصواب . أما جهله بانتقالات إيرفنج وخطابات ستيفنسن

فيمكن إدراك سببه بسهولة . ويقول شيرارد (انظر تعليق ٧٤) أنه زار وايلد ومعه روس فى ٢٥ من مايو ولكن إذا كان السبت صحيحا فيجب أن تكون هذه الزيارة قد حدثت فى يوم ٢٢ أو ٢٩ .

(٢) عندما نشرت أشعار دوجلاس فى « ميركير د فرانس » فى نهاية عام ١٨٩٦ لم تكن تحتوى على إهداء .

(٣) عندما صدر الحكم على وايلد كان ذلك فى اليوم الذى منح فيه ايرفنج رتبة فارس . وكان قد أنهى موسم محاضراته فى ٢٧ من يوليه ١٨٩٥ ، ثم ذهب إلى أمريكا فقام بجولة لمدة عشرة شهور ثم عاد بعد ذلك ليحاضر فى « سيمبلاين Cymbeline » فى ٢٢ من سبتمبر ١٨٩٦ .

(٤) مات روبرت لويس ستيفنسن فى ساموا فى ٣ من ديسمبر ١٨٩٤ . وقد طبعت « خطابات ڤيلما » التى كتبها بواسطة متلقيها « سيدنى كلفين » ، ونشرت فى ٢ نوفمبر ١٨٩٥ .

(٥) قطعة من محادثة هامة ، ربما سببت ألماً للسلالة .

٢٨ — كتب وايلد فى الأصل « كنت » .

٢٩ — « قاعة ويليس » كانت تقع فى « كينج ستريت » بحى « سانت جيمس » . وكانت المطعم العصرى الشهير فى تلك الفترة ؛ ثم تحولت فيما بعد إلى قاعة مزايدات . وأخيراً دمرت بالقنابل فى عام ١٩٤١ .

٣٠ — جون جراى John Gray (١٨٦٦ — ١٩٣٤) ، صاحب ديوان الشعر المعروف باسم « النقاط الفضية » . وقد وضع « ريكتس »

تصميمه ، كما دفع وايلد كل تكاليفه . (ماثيوس ولين ١٨٩٣) . وفى شهر يونيه من نفس العام أخرجت له على مسرح « أمير ويلز » مسرحية « الشهيرين » ، التى قام بوضعها بالاشتراك مع صديقه الحميم « اندريه رافالوفيتش » . وليس هناك أى دليل على الرأى الذى شاع فى إصرار بأنه الشخصية المتخذة فى « دوريان جراى » . وفى عام ١٩٠٤ قام بتحرير ونشر « الخطابات الأخيرة إلى أوبرى بيردسلى » التى كتبها « رافالوفيتش » . وكان فى طفولته قد اعتنق المذهب الكاثوليكى ، وفى الخامسة والثلاثين عمد قسيساً . وقد أمضى سنواته الأخيرة فى « ادنبره » حيث قام « رافالوفيتش » ببناية كنيسة القديس بطرس لأجله ، أما « رافالوفيتش » (١٨٦٤ - ١٩٣٤) فكان من أغنياء روسيا ، وقد تلقى تعليمه فى فرنسا وفى انجلترا . وقد ذكر عن وايلد انه قال عنه انه جاء إلى لندن لتأسيس صالون ، وقد نجح فقط فى تأسيس صالون . ويعتقد أن رافالوفيتش قد ثأر لنفسه بإفساد ما كان قائماً بين وايلد وجون جراى من صداقة ، بينما استمرت صداقته هو مع جراى وثيقة حتى آخر أيام حياته . وكان « بيردسلى » فى سنواته الأخيرة يتلقى مساعدة كبيرة من « رافالوفيتش » .

٣١ — شاعر وكاتب فرنسى (١٨٧٠ — ١٩٢٥) قام فى عام ١٨٨٩ بتأسيس صحيفة « لا كونك La Conque » وكان يساهم فى تحريرها كل من «سوينبورن» ، « ليكونت دى ليل » ، « هيرديا » ، « فيرلين » « مالارمى » ، « ميترلنك » ، « اندريه جيد » و « موريا » . وقد نشر أول كتاب له فى عام ١٨٩٢ .

٣٢ — إلى لادى كوينزبرى[١] (.TS هولاند) .

(٨ نوفمبر ١٨٩٣)[٢] ١٦ تايت ستريت .

سيدتى العزيزة لادى كوينزبرى ،

حدث فى أكثر من مناسبة أن طلبت رأيى فى «بوزى». فاسمحى لى بأن أكتب إليك الآن شيئاً عنه .

إن بوزى يبدو فى حالة صحية بالغة السوء ، فهو مؤرق الجفن ، متوتر الأعصاب ، بل انه أقرب إلى أن يكون فى حالة هستيرية . فهو فى نظرى قد تغير تماما .

انه لا يفعل شيئاً فى المدينة . فمنذ أن ترجم تمثيليق الفرنسية فى أغسطس الماضى لم يقم فى الواقع بأى مجهود عقلى . فهو على ما يبدو قد فقد اهتمامه حتى بالأدب ، وان كنت أرى أن ذلك ربما كان فى اللحظة الحاضرة فقط والحقيقة أنه لا يفعل شيئاً مطلقاً ، وهو شارد فى الحياة بصورة تامة . وما لم تبادرى ، أو يبادر « درمنلا نريج »[٣] ، بفعل شىء فربما أقدم على أمر محزن من أى نوع . حياته تبدو لى عديمة الهدف ، شقية ، سخيفة .

كل هذا غم كبير وخيبة أمل بالنسبة إلى ، غير أنه لا يزال غض الشباب ، بل ان روح الشباب تبدو فى طبعه بشكل فظيع . فلِمَ إذن لا تحاولين اتخاذ تدابير من أى نوع تؤدى إلى رحيله إلى الخارج لمدة أربعة أشهر أو خمسة ، كأن يذهب إلى « كرومر » فى مصر ، إذا كان ذلك ممكنا ، حيث يستطيع أن يكون فى بيئة جديدة ، وبين أصدقاء لائقين . وفى جو مختلف[٤] ؟ أعتقد أن بقاءه فى لندن لن يؤدى به إلى

خير ، بل على العكس ربما أدى إلى تدمير حياته الشابة بصورة لا تعوض... بلى ، بصورة لا يمكن تعويضها قط . بالطبع سيتطلب الأمر بعض المال ، وهو ما لا شك فيه . غير أن الأمر هنا يتعلق بحياة واحد من أبنائك — وهى حياة يجب أن تكون متألقة ، ممتازة ، ساحرة . أما قضاؤها فى ضلال تام فمعناه الدمار التام .

إنى أحب أن أعتبر نفسى صديقه الأكبر . فهو نفسه ، كيفما كان ، يجعلنى أعتقد ذلك . ولذلك فإنى أكتب إليك فى صراحة تامة ، سائلا أن تعملى على إرساله إلى الخارج ليكون فى بيئة أحسن . فهـذا سيؤدى إلى إنقاذه ، وإنى على يقين من ذلك . أما حالياً فإن حياته تبدو محزنة فى اتجاهها السخيف إلى غير غاية .

وكما أعلم ، فإنك لن تخبريه بأنى كتبت إليك فى هذا الشأن . وأستطيع أن أعتمد عليك فى ذلك ، بل إنى متأكد .

المخلص

أوسكار وايلد

---

(١) سيبيل مونتجمرى Sybil Montgomery (١٨٤٥ — ١٩٣٥) ، الابنة الكبرى للورد ليكونفيلد الأول . تزوجت (١٨٦٦) من جون شولتو دوجلاس ، المركيز الثامن من أسرة كوينزبرى (١٨٤٤ — ١٩٠٠) ، ثم طلقته فى عام ١٨٨٧ . وكان لورد ألفرد دوجلاس ابنها الثالث . ولا شك أن هذا الخطاب قد ساعد على إرساله إلى الخارج لبضعة أشهر .

(٢) هكذا أرخ بواسطة دوجلاس (ويحتمل أن يكون ذلك

من الأصل) فى خطاب إلى « ا . ج . ا . سيمونز » بتاريخ ٢٤ من أغسطس ١٩٣٧ . (MS. كلارك) .

(٣) فرانسيس أرشيبالد دوجلاس Francis Archibald Douglas ، فيكونت درملانريج Drumlanrig (١٨٦٧ — ٩٤) ، كان الابن الأكبر للادى كوينزبرى .

(٤) إيفلين بارنج Evelyn Baring (١٨٤١ — ١٩١٧) ، أصبح لورد كرومر فى عام ١٨٩٩ ، وفيكونت فى عام ١٨٩٩ ، ثم إيرل فى عام ١٩٠١ . كان معتمداً وقنصلا عاما فى مصر من عام ١٨٨٣ إلى عام ١٩٠٧ .

٣٣ — وردسورث ، « قصيدة كتبت فى لندن فى سبتمبر ١٨٠٢ » .

٣٤ — يكاد يكون مؤكداً أن ذلك الحوار كان : « The Decay of Lying : فساد الكذب » .

٣٥ — إلى لورد ألفرد دوجلاس[1]

(يناير ١٨٩٣) ؟ (بابا كومب كليف)

فتاىَ أنا ،

إن قصيدتك جميلة جدا[2] ، وإنها حقا لأعجوبة أن تكون تلك الشفتان اللتان تتبديان منك فى لون أوراق الورود لا أقل لموسيقى الأغانى منهما لجنون القُبل ! إن روحك الذهبية الرقيقة تخطر بين العاطفة والشعر ؛ وإنى أعلم أن « هياسينثوس » ، ذلك الذى أحبه « أبولو » فى جنون ، لم يكن إلا أنت نفسك فى أيام الاغريق .

لم أنت وحيد فى لندن ، ومتى ستذهب إلى « سالزبورى »[3] ؟ اذهب إلى هناك لتبرد يديك فى الغسق الأشهب من الأشياء القوطية ، ثم تعال إلى هنا وقتما تحب . إنه مكان جميل ، وإنما هو ينقصك فقط . ولكن يجب أن تذهب إلى سالزبورى أولا .

دائما لك مع حب لا يموت

أوسكار

---

(١) هـذا الخطاب لم يكن من السهل التأكد من تاريخه الصحيح . وقد سرق فيما بعد واستعمل كوسيلة فى محاولات للابتزاز من وايلد ؛ ثم قرئ أخيراً فى المحكمة أثناء محاكمة كوينزبرى وما تلاها من محاكمات . وقد قرر وايلد فى شهادته أنه كتب فى « بابا كومب » . وفى عدد ٤ مايو ١٨٩٣ من « مصباح الروح » ، (وهى صحيفة لطلاب أكسفورد كان يقوم بتحريرها لورد ألفرد دوجلاس من نوفمبر ١٨٩٢ إلى يونيه ١٨٩٣) ظهرت قصيدة بالفرنسية بغير توقيع نظمت على أساس هذا الخطاب وكتبها « پيير لويوس » . أما هذا النص فهو مأخوذ من « المحاكمات » ، ص ١١٢ .

(٢) ربما كانت : In Praise of Shame : فى امتداح الحياء »

(٣) حيث كانت لادى كوينزبرى تملك منزلا يدعى بوابة القديسة آن فى التخوم .

٣٦ ـــ امرأة بغير أهمية ، الفصل الثالث .

٣٧ ـــ والترهوراشيو باتر Walter Horatio Pater (١٨٣٩ – ٩٤) ،

عضو ومعلم فى كلية « براسنوز Brasenose » . نشر فى عام ١٨٧٣ كتابه الأول « دراسات فى تاريخ النهضة » . وقد أشار فى خاتمته إلى مذهب الابيقوريين ، فأحدث هذا هزة جملته يحذف الصفحات الست التى تضمنت ذلك فى الطبعة (١٨٧٧) . غير أنه عاد فأضافها فى الطبعة الثالثة (١٨٨٨) ، حيث حولت هذه الجملة إلى « بمعنى ، يمكن حق أن يقال إن فشلنا يكوّن عادات » .

٣٨ — جيل د لاڤال Gilles de Laval سيد « ريه Rais » كان من بين المحاربين مع چان دارك ، كما كان مارشال فرنسا . وقد ضل بعد ذلك ففسق إلى عبادة الشيطان وقتل الأطفال وأعدم بذلك السبب (١٤٠٤ — ١٤٤٠) . أما مركيز د ساد Marquis de Sade (١٧٤٠ — ١٨١٤) ، فإنه مؤلف « جوستين Justine » وقصص أخرى تحمل طابع القسوة أدت إلى انتشار كلمات السادية والسادى وما يدخل فى هذا الموضوع . وقد حكم عليه بالموت بسبب عدة جرائم ؛ غير أنه استطاع أن يفلت من المشنقة . ثم مات فى مصح للأمراض العقلية .

٣٩ — أجا ممنون ، والكلمات المقتبسة تقع فى سطور ٧١٧ — ٧٢٨ .

٤٠ — كامبل دودسن Campbell Dodgson ، مؤلف وناسخ صور ، (١٨٦٧ — ١٩٤٨) ، عالم من كلية ونشستر والكلية الجديدة ، حيث كان معاصراً وصديقاً لـ « ليونيل جونسن » ، كما كان أميناً لقسم المطبوعات والرسومات بالمتحف البريطانى (١٩١٢ — ٣٢) .

٤١ — قام أوبرى بيردسلى Oubrey Beardsley بتصوير الترجمة الانجليزية لـ « سالومى » كما قام إلكين ماثيوز وجون لين بنشرها فى ٩ فبراير ١٨٩٤ . وقد جاء فيها هذا الإهداء : « إلى صديقى لورد ألفرد بروس

دوجلاس ، مترجم روايق » . ولم يعرف إلى أى مدى قام وايلد بتنقيح الترجمة قبل نشرها . ولكن ، بالرغم من ذلك الاهداء ، فإن اسم دوجلاس كمترجم للرواية لم يظهر على صفحة العنوان . وقد اعتبرت بعض الصور التى رسمها بيردسلى شائنة . وفى خطاب أرخ فى « نوفمبر ؟ [١٨٩٣] » (Ms. روس) ، كتب بيردسلى إلى روس يقول :

« أظن أنك سمعت كل شىء عن المشاجرات التى حدثت حول سالومى . وإنما أستطيع أن أخبرك أنى مررت بفترة حامية بين ابن وأوسكار وشركاهم ، وكان عدد البرقيات التى وصلتنى والسعاة الذين قرعوا بابى لمدة أسبوع يثير الفضيحة . والواقع أنى لا أعلم تماماً ماذا صار إليه الأمر الآن . على كل حال لن يظهر اسم بوزى على صفحة العنوان . وسيظهر الكتاب سريعاً بعد عيد الميلاد . لقد سحبت ثلاثاً من الصور ووضعت أخرى فى مكانهـا (جميلة فى بساطة ولا تتصل بالموضوع تماماً) »

وقد تسلم بيردسلى خمسين جنيها لقاء تلك الصور . أما وايلد فقد حصل على حق ملكية البيع بنسبة شلن واحد عن كل نسخة من الطبعة العادية (٥٠٠ نسخة بسعر ١٥ جنيها) و ٣ شلنات عن كل نسخة من الطبعة الممتازة (١٠٠ نسخة بسعر ٣٠ جنيها) .

٤٢ — كتب وايلد فى الأصل « روبى » .

٤٣ — كتب وايلد فى الأصل « زوجة » .

٤٤ — انظر تعليق ٣٢ .

٤٥ — عندما ترك دوجلاس مصر فى مارس ١٨٩٤ كان قد عين ملحق

شرف لـ « لورد كورى » الذى كان سفيرا فى القسطنطينية ، غير أنه لم يشغل ذلك المنصب .

٤٦ — كان المركيز السابع من آل كوينزبرى (١٨١٨ — ٥٨) قد قتل فى حادثة إطلاق رصاص ، أما ابنه الأصغر ، لورد جيمس ادوارد شولتو دوجلاس ، فقد ذبح نفسه فى فندق « يوستن Euston » .

٤٧ — سيركا Circa ، أول ابريل ١٨٩٤ .

٤٨ — كان وايلد قد قص من قبل نبأ هذا المرض الذى أصاب لورد ألفرد دوجلاس فى خطاب بعث به إلى أدا ليفرسن ، جاء فيه :

الجمعة [٥ أكتوبر ١٩٨٤]		فندق متروبول ، برايتون

عزيزتى سفنكس :

أرجو أن أكون فى لندن فى الخامس عشر ؛ فهل ستكونين هناك ؟

لقد قرأت مقالك فى « بنش »(١) فى سرور . وكنت ألاحظك ، بالطبع ، قبل أن ترسليه إلىّ .

إن صديقى لم يُسمح له بالخروج اليوم . وإنى أجلس بجانبه وأقرأ له عبارات من حياته هو نفسه . وهى تملأه دهشة . يجب أن يقوم كل واحد بتدوين يوميات عن آخر . وإنى أشك أحيانا فى أنك تفعلين فيما يختص بى .

أحقيقة أن ذكرى ميلادك فى العاشر ؟ إن ذكرى ميلادى فى السادس عشر ! فيا له من أمر محزن . فالواقع أنى أخشى أن يبدو

الأمر كما لو كنا أخاً وأخته . ومع ذلك فربما كان هذا أفضل .

المخلص دائماً

أوسكار

---

(١) ربما كان « خطابات من مبتدئة » . وقد ظهر بغير توقيع في « بنش » في ٦ من أكتوبر ١٨٩٤ . وكان آخر ما كتبت أدا ليفرسن قبل ذلك في ٤ أغسطس . أما نص هـذا الخطاب فقد أخذ من «خطابات من أوسكار وايلد إلى ذى سفنكس» مع ذكريات للـكاتبة ، بقلم أدا ليفرسن » (١٩٣٠) .

٤٩ — في عام ١٨٩٤ كان عيد ميلاد وايلد (١٦ أكتوبر) في يوم الثلاثاء ، وقد غير روس هذه الجملة طبقاً لذلك .

٥٠ — مطعم بركلى . في بيكاديللى .

٥١ — ١٩ من أكتوبر ١٨٩٤ .

٥٢ — قُتِل لورد درَملانرج بطلقة من بندقيته في ١٨ من أكتوبر عام ١٨٩٤ .

٥٣ — الملك لير ، الفصل الخامس ، المشهد الثالث .

٥٤ — انظر تعليق ٣٥ .

٥٥ — بيربوم ترى Beerbohm Tree .

٥٦ — في ديسمبر ١٨٩٤ ظهر العدد الأول (والأخير) من مجلة

« الحرباء The Chameleon » التي أصدرها طلبة أكسفورد . وفي ذلك العدد ظهر ٣٥ من الأقوال الحكيمة لوايلد ، أو « المتناقضات » كما دعاها . كان واضحا أنها أعدت في متابعة لما سبق نشره في صحيفة « ساتر داي ريڤيو » ، (انظر ما يلي) . وقد ظهرت في « الحرباء » تحت عنوان « جمل حكيمة لاستعمال الشباب » ، وأعيد طبعها في « المتنوعات » . وقد حدث أثناء المحاكمة تلاعب كبير بتلك الأقوال ، وكذلك بقطعتين أخريين نشرتا في نفس المجلة ، وهما : قصيدة بقلم دوجلاس بعنوان « حُبّان » (انظر تعليق ٥٧) ، وقصة بغير توقيع بعنوان « القس والشماس » نسبت إلى وايلد ، بينما كان كاتبها في الحقيقة محرر المجلة ، وكان طالباً من كلية اكستر يدعى جون فرانسيس بلوكسام .

وفي سبتمبر ١٨٩٤ اشترى فرانك هاريس صحيفة الـ « ساتر داي ريڤيو » ، فظهر في عددها الصادر في ١٧ نوفمبر تسعة عشر من هذه الأقوال تحت عنوان : « قليل من الأمثال لتعليم من تجاوزوا الحد في علمهم » ، وقد ظهرت بغير توقيع . ومع أن هذه الأقوال لم تسجل بواسطة ستيوارت ماسون في « سيرة أوسكار وايلد » (١٩١٤) ، ولم يفكر أحد في أنها من وضع وايلد ، إلا أنها من عمله بالتأكيد . ومن بين تسع صفحات من الأصل الخطي للمتناقضات الموجود في « كلارك » يوجد خمسة من هذه الأقوال بخط وايلد . وفيما يلي تلك الأقوال التسعة عشر :

قليل من الأمثال لتعليم من تجاوزوا الحد فى علمهم(*)

التعليم شىء بديع . ولكن من المفيد أن يتذكر المرء من حين إلى آخر أن شيئاً ما يستحق التعلم لا يمكن تعلمه .

الرأى العام يوجد فقط حينما لا يكون هناك آراء .

إن الإنجليز يهبطون دائماً بالحقائق إلى مستوى الوقائع . وحينما تصبح الحقيقة واقعة تفقد كل قيمتها العقلية .

إنه لأمر جد محزن ألا يكون هناك اليوم إلا القليل من المعلومات التى لا فائدة فيها .

إن ما ترك لنا فى انجلترا فى الوقت الحاضر من صلة بين الأدب والتمثيلية هو قائمة حساب الرواية فقط .

كانت الكتب فى الزمن الماضى تكتب بواسطة الأدباء وتقرأ بواسطة الجمهور ، أما فى هذا الزمن فهى تكتب بواسطة الجمهور فلا يقرؤها أحد .

أكثر النساء صناعيات لدرجة أنه لا توجد فيهن حاسة للفن ، وأكثر الرجال طبيعيون لدرجة أنه لا توجد فيهم حاسة للجمال .

الصداقة أبعد كثيراً من الحب فى أساها ، فهى تدوم وقتاً أطول .

(*) الكلمة هنا ترجمة لكلمة Maxim ، وهذه الكلمة لاتعنى بالضبط كلمة مثل بل تشير إلى كلمة حكيمة تتضمن من الحقائق مايناقض المفهوم السائد ، وتوضع غالباً فى صيغة من التهكم . وقد شاع هذا اللون من « التوبيخ بالمغزى » فى الأدب الفرنسى فى القرن السابع عشر . وبخاصة فى أساليب « لاروشفيكو » و « باسكال » .
« المترجم »

ما هو شذوذ فى الحياة يقف فى علاقات طبيعية بالنسبة إلى الفن .
إنه الشيء الوحيد فى الحياة الذى يقف فى علاقات طبيعية بالنسبة إلى الفن .

الموضوع الجميل فى ذاته لا يعطى الفنان أى إيحاء . فهو يفتقر إلى عدم الكمال .

الشيء الوحيد الذى لا يستطيع الفنان أن يراه هو الواضح ، والشيء الوحيد الذى يستطيع الجمهور أن يراه هو الواضح ، والنتيجة هى نقد الصحفى .

الفن هو الشيء الوحيد الجاد فى الحياة ؛ والفنان هو الشخص الوحيد الذى لا يمكن قط أن يكون جاداً فى الحياة .

لكى يكون المرء من أبناء القرون الوسطى حقا يجب أن يكون بغير جسد ؛ ولكى يكون عصرياً حقا يجب أن يكون بغير روح . أما إذا أراد أن يكون إغريقيا حقا فيجب أن يتجرد من ملابسه .

الأناقة إثبات لعصرية الشباب إلى أبعد حد .

الشيء الوحيد الذى يمكن أن يعزى المرء عن فقره هو الإسراف ؛ والشيء الوحيد الذى يمكن أن يعزى المرء عن غناه هو الإمساك .

يجب ألا ينصت المرء قط ، فالإنصات علامة على عدم الاهتمام بمن يستمعون إليه .

حتى التلميذ له فوائده ، فهو يقف خلف عرش المرء ، وفى لحظة انتصاره يهمس فى أذنه بأنه ، بعد كل شيء ، من الخالدين .

إن طبقات المجرمين قريبة منا جدا لدرجة أن الشرطى يستطيع أن يراهم ؛ وهى بعيدة عنا جدا لدرجة أنه لا يفهمهم سوى الشاعر .

أولئك الذين تحبهم الآلهة يصيرون شباباً .

٥٧ — ظهرت قصيدة لورد ألفرد دوجلاس « حُبَّان » فى صحيفة « الحرباء » ، (انظر تعليق ٥٦) وقد تليت فى المحكمة ، وجاء فى سطورها الأخيرة :

« إننى حب حقيقى ، فأنا أملأ
قلبى الفتى والفتاة بنار متبادلة » .
فقال الآخر متنهداً : « لك مشيئتك ،
فأنا الحب الذى لا يجرؤ على النطق باسمه » .

وقد أعاد دوجلاس نشر القصيدة فى كتابه الأول « أشعار » (١٨٩٦) ، غير أنه لم ينشرها فى « مصباح الروح » (١٨٩٩) ، إلا أنها ظهرت ثانية ومعها تبرير فى ديوانه « أشعار وجدانية » (١٩٣٥) .

٥٨ — أول مارس ١٨٩٥ .

٥٩ — تشارلس أوكتافيوس همفريز Charles Octavius Humphreys (١٨٢٨ — ١٩٠٢) ، من مكتب « همفريز ، وولده ، وكيرشاو » . كان محامى وايلد فى كل محاكماته .

٦٠ — هذا المبلغ (أو ٦٧٧ جنيها على وجه الدقة) كان جملة التكاليف المقررة التى أصبحت لكوينزبرى بسبب القضية التى رفعها وايلد عليه فلم تنجح . وقد بلغت جملة ديون وايلد ٦٠٠٠ جنيه ، غير أن كوينزبرى كان الدائن المتقاضى الذى أدت قضيته إلى إعلان إفلاس وايلد .

٦١ — درَمْلانرِيج .

٦٢ — ارجع إلى الصفحات السابقة فيما يتعلق بهذه الجملة .

٦٣ — ارجع إلى الصفحات السابقة فيما يتعلق بذلك .

٦٤ — كان درملانريج ، الابن الأكبر لكوينزبرى ، يعمل سكرتيراً خاصاً لـ « لورد روزبرى Lord Rosebery » (وزير الخارجية فى حكومة غلادستون الأخيرة) ، فمنح فى عام ١٨٩٣ لقب بارون « كالهد Kelhead » فى سلسلة ألقاب الاتحاد (يلاحظ أن جميع ألقاب أسرة كوينزبرى ترجع إلى أصل اسكوتلندى) . وقد امتدح كوينزبرى هذا الفعل فى البدء ، وكتب شاكراً إلى غلادستون . ولكن لم يمض شهور حتى عاد فبعث بخطابات مفعمة بالسباب إلى الملكة ، وإلى غلادستون ، وإلى روزبرى ، وإلى ابنه نفسه . بل إنه تبع روزبرى إلى هامبورج مهدداً بقرعه بالسوط ، ولم يقنعه بالرجوع سوى أمير ويلز .

٦٥ — كانت هذه البرقية بتاريخ ٢ أبريل ١٨٩٤ ، وقد جاء فيها :

« يا لك من رجل قصير مضحك ! »

٦٦ — انظر الصفحات السابقة .

٦٧ — انظر « » .

٦٨ — فى ٦ من أبريل عام ١٨٩٥ اتهم وايلد فى محكمة الشرطة فى « بو ستريت » بجرائم تقع تحت القسم الحادى عشر من لائحة تعديل القانون الجنائى لعام ١٨٨٥ ، وقد رفض القاضى ، سير جون بريدج ، الإفراج عنه بكفالة ، فسجن فى « هولواى » حتى بدأت محاكمته الأولى فى « أولد بيلى » فى ٢٦ من أبريل أمام القاضى تشارلس . وفى أول مايو لم يوافق المحلفون ؛ فصدر الأمر بتشكيل هيئة محاكمة أخرى . وفى ٧ من مايو أفرج عن وايلد بكفالة . وفى ٢٠ من مايو بدأت محاكمته الثانية فى « أولد بيلى » أمام القاضى ويلز . وفى ٢٥ من مايو ثبتت

إدانته ، فحكم عليه بالسجن عامين مع الأشغال الشاقة . وقد قضى الستة شهور الأولى من مدة عقوبته فى سجنى « بنتونفيل » و « واندسورث » ثم قضى الباقى فى سجن « ريدنج » . للاطلاع على خبر محاكماته وافياً انظر محاكمات أوسكار وايلد ، بقلم هـ مونتجمرى هايد (١٩٤٨) .

٦٩ — حينما كان وايلد فى سجن « هولواى » فى انتظار المحاكمة . قامت صحيفة « ستار » فى أبريل ١٨٩٥ بفتح باب المراسلة واسعاً حول قضيته . وفى ١٥ من أبريل هب « روبرت بوخانن Robert Buchanan » (وهو مؤلف ومسرحى ١٨٤١ — ١٩٠١) فكتب ما يأتى :

سيدى ،

أوَ ليس هذا هو الوقت المناسب لإدخال ولو قليل من البر، مسيحياً كان أو معارضاً المسيحية ، إلى هـذه الأرض المسيحية الشعارات والقوانين؟... إننى أرغب ، فى غير تردد وكيفما كان الأمر ، فى تسجيل احتجاجى على ما أبداه الإنجليز من جبن وقسوة نحو واحد كان ، حتى الأمس القريب ، متميزا كمساهم فى الطريق المشروع ، فى وسائل لهونا ، وواحد مهما قيل وحدث فى شأنه فإنه عالم وأديب . إن قضيته لا تزال تحت نظر القضاء . وحتى لو استطاع المرء أن يسلم لحظة واحدة بأنه كان مذنباً ، فهل يقوم فى ذلك أى سبب لإصدار الحكم على أعماله ، بينما نعلم فى قرارة نفوسنا أنها بريئة ؟ أكثر من ذلك ، لنسأل أنفسنا : من هم أولئك الذين يقذفون بتلك الأحجار ، وهل « هم بلا خطيئة بيننا » ، أم انهم هم أنفسهم الفاسدون بصورة فاضحة ؟

المخلص

روبرت بوخانن

وقد رد لورد كوينزبرى فى ١٨ من أبريل قائلا :

تسلمت خطابات كثيرة بغير توقيع . وفى هذا الصباح لفت بمضهم نظرى إلى هذا الخطاب من مستر بوخانن . فهل يمكن أن يكون قد جاء منه هو نفسه ؟ أم تراه جاء منه وحيا ؟ لم يكن لى شرف التعرف بمستر بوخانن ، ولكن من الواضح أنه يوجه إلىّ سؤالا فى هذا الخطاب ، فهو يقول : « من هم الذين يقذفون بهذه الأحجار ؟ » ، وهل هم بغير خطيئة ، أم أنهم أولئك « الذين هم فاسدون بصورة فاضحة » . فهل يرى مستر بوخانن أنه هو نفسه بغير خطيئة ؟

كوينزبرى

وفى ٢٠ من أبريل ظهر فى الصحيفة ما يأتى :

١٩ أبريل شلكوت هاوس ، لونج ديتون

سيدى ،

عندما يتخذ الجمهور البريطانى العظيم قراره البريطانى العظيم بسحق أى منكود حظ غريب يراه واقعاً فى قبضته فهو ينجح غالباً فى الوصول إلى غرضه . وهو بالطبع ليس محباً لأولئك الذين يتساءلون عن مدى قوته وماله من حق ليفعل مايهوى . ولذلك فإننى أشعر بأننى أضع حياتى بين يدى إذا ما جرؤت على رفع صوتى ضد ما يصدر من ترديد من تلك الشراذم التى مضت تطارد مستر أوسكار وايلد قصد تدميره ، وذلك بمقدار ما أطمئن إلى أن هذا الجمهور قد اتخذ قراره بقبولى ، كما قبل أى شخص وأى شىء يتصل بهذه القضية على أساس تقدير مستر كارسون . إننى ، بالطبع ، ذلك الابن العاق الذى مضى فى كبرياء وحماقة يرفس كل ماحباه به والده الشفوق الودود ، ثم ضاعف من جرمه بعدم ذهابه بعيدا ليوارى

وجهه بعد اندحار صديقه . انه ليس بالوضع الذى يسر المرء أن يجد نفسه فيه فيما يختص بالجمهور ؛ غير أن الحالة لا تخلو من عنصر من المزاح المخيف . وليس فى نيتى أن أحاول شرح موقفى أو الدفاع عن وضعى . فأنا ببساطة ذلك الصوت الذى يشعر بأنه فى قفر صاخب ، فلا يسعه إلا أن يرتفع باحتجاج واهن ، لا مؤملا فى مقاومة موجة الصخب الشعبى أو دفعة اللغب الصحفى ، بل كل ما يرتجيه أن يلقى نداءه أذنا وعطفا من جانب واحد أو اثنين من الرجال والنساء ... من الأقوياء الذين لا يخافون شيئاً : أولئك الذين سبق أن تحدوا صراخ الغوغاء . إلى مثل هؤلاء ألتجىء ، ليتدخلوا ويضربوا على يد « القضاء العرفى » . فالواقع إن مستر أوسكار وايلد قد حوكم بواسطة الصحافة قبل أن يحاكم بواسطة المحلفين . وقد نظر فى قضيته بعين التحامل بصورة تكاد تكون ميئسة من جانب الجمهور الذى سيسحب منه محلفون لإصدار الحكم فيها . وقد سلم عمليا وهو مقيد لغضب رعاع يتسمون دائماً بالجبن والوحشية . إن سير جون بريدج برفضه اليوم مسألة الكفالة إنما يقرر أنه لم يعلم بجريمة أخطر من تلك التى اتهم بها مستر وايلد . غير أن مستر وايلد قد اتهم ، فى الواقع ، باقتراف « جنحة » لا يعاقب القانون عليها بأكثر من السجن عامين مع الأشغال الشاقة أو بدونها ، كأقصى حد للعقوبة . وعليه فإن الجريمة التى اتهم بها تعتبر طفيفة نسبياً فى نظر القانون الذى يمثله سيرجون بريدج ، كما هو مفروض . فياحبذا لو استطعت أن أعلم كيف استطاع سيرجون بريدج ، باعتبار تلك الحقيقة ، أن يوفق بين ما أملاه عليه ضميره وبين موقفه كمنفذ للقانون تماما بغير تحيز ؛ وما إذا كان ليس واضحاً ، فيما جاء فى قوله ، انه قد سمح لمشاعره الشخصية بأن تطغى فى بعض النقاط على إدراكه للعدل المطلق ، ليتحامل

على الرجل الذى اتهم أمامه ؟ وإذا كان واحد من قضاة الشرطة امتدت خبرته خمسة وعشرين عاما يظهر مثل هذا التحامل الواضح فماذا ينتظر من الرجال الذين ستتشكل منهم فى « أولد بيلى » هيئة المحلفين التى ينعتها القانون فكاهة فيما يتعلق بمستر أوسكار وايلد بـ « مجلس أمرائه » ؟

هناك ألف شيء آخر يمكن أن يثار . غير أنى لست الشخص الذى يتكلم فى ذلك . بل ولست فى وضع أستطيع فيه أن أرد على مثل تلك القطعة النفيسة من الرياء والأسلوب الردىء القواعد التى ظهرت فى عددكم الصادر اليوم موقعة باسم لورد كوينزبرى . بل أفضل أن أتركها فى ارتياح لمشاعر الرحمة التى أبداها فى رقة مستر روبرت بوخانن . وهو من يجب أن أوجه إليه الشكر باسم العدالة ، والإدراك السليم ، والخير المسيحى ، على خطابه النبيل .

خادمكم المطيع
الفرد دوجلاس

واستمرت المراسلة فى خطابات أخرى من «بوخانن» و «دوجلاس» حتى يوم ٢٥ من أبريل (وهو اليوم السابق لافتتاح محاكمة وايلد الأولى) حيث كتب كوينزبرى :

لو كنت فى محل السلطة التى لها الحق فى تقدير عقوبته لعاملته ، من جميع الاعتبارات ، على أنه لا مجرماً سليم الإدراك بل منحرف جنسياً بسبب مرض عقلى تام فإذا كان هذا يعتبر عطفا فإن مستر وايلد يستطيع أن يحصل عليه منى إلى هذا الحد .

٧٠ ـ اتخذت صحيفة « تروث Truth » ، وكان يصدرها «لابوشير»[1] .

موقفاً معادياً عنيفاً من وايلد أثناء محاكمته وبعدها . وفي يوم ١٣ من يونيه ١٨٩٥ نشرت ما يأتي :

تلقيت خطابا طويلا من لورد ألفرد دوجلاس أوضح فيه أنه لن يدخل معي في نقاش في موضوع رآني فيه « متعصباً تماما » ، ويأسف على ما عومل به أوسكار وايلد من « صرامة وتحامل » لإدانته « بجناية كبيرة » ، ثم قال إنني لم أكن عادلا حينما اتهمته بالجبن ، واستمر يقول :

« لقد بقيت ثلاثة أسابيع بعد القبض على مستر وايلد ، وكنت أزوره يوميا ؛ وقد فعلت كل شيء خطر ببالي قصد مساعدته ، ولم أتركه في اليوم السابق لمحاكمته إلا بعد إلحاح شديد منه ومن دفاعه ؛ فقد أكد لي محاميه أن وجودي في البلاد لن يتأتى منه إلا الضرر له ، وأنني إذا دعيت لتأدية الشهادة فسأقضي بذلك بالتأكيد على الفرصة القليلة الباقية أمامه لتبرئته . وقد رفض دفاع مستر وايلد بصورة باتة أن يستدعيني كشاهد ؛ إذ كان يخشى من الأذى الذي قد يلحق به في حالة المواجهة الاستجوابية . ولو كنت دعيت بأي سبب كشاهد فإن ذلك كان لا بد أن يحدث فقط بعلم طلب من جانب الادعاء . والآن يا سيدي فيجب أن تؤدي للشيطان حقه . ولكن إذا سلمنا جدلا بأنني حدث سافل شاذ فليس من حقك أن تدعوني جباناً . وكان أولى بك أن تفكر فيما قمتُ به لترى أهو يتوافق مع الجبن أو لا يتوافق : فقد بقيت ثلاثة أسابيع في لندن ، متوقعاً كل يوم ، بل كل لحظة ، أن يقبض علي لألقى نفس المصير الذي لقيه مستر وايلد . وكنت أثناء ذلك أتلقى كل يوم خطابات تحذير تحمل التوسل من جميع أصدقائي وأقاربي لأغادر وأنجو بنفسي ، وقد صمدت لما وجه إلي من أذى من كل صعلوك من النفعيين في انجلترا » .

ولا شك فى أن هذا الأخلاقى الشاذ قد أوتى الشجاعة فى آرائه . وإنما المؤسف أن هذه الآراء ، أيا كانت ، لم تتح لها الفرصة لتكون موضع تأملاته فى واحدة من زنزانات « بنتونفيل » .

وفى ٢٨ من يونيه كتب دوجلاس أيضا خطابا طويلا إلى « و . ت . ستيد W. T. Stead » محرر « مجلة المجلات Review of Reviews » ، (وقد نشر هـذا الخطاب فى « المحاكمات » صفحات ٣٦٠ — ٣٦٢) ؛ كما نشر مقالا فى أول يونيه ١٨٩٦ فى الـ « المجلة البيضاء Review Blanche » تحت عنوان « مسألة وايلد » .

---

(١) هنرى دو برى لابوشير Henry Du Pré Labouchere (١٨٣١ — ١٩١٢) كان عضوا فى الحزب الراديكالى فى البرلمان عن دائرة « نورثمبتون » (١٨٨٠ — ١٩٠٥) وقد أسس صحيفة « تروث » فى عام ١٨٧٦ . وكان هو المسئول عن إدخال فقرة فى لائحة تعـديل القانون الجنائى (١٨٨٥) هى التى أدت إلى إدانة وايلد. وبعد صدور الحكم على وايلد كتب لابوشير فى صحيفة « تروث » قائلا أنه يأسف لأن الحد الأقصى للعقوبة التى اقترحها خفض إلى عامين بدلا من سبعة .

٧١ — كان فردريك اتكينز Frederick Atkins يعمل أحيانا عدادا فى لعبة البلياردو ، وأخرى كاتباً فى مكتب مراهنات على السباق . وعندما اتخذ موقفه كشاهد إثبات فى المحاكمة الأولى لوايلد مضى يزور بصورة فاضحة ، وهو ما جعل القاضى يصفه فى تقريره بأنه « متهور كبير لا يعتمد عليه ، ومستهتر ، وكاذب ، كشاهد » . وقد أمكن

تبرئة وايلد من التهم التى وجهت إليه على أساس شهادته ، وذلك بالرغم من اعتراف وايلد نفسه بأنه صحبه مرة فى إحدى رحلاته إلى باريس .

٧٢ — ١ . الملوك ٢٢ ، ٣٤ .

٧٣ — انظر « أوتيلو » الفصل الثانى ، المشهد الثالث .

٧٤ — روبرت هاربورو شيرارد Robert Harborough Sherard (١٨٦١ — ١٩٤٣) . مؤلف وصحفى . كان أبوه « ب . شيرارد كندى » من رجال الدين ؛ غير أنه أسقط الاسم العائلى فى شبابه ، فعرف دائماً باسم شيرارد . وهو حفيد « وردسورث » . وقد أمضى الشطر الأكبر من حياته فى فرنسا وفى كورسيكا . وكتب بين ما كتبه ترجمة لحياة كل من « زولا » و « دوديه » و « موباسان » ، (وقد عرف كلاً منهم شخصيا) وكان أول لقاء له مع وايلد فى باريس . وقد كتب عنه أربعة كتب : « أوسكار وايلد : قصة صداقة تعيسة » (١٩٠٢) ، « حياة أوسكار وايلد » (١٩٠٦) ، « أوسكار وايلد الحقيقى » (١٩١٥) ، «برنارد شو ، فرانك هاريس ، أوسكار وايلد» (١٩٣٧) ، وذلك بجانب عدد كبير من الكراسات .

٧٥ — فى أغسطس ١٨٩٥ ، بينما كان دوجلاس فى « سورنتو » كتب مقالا ضمنه دفاعاً حارا عن وايلد ، وكان فى نيته أن ينشره فى صحيفة « ميركير دى فرانس » . إلا أن وايلد ، وقد سمع بأن المقال يحتوى على بعض الخطابات التى كتبها إليه من سجن « هولواى » ، طلب إلى شيرارد أن يحول دون نشره . وقد فعل شيرارد ذلك ، فلم يقدر لذلك المقال أن ينشر قط . وكان دوجلاس قد كتبه بالإنجليزية ، وقام أصدقاء له بصياغته فى الفرنسية . وتوجد صورة من هذه الترجمة لدى « برنستون Princeton » ، كما أن الأصل الأساسى تحت يد « هنرى د .

دافراى Henry D. Davray » ، كما أعتقد . وهناك تصحيحات كثيرة قامت بها يد ثانيـة (ربما كانت من عمـل بعض محررى الـ « ميركير د فرانس») ، كما أن ترجمات الخطابات الثلاثة من عمل يد ثالثة . وهذه الأيدى الثلاث ، كما هو واضح ، كانت لأشخاص من الفرنسيين ، أو ممن مارسوا الـكتابة بالفرنسية . وقد اطلع «ستيوارت ماسون» بطريقة ما على هذه الوثائق ، وترجمها ثانية إلى الانجليزية (.TS كلارك) . وقد اعتمدتُ فى نص الخطاب التالى وما يليه على طبعـة « ماسون » ، غير أنى لم أتردد فى تغيير كلمات ، بل وعبارات ، لاحظت أنها سايرت الأسلوب الفرنسى ، فأخرجتها فيما رأيت أنه أقرب إلى لغة وايلد وقد تابعت الصيغ المستعملة فى جمل كثيرة جاءت فيما كتب دوجلاس من ترجمة لحياته هو نفسه (١٩٢٩) . وربما تأثرت كلمات وايلد من هذا كله بعض الشىء ، غير أن جوهر هذه الـكلمات لا يمكن أن يتسرب إليـه الشك . وقد ذكر دوجلاس فيما بعد أنه أعدم ١٥٠ من خطابات وايلد إليه ، ومن بينها تلك التى بعث بها إليه من سجن « هولواى » .

وكان قد ذكر فى المقال أن وايلد كتب على المظروف الذى تضمن هذا الخطاب هذه الـكلمات : « يرسل بعد صدور الحـكم من الحلفين » ؛ وقال أنه لم يرسل فى الواقع إلا بعد صدور الحـكم من هيئة المحلفين الثانية ، فى ٢٥ من مايو .

إلى لورد ألفرد دوجلاس :

مساء الاثنين [٢٩ أبريل ١٨٩٥]

سجن صاحبة الجلالة ، هولواى

أى أعز غلام علىّ ،

أكتب لأؤكد لك حبى الخالد ، بل حبى الأبدى . غدا يكون كل

شيء قد انتهى . فإذا كان السجن والعار ما قدر عليّ ، فاذكر أن حبي لك ، وأن هذه الفكرة ، التي أصبحت أقوى كاعتقاد مقدس ، وهي انك تحبني مقابل ذلك ، هذا وذاك سيساعدني في وضعي التعيس ، ويجعلني قادراً ، كما أرجو ، على تحمل حزني في أجمل حالة من الصبر . ولما كان الأمل في الالتقاء بك ثانية في أي عالم ، بل والوثوق من ذلك ، هو الغرض من حياتي الحاضرة ، بل والمشجع عليها ... ! فيجب أن أواصل حياتي في هذا العالم بذلك السبب .

عزيزي ،

حضر ... (1) اليوم ليراني ، وحملته عدة رسائل لك . وقد أخبرني شيئاً أعاد الثقة إلى نفسي ؛ فقد قال إن والدتي لن تكون قط في حاجة إلى شيء ما . لقد عملت دائماً على أن أعد لها كل ما تتطلبه معيشتها ، وكنت أشعر بتعاسة كلما تصورت أنها قد تقاسي من ضروب الحاجة . أما عنك (أيها الفتى الرشيق ، بقلبك الذي يشبه قلب المسيح) ، أما عنك فإنني أرجوك أن تسرع بالرحيل إلى إيطاليا ، بعد أن تكون انتهيت من عمل ما تستطيعه ، لتستعيد هدوءك ، ثم تمضي في كتابة تلك الأشعار الجميلة التي تعرف كيف تضمها في مثل ذلك الجمال العجيب . لا تعرّض نفسك لانجلترا بأي سبب مهما كان . فإذا حدث يوما أن استطعنا أن نقيم معاً في منزل صغير في إحدى الجزر المسحورة ، بجزيرة « كورفو Corfu » أو غيرها ، أوه ! ... فلا شك أن الحياة تكون أحلى مما كانت قط فيما مضى . إن حبك ذو أجنحة عريضة ، وهو من القوة بحيث ينفذ إلى من خلال حواجز السجن ويريحني ، بل إنه النور الذي أستضيء به في هذه الساعات الحالكة . إنني أعلم أن أولئك الذين لا يعلمون ما هو الحب سيكتبون ، إذا ظل الحظ معاكساً لنا ، انه كان

لى تأثير سيء على حياتك . فإذا فعلوا فيجب أن تكتب بدورك ، يجب أن تقول إن ذلك ليس صحيحاً ، فقد كان حبنا دائما جميلا ونبيلا . وإذا كان قد قدر علىّ أن أصبح هدف الرمى فى مأساة مريعة ، فقد كان ذلك لأن طبيعة ذلك الحب لم تفهم . لقد قلتَ فى الخطاب الذى جاءنى منك هذا الصباح شيئاً بث فىّ الشجاعة ، وهو ما أحب أن أذكره . فقد قلت إن واجبى نحوك ونحو نفسى يحتم على أن أعيش بالرغم من كل شيء . أعتقد أن هذا صحيح ، وسأحاول أن أفعل ذلك . أريد أن تجعل مستر همفريز على علم دائماً بتنقلاتك . فإذا جاء إلى استطاع أن يدلى إلىّ بأنبائك . وكما أعتقد فإن من المسموح به للمحامين أن يروا موكليهم فى السجن بطريقة معقولة . وهكذا يمكن أن نتبادل المراسلة .

انى سعيد لأنك ذهبت بعيداً(٢) . ولست أجهل مالابد أن تكون قد تكلفته فى سبيل ذلك . لقد كنت أشعر بهمّ شديد كلما ذكرت أنك لا تزال فى انجلترا بينما كان اسمك يتردد فى المحكمة . أرجو أن يكون لديك نسخ من جميع كتبى ، فقد بيع كل ما كان فى حوزتى(٣) . إنى أمد ذراعىّ نحوك ... أوه ! أرجو أن أعيش حتى ألمس شعرك ويديك . أعتقد أن حبك سيسهر على حياتى . فإذ قدّر على أن أموت ، فإنى أريد لك أن تحيا حياة لطيفة هادئة فى أى مكان ... مع الزهور ، والصور ، والكتب ، ووفرة من الإنتاج الأدبى . حاول أن تجعلنى أسمع أنباءك سريعاً . إننى أكتب إليك هذا الخطاب فى مكابدة شديدة ؛ فهذا اليوم الطويل الذى قضيته فى المحكمة قد استنفد كل قواى . أى أعز ولد ، وأحلى شاب ... يا أجمل من أحببتُ وأعظم محبوب ! ... أوه ... انتظرنى ... انتظرنى ! فأنا كما كنت منذ اليوم الذى التقينا فيه : مَن كرس نفسه لك مع حب خالد .

اوسكار

(١) اسم حذفه دوجلاس

(٢) ترك دوجلاس انجلترا فى ٢٥ من أبريل ، أى فى الليلة السابقة المحاكمة الأولى لوايلد ، وقد فعل ذلك عن غير رغبة منه ، بل تحت ضغط الرجاء الشديد الذى وجهه إليه دفاع وايلد . وقد توقف فى « كاليه » وفى « روان » ثم فى باريس .

هناك واحد من الخطابات الثلاثة الوحيدة التى أمكن العثور عليها من خطابات دوجلاس إلى وايلد (MS. كلارك) ، هذا نصه :

الأربعاء ، ١٥ مايو ١٨٩٥ فندق العالمين

٢٢ شارع الأوبرا ، باريس

حبيبى أوسكار ،

وصلت توا إلى هنا . وإنه لأمر فظيع ألا تكون معى . غير أنى أرجو أن تلحق بى فى الأسبوع القادم . كانت « دييب » مخيفة لأى شىء . وحق « الخيول الصغيرة » لم يتح الوصول إليها ، إذ كان الكازينو مغلقاً . غير أن الناس هنا ظرفاء ، وقد رأيت أنى أستطيع البقاء هنا طالما شئت بغير أن أدفع قائمة الحساب . وهو شىء حسن ، إذ أنى مفلس تماما . إن مدير الفندق لطيف جداً ، وعطوف إلى أبعد حد . وقد سأل عنك فى الحال ، وأعرب عن أسفه وسخطه لما لقيته من معاملة . يجب أن أرسل هذا الخطاب بواسطة عربة إلى « محطة الشمال » ليلحق بالبريد ، إذ انى أريد أن يصلك فى أول دفعة من بريد الغد .

سأرى ما إذا كنت أستطيع العثور على « روبرت شيرارد » غدا ، إذا كان فى باريس .

إن « تشارلى » معى ، وهو يبعث إليك بأعظم حبه . لقد

تلقيت هـذا الصباح خطاباً طويلا عنك من « مور » . يجب أن تحتفظ بقواك المعنوية يا أعز أحبابي . إنى أواصل التفـكير فيك نهاراً وليلا ، وأبعث إليك بكل حبي .

إنى دائماً غلامك المحب المخلص بوزى

« كان معى الشاب « تشارلى هيكى » ، (وهو ولد ساحر يصغرنى بعامين ، ومعروف جدا لأوسكار ، فهو ابن الـكولونيل هيكى) » .

(من سيرة حياة لورد ألفرد دوجلاس بقلمه ، ١٩٢٩) .

(٣) محتويات المنزل رقم ١٦ ، تايت ستريت ، بما فيها جميع كتب وايلد وأوراقه ، بيعت جبريا فى ٢٤ من أبريل ، وذلك بإصرار من دائنيه .

إلى لورد ألفرد دوجلاس[1]

[مايو ١٨٩٥] [٢ كورنفيلد جاردنز ؟] [2]

أما عنك ، فقـد أعطيتنى جمال الحياة فى المـاضى ، وفى المستقبل ، إذا كان هناك مستقبل . وهـذا هو السبب فى أنى سأبقى مديناً لك إلى الأبد بما ألهمتنى من معانى العبادة والحب . إن تلك الأيام التى أفعمت بالسرور كانت فجرنا . أما الآن ، فى الـكرب والألم ، فى الحزن والتحقير ، فإنى أشعر بأن حبى لك وحبك لى هما العلامتان المميزتان

(١) التثبت من هذا الخطاب الناقص انظر ما سبق .

(٢) عندما أفرج عن وايلد بكفالة من سجن «هولوواى» فى ٧ من مايو ، لم يجد فندقا يقبل حلوله به ، فاضطر إلى الالتجاء إلى مسكن والدته فى «أوكلى ستريت» وبعد أن بقى أياما قليلة أخذته عائلة « ليفرسن » فى منزلها رقم ٢ فى « كورنفيلد جاردنز » ، حيث بقى حتى افتتحت محاكمته الثانية وأثناء المحاكمة ، حتى صـدور الحـكم عليه فى ٢٥ من مايو .

لحياتى : المشاعر المقدسة التى تجعل من المرارة شيئاً أستطيع تحمله . لم يكن هناك قط واحد أعز منك فى حياتى . ولم يكن هناك أى حب أعظم ولا أكثر قداسة ، ولا أروع جمالا ...

غلامى العزيز ،

بين المسرات , أو فى السجن ، كنتَ وكان تفكيرى فيك كل شىء لى . أوه ... احتفظ بى دائما فى قلبك ، فأنت لا تغيب عنى قط . إننى أفكر فيك أكثر مما أفكر فى نفسى . وإذا كانت فكرة العذاب الشائن المريع تطغى علىّ أحيانا لتزيد فى عذابى ، فإن تفكيرى البسيط فيك يكفى لتقويتى وشفاء جراحى . فدع القدر ودع « نمسيس » ، ودع الآلهة غير العادلة تتلقى وحدها اللوم على كل ما حدث .

إن كل حب عظيم له مأساته ، وكذلك استوفى حبنا حظه من ذلك . ولكن يكفينى أن أكون عرفتك وأحببتك بمثل هذا التفانى ، ويكفينى أن أكون حصلت عليك فترة من حياتى أعتبرها الآن أجمل فترة . إن انفعالى لا يساعد على الوصول إلى كلمات . غير أنك تستطيع أن تفهمنى أنت وحدك . إن روح كل منا قد صنعت لتكون للأخرى . وبمعرفة روحك عن طريق الحب استطاعت روحى أن تتخطى شروراً كثيرة ، وتدرك الكمال ، وتدخل فى جوهر الأشياء المقدس .

إن الألم إذا ما أنى لا يستطيع أن يستمر إلى الأبد ؛ فمن المؤكد أنه سيأتى يوم نلتقى فيه ثانية أنت وأنا . ومع أن وجهى سيكون قد تحول إلى قناع من الحزن ، كما أن جسدى سيكون قد تمزق من الوحدة ، إلا أنك ، أنت وحدك ، ستستطيع حينئذ أن تميز الروح التى ستكون أكثر جمالا بلقاء روحك ... روح الفنان الذى وجد مثاله فيك ... روح المحب الذى رأى فيك كائناً كاملا لا شائبة فيه . إننى أفكر فيك

الآن كولد ذهبي الشعر يحمل بين جنبيه قلب المسيح . إنى أعلم الآن كيف يكون الحب أقوى كثيراً من أى شيء آخر . فقد علمتنى السر المقدس للكون .

إلى لورد ألفرد دوجلاس(١)

[٢٠ مايو ١٨٩٥] [٢ كورنفيلد جاردنز ؟]

طفلى ،

طُلب اليوم أن تصدر الأحكام على انفراد ، وربما كان « تيلور » يحاكم فى هذه اللحظة . وهكذا استطعت أن أعود ثانية إلى هنا . أى وردتى الحلوة ... أى زهرتى الرقيقة .. أى زنبقى من بين الزنابق ! ربما كان السجن هو المكان الذى أستطيع فيه أن أختبر قوة الحب . إننى ذاهب لأرى ما إذا كنت لا أستطيع أن أجعل من المياه المرّة حلوة بغزارة الحب الذى أحمله لك . لقد مرت بى لحظات فكرت فيها أن الأصوب هو الفراق . آه ، لقد كانت لحظات من الضعف والجنون . أما الآن فإننى أرى أن ذلك كان مشوهاً لحياتى ، مدمراً لفنى ، ومحطماً للأوتار الموسيقية التى تصنع نفساً كاملة . حتى لو كنتُ مغطى بالأوحال فإننى سأثنى عليك ، وحتى لو كنت فى أعمق هاوية فإننى سأهتف إليك وفى وحدتى ستكون معى . لقد صممت على ألا أثور ، بل أقبل كل إهانة بطريق التفانى فى الحب ، وأن أجعل جسدى يتحمل العار طالما كانت نفسى قادرة دائماً على الاحتفاظ بصورتك . إنك ، من شعرك الحريرى إلى قدميك الرقيقتين ، تبدو لى صورة من الكمال . إن السرور يخفى الحب عنا ، غير أن الألم يكشف عنه فى جوهره . أى أعز المخلوقات ... إذا جاءك من جرحه السكوت والوحدة ، وقد تجرد من

(١) للتثبت من نص هذا الخطاب انظر ماسبق .

شرفه وأصبح أضحوكة ، فإنك تستطيع بلمسة منك أن تلثم جراحه وتعيد إليه نفسه التي طوحت بها التعاسة بعض لحظات . لن يكون هناك شيء يصعب عليك حينئذ . ثم تذكر أن الأمل ، والأمل وحده ، هو الذي يجعلني أعيش . فأنت لي بمثابة الحكمة للفيلسوف ، والرب للقديس ، وأن هدفي من هذا العذاب الذي يسميه الناس الحياة هو أن أحتفظ بك في نفسي . آه ياحبي ، فأنت الذي أعز فوق كل الأشياء ، يانرجسة بيضاء في حقل مجهول ! فكر في العبء الذي يسقط عليك ، فليس هناك ما يستطيع أن يخففه سوى الحب وحده . ولكن لا يحزنك هذا ، بل أحرى بك أن تسعد ؛ فقد استطعت أن تملأ بالحب الخالد نفس رجل إن كان يبكي الآن في الجحيم فإنه يحمل الفردوس في قلبه . إنني أحبك !... إنني أحبك ! ... فقلبي وردة تفتحت بحبك ، وحياتي صحراء استروحت النسمات من أنفاسك الحلوة ، أما ينابيعها الباردة فإنها تتراءى في عينيك ، وإن انطباعات قدميك الصغيرتين توجد لي وديانا ذات ظلال ، وإن شذا شعرك كالعنبر(*) . وحيثما ذهبت تضوعت أنفاسك كالكاسيا .

حبي دائماً !... حبي دائماً ! فقد كنت أعظم وأكمل حب لحياتي ، ولا يمكن أن يكون هناك غيره .

لقد رأيت أنه كان أنبل وأجمل أن أبقى . لم يكن في استطاعتنا أن نكون معاً . ولم أكن أريد أن أدعى جبانا أو هاجراً . فليس من شيمتي أن أتركك تنكشف فوق ذلك التل المرتفع حيث تشوه الأشياء الجميلة ، لتكون اسماً كاذبا ، أو قناعاً ، أو حياة تطارد .

ياأجمل الأولاد ! ويامن أحببته أكثر من جميع الأولاد ! إن روحي

(*) الكلمة في الأصل هي myrrh ، وهي تعني « المر » ، ويبدو أن الأمر اختلط على وايلد فيما يتعلق بعطور الشرق . «المترجم»

تتملق بروحك . وإن حياتي هي حياتك ، وفي كل عوالم الألم والسرور فأنت مثالي للاعجاب والفرح .
اوسكار

٧٦ — « فلير ـ د ـ ليس Fleur-de-Lys » و « جونكيل Jonquil » كانا اسمي تدليل أطلقهما وايلد على لورد الفرد دوجلاس. وكان دوجلاس قد كتب قصيدة بعنوان «جونكيل وفلير ـ د ـ ليس» حول ابن ملك وصبي من الرعاة تبادلا ثيابهما. وقد نشرت هذه القصيدة في أشعاره (١٨٩٦) .

٧٧ — السطور الأخيرة من قصيدة وايلد « حول بيع خطابات كيتس الغرامية بالمزاد » .

٧٨ — «سيزار لمبروزو Cesare Lombroso» (١٨٣٦-١٩٠٩) مشرع إيطالي ومتخصص في علوم الجريمة . ترجمت له كتب كثيرة إلى الانجليزية.

٧٩ — في ٣ من يونيه ١٨٩٥ نشر الأديب والكاتب المسرحي الفرنسي « هنري بور Henri Bauer » مقالا قويا في صحيفة « صدى باريس » حمل فيه على بربرية الحكم على وايلد ، والغباوة في فرض عقوبة على ممارسة اللواط . وندد بنفاق الانجليز . وقد وصف « كوينزبري » بأنه « نوع من حيوان رياضي مؤذي ، وزوج سيء « ووالد شرير » ، وقال إنه مثال لانجلترا بما لها من شهرة في « تصنع الحياء » .

٨٠ — « تاريخ سانفورد ومرتون » كتاب تهذيبي للأطفال ، محبوب بصورة واسعة . وضعه «توماس داي Thomas Day» (١٧٤٨ — ٨٩) ، ونشر في الأصل في الأعوام ١٧٨٣ — ٨٩ .

٨١ — إلى لورد ألفرد دوجلاس[1]

[مارس ١٨٩٣] فندق سافوي ، لندن

أي أعز الأولاد جميعاً ،

كان خطابك سارا ، فقد كان لي بمثابة النبيذين الأحمر والأصفر :

غير إنى حزين ومنحرف المزاج .

بوزى ،

يجب ألا تدخل معى فى مشاجرات . فهذه الأمور تقتلنى . إنها تدمر جمال الحياة . إننى لا أستطيع أن أراك هكذا جمالا وقبحا . هكذا قد شوهك الانفعال . بلى ، لا أستطيع أن أستمع إلى شفتيك وقد تقوستا لتقول لى أشياءً قبيحة . بل إننى أفضل أن [أدفع أتاوة لكل مشهر فى لندن] على أن أتعرض لبغضك الجائر المرير . يجب أن أراك حالاً . فأنت الشىء المقدس الذى أريده ... الشىء الذى يجمع بين الحسن والجمال . غير أنى لا أدرى كيف أستطيع . فهل آتى إلى سالزبورى ؟ إن قائمة حسابى هنا ٤٩ جنيهاً عن الأسبوع . ثم إنى حصلت أيضاً على غرفة جلوس جديدة تطل على التايمز . فلم لا تكون أنت هنا ، ياعزيزى .. يا أعجب ولد لى ؟ أخشى أن أضطر إلى المغادرة ، فليس هناك نقود ، ولا رصيد ، وإنما هو قلب من رصاص .

المخلص لك

اوسكار

---

(١) هذا النص من «المحاكمات» (صفحتى ١٣٣ و ١٣٤) ، وقد أكمل من خطاب « د برفوندى » .

(٢) نقلت هذه الكلمات من خطاب « د برفوندى » . فقد رؤى على ما يبدو أنها كانت مما لا يصح قراءته فى المحكمة ، إما لغموضها أو لما تضمنته من معنى مخجل .

٨٢ — ارجع إلى تعليق ٨١ .

٨٣ — ارجع إلى الإشارة إلى ذلك فى الصفحات السابقة .

٨٤ — كتب وايلد فى الأصل « فى الثالث عشر من نوفمبر » .

٨٥ — « دعنا لا نتحدث إليهم ، بل لننظر ونمض جانبـــاً »
(الجحيم ، ٣ ، ٥١) .

٨٦ — ربما كانت الإشارة هنا إلى « الورقة الذهبية » ، وهى آلة قياس كهربية اخترعت فى عام ١٧٨٧ لتقصى شحنات الـكهرباء الاستاتيكية ، وان كانت كلمة « اتجاه » لا تعنى هنا شيئاً .

٨٧ — انظر تعليق ٢٧ .

٨٨ — « الجحيم » ٣٣ ، ١٣٥ — ١٤٧ .

٨٩ — يحتمل أن يكون ليفى « Levy » هذا شخصاً كان يشتغل مرابيا أو وكيلا شخصيا للاستعلامات . وهناك خطابان ، فى مخطوطات كلارك ، منه إلى وايلد : الأول كتب من « الفينستون لودج » فى « هيستنجز » فى ٢٦ من يناير ١٨٨٣ ، وفيه يطلب تحديد موعد فى لندن ؛ والثانى لم يذكر مكان تحريره وقد حمل تاريخ ١٧ من أبريل ١٨٨٤ ، وقد جاء فيه : « عزيزى مستر وايلد ، آسف لإهمالى الاهتمام بأشغالـكم ، ولـكننى كنت أعانى من برد شـديد . أرجو أن تـكون « الدانتلا » أعجبت الآنسة « لويد » . وتجدون من طيه شيك بمبلغ ٢٥ جنيها . المخلص ادوين ليفى » . وتشير كتب دليل هيستنجز إلى أن « إ . ليفى » كان يشغل « الفينستون لودج » من عام ١٨٨٣ إلى عام ١٨٩٥ ، وأن « م . ليفى » كان يشغله عام ١٨٩٦ .

وجاء فى عدد « التايمز » الصادر فى ١٠ من مايو ١٨٩٥ ما يلى :

تم حصر وتقييد إجمالى الممتلـكات الشخصية لمستر إدوين ليفى ، وهو ٢٦١,٥١٨ جنيها . ومستر إدوين ليفى كان أكبر مساهمى شركة متعهدى المرطبات المعروفة باسم « ج . ليونز وشركاهم (المحدودة) » ، ومن مؤسسى « شركة أوليمبيا (المحدودة) » . [وقد مات [فى وست

هامستد] فى ٢٦ من فبراير عن ٥٥ عاما ، بغير أن يترك وصية . وحولت خطابات الإدارة إلى أرملته ، مسز ماريون ليڤى » .

وذهب « سجل هامستد » أبعد فى وصفه ، فذكر أنه « لسنوات خلت كان الوكيل السرى للامبراطور نابليون الثالث » . غير أن « إيڤور جست Ivor Juest » يذكر فى كتابه « نابليون الثالث فى انجلترا ، ١٩٥٢ » أن الحكومة الفرنسية كانت مهتمة بمعرفة ماذا كان يحدث فى « ساحة كامدن » (تشيسلهرست) ، وقد استخدمت مخبراً خاصاً يدعى إدوين ليڤى ليقوم بتعيين وكلاء فى طاحونة الهواء فى الجانب الآخر من ملعب الكريكت ويوافيها بتقرير يتضمن أسماء الزوار الذين يتوافدون على المنزل . غير أن جواسيس مستر ليڤى كانوا هم أنفسهم موضع تجسس من آخرين . ففى كل صباح كانت توضع صورة من هذا التقرير على مائدة إفطار الامبراطور .

وليس هناك صلة بين هذين الشخصين والآخرين اللذين كانا يقيمان فى هيستنجز إلا الأسماء والتواريخ . ويبدو أن الأمر مجرد مصادفة .

٩٠ — « ألفرد أوستن Alfred Austin » (١٨٣٥ — ١٩١٣) .
نجح أخيراً فى أن يخلف تنيسون فى منصب « شاعر الغار » فى عام ١٨٩٦ ، بعد أن بقى هذا المنصب شاغرا مدة أربعة أعوام . وفى عام ١٨٨٧(*) كتب وايلد فى « البال مال جازيت » يقول : « إن مستر أوستن لا هو بالأوليمبي ولا هو بالتيتانى ، فهو لا يستطيع أن يرقى إلى « بارناس » مهما حاول شغب الصلاة الربانية أن ينفخ فى روحه »(**)

(*) هكذا فى الأصل ، والأقرب إلى الصواب هو ١٨٩٧ . « المترجم »

(**) جبل بارناس Parnasse ، فى اليونان ، موطن الإله أبوللو والربات الملهمات . « المترجم »

وكان وايلد قد سئل فى عام ١٨٩٥ عمن يراه جديرا بأن يكون « شاعر الغار » التالى ، فكتب فى عدد أبريل من صحيفة « إيدلر Idler » يقول : « إن مستر سوينبورن هو من قبل شاعر الغار لانجلترا . فإذا كان تعيينه فى هـذا المنصب السامى لم يتسفل بالتوكيد الرسمى فإن هذا يجعل مركزه أكثر ثباتا . فالشاعر الذى يحبه جميع الشعراء هو بلا شك شاعر الغار دائما » .

٩١ — « جورج سلايت ستريت George Slythe Street » (١٨٦٧ — ١٩٣٦) صحفى وكاتب ، وهو مؤلف « سيرة حياة غلام » (١٨٩٤) وكتب أخرى .

٩٢ — فى ديسمبر ١٨٩٥ كتب « كوفنترى باتمور Coventry Patmore» (١٨٢٣ — ٩٦) إلى صحيفة « ساتر داى ريفيو » مؤيدا « مسز أليس مينل Mrs. Alice meynell » (شاعرة وناثرة ، ١٨٤٧ — ١٩٢٢) فى مطالبتها بلقب شاعر الغار الذى لم يكن يحمله أحد .

٩٣ — « صورة دوريان جراى » ، الفصل الخامس عشر . وقد ظهر هذا الفصل أولا فى طبعة الكتب فى عام ١٨٩١ .

٩٤ — سمع استدعاء « كونستانس وايلد » بواسطة القاضى « كيكيفتش Kekevich » فى مجلس العدالة فى ١٢ من فبراير ١٨٩٧ . وقد صدر أمر يخولها حق حضانة طفليها وتعيينها و « أدريان هوب Adrian Hope » حارسين . (انظر تعليق ١٦٧) .

٩٥ — « هملت » ، الفصل الأول ، المشهد الرابع .

٩٦ — ارجع إلى الصفحات السابقة بصدد ذلك .

٩٧ — « سكان الحدود » ، الفصل الثالث ، « فيه » يجب أن تكون « يشارك » .

٩٨ — « امرأة بغير أهمية » ، الفصل الرابع .

٩٩ — « امرأة بغير أهمية » ، الفصل الرابع .

١٠٠ — فى المقال الذى كتب عن « الشعر فى أعمال ميكل أنجيلو » .

١٠١ — « الجحيم » ، ٧ ، ١٢١ — ١٢٢ ، ترجمة « هـ . ف . كارى H. F. Cary » :

حزانى كنا مرة ،

فى الجو اللطيف الذى جعلته الشمس جميلا .

١٠٢ — « المطهر » ، ٢٣ ، ٨١ .

١٠٣ — ربما كانت هذه إشارة إلى السبت ٢٧ من فبراير ١٨٩٧ ، حينما قام روس وأدى بزيارة وايلد .

١٠٤ — ترجمة « كارليل » عن «جوته» فى «سنى تدريب معلم ولهم» ، الكتاب الثانى ، الفصل الثالث عشر ، حيث تكون كلمات « الظلام » أدق من « منتصف الليـــل » و « ترقب » أدق من « انتظار » و « الكئيبة » أدق من « السماوية » .

١٠٥ — هى لويزا Louisa (١٧٧٦ - ١٨١٠) ، زوجة الملك فردريك ولهم الثالث . قيل أنها كانت قد نقلت هذه السطور حينما كانت هى وزوجها فى فرارهما بعد معركة « چينا Jena » (١٨٠٦) . وبعد أن أوقعت الهزيمة ببروسيا بصورة تامة فى عام ١٨٠٧ ذهبت لويزا إلى « تيلسيت » لتتوسل عبثا إلى نابليون لتخفيف شروطه . ومع أنه أبدى القبول إلا أنه أراد أن يلطخ شرفها ، غير أنه لم يفلح .

١٠٦ — ارجع إلى الصفحات السابقة بصدد ذلك .

١٠٧ — «سوينبورن» ، « قبل الفراق » (أشعار وقصائد ، ١٨٦٦):

« نطعم » يجب أن تكون « نعيش على » .

١٠٨ — « اديلا شوستر » ، انظر تعليق ١١ .

١٠٩ — « ورد سورث » : « الرحلة » ، ٤ ، ١٣٩ .

١١٠ — « الفصول » ، ٣ ، ٢ .

١١١ — خطأ طفيف فى النقل عن القصيدة المنثورة التى وضعها وايلد بعنوان « الفنان » ، وقد ظهرت لأول مرة فى عدد يوليه ١٨٩٤ من صحيفة « فورتنايتلى ريفيو » . ثم أعيد طبعها فى كتاب « جريمة لورد أرثر سافايل وقطع نثرية أخرى » (١٩٠٨) .

١١٢ — لا بد أن وايلد كان هنـــا يفـكر فى مقال « باتر » عن « ورد سورث » الذى ظهر فى الـ « مستحسنات » فى عام ١٨٨٩ . فبعد أن اقتبس باتر عن ورد سورث فى عمليات عناصر ومظاهر الـكون المنظور ، وفى العاصفة وشروق الشمس ، وفى ثورات الفصول ، وفى البرودة والحرارة ، وفى فقدان الأصدقاء والأقارب ، وفى أنواع الإساءة والغل ، وفى عرفان الجميل والرجاء ، وفى الخوف والحزن ، علق على ذلك قائلا : « ان مشاهدة هذه المناظر بانفعالات متناسبة هو الهدف من الثقافة كلها » .

١١٣ — « ولـكن يبقى بعدُ السؤال : « ما هى الاستقامة حقا ؟ إنهـا الطريقة ، والسر ، والتعقل الجميل للمسيح » ، (الأدب والعقيدة ، الفصل الثانى عشر) .

١١٤ — الامبراطور « هليوجابالوس Heliogabalolus » .

١١٥ — مرقص ، ٥ ، ٥ و ٩ .

١١٦ — ارجع إلى الصفحات السابقة بصدد ذلك .

١١٧ — « أرسطو » ، « الشعر Poetics » ، الفصل الثالث عشر .

١١٨ — « ميلتون » ، « المفكر Il Penseroso » : « و » يجب أن تكون « أو » .

١١٩ — « الشعر Poetics » ، الفصل الثالث عشر .

١٢٠ — « ميلتون » ، (كومس Comu ، ٤٨٧) .

١٢١ — « جعل نفسه يُحبّ إلى درجة أن الناس لم يتوقفوا بعد موته عن حبه . هذا هو أعظم أعمال عيسى ؛ وهو ما كان أشد وقعاً على معاصريه (الفصل الثامن والعشرون) .

١٢٢ — « ماثيو أرنولد Mathew Arnold » ، « ليلة جنوبية » :

ونرى كل الناظر من قطب إلى قطب ،
ونلمّح ، ونومىء ، ونلغط جانباً —
ولا يحدث مرة قط أن نمتلك أرواحنا
قبل أن نموت .

١٢٣ — فى محاضرته «الواعظ» ، وقد نشرت بعد وفاته فى «محاضرات ومسودات لتراجم » ، (١٨٨٣) .

١٢٤ — ارجع إلى « دانتى » ، « الفردوس » ، ١٧ ، ٥٩ — ٦٠ :

يا له من طريق صعب .
أن تهبط وتصعد بعرقى الآخرين .

وإلى استهلال وايلد فى قصيدته « فيرونا » ، وقد نشرت فى أشعاره (١٨٨١) :

يا له من مرتقى منحدر فى بيوت الملوك
حينما تطأه أقدام أنهكها النفى ، كقدمىّ .

وقد استعمل من قبل السطر الأول فى قصيدته « رافنا Ravenna » (١٨٧٨) .

١٢٥ — من « رحلة إلى سيثير Cythère » فى « زهور الشر » (١٨٥٧) .

١٢٦ — ارجع إلى الصفحات السابقة بصدد ذلك .

١٢٧ — جبل «سيثيرون Cithaeron » كان مشهد حفلات «باخيلوس» الصاخبة فى تكريم « ديونيسس » ، ابن سيميلِ . وفى ذلك المكان ، حيث مروج « إنّا Enna » المتلئة بالزهور ، قبض « بلوتو » على « بروسربينا » وحملها إلى العالم السفلى .

١٢٨ — أشعياء ، ٥٣ ، ٣ :

١٢٩ — ارجع إلى فرجيل ، النشيد الرابع .

١٣٠ — أشعياء ، ٥٢ ، ١٤ .

١٣١ — ارجع إلى الصفحات السابقة بصدد ذلك .

١٣٢ — « من الجمال » .

١٣٣ — يوحنا ، ٣ ، ٨ .

١٣٤ — « حلم ليلة فى منتصف الصيف » .

١٣٥ — الفصل الثانى .

١٣٦ — « خارميدس Charmides » هو الشخصية الرئيسية فى حوار أفلاطون ، حيث يبدو كشاب جميل يصور الموضوع الرئيسى ، وهو الاعتدال . أما قصيدة وايلد الطويلة التى تحمل نفس الاسم فإنها تقوم على شخصية خيالية .

١٣٧ — « انى الراعى الطيب » (يوحنا ، ١٠ ، ١١ و ١٤) .

١٣٨ — « انظر إلى زنابق الحقل ، كيف تنمو ! إنها لا تكدح ولا تدور » ، (متى ، ٦ ، ٢٨) .

١٣٩ — « لقد انتهى الأمر » ، (يوحنا ، ١٩ ، ٣٠) .

١٤٠ — مرقص ، ٧ ، ٢٦ — ٣٠ .

١٤١ — ارجع إلى « ورد سورث » فى قوله : « إننا نعيش بالإعجاب ، والرجاء والحب » ، (الرحلة ، ٤ ، ٧٦٣) .

١٤٢ — « المطهر » ، ١٦ ، ٨٦ — ٨٧ .

١٤٣ — متى ، ٦ ، ٢٤ و ٢٥ .

١٤٤ — ارجع إلى « دانتى » ، (الفردوس ، ٣٠ — ٣٢) .

١٤٥ — ارجع إلى « أرسطو » ، (الأخلاق ، ٦ ، ٢) ، وإلى « بيندار Pindar » (أوليمبيا ، ٢ ، ١٧) .

١٤٦ — مؤلف كبير يصور المتشابهات فى حياة المسيح والقديس فرانسيس ، كتبه « الأخ بارتولوميوس د بيزا » فى القرن الرابع عشر ، وطبع لأول مرة فى عام ١٥١٠ .

١٤٧ — « اعرف نفسك » ، عبارة كانت محفورة على مدخل معبد أبوللو فى دلفى .

١٤٨ — « بول مارى ڤرلين Paul Marie Verlaine » (١٨٤٤ – ٩٦) ، دخل السجن لأنه جرح « ريمبو Rinboud » بطلقة من مسدس . أما الأمير « بطرس ألكسيفتش كروبتكين » ، وهو مؤلف روسى ، وعالم فى الجغرافيا وفوضوى(*) ، فقد سجن بسبب آرائه السياسية وأعماله . للوقوف على رأى « كروبتكين » فى خطاب « د برفوندى » (١٩٠٥) ارجع إلى (« روبرت روس ، صديق الأصدقاء » ، ١٩٥٢ ، صفحات ١١٢ — ١١٤) .

(*) الفوضوية Anarchie مذهب سياسى واجتماعى يدعو إلى التحرر من الوصاية الحكومية . « المترجم »

١٤٩ — « ماجور جيمس أوزموند نلسن » ، الذى تولى إدارة سجن ريدنج فى يوليو ١٨٩٦ .

١٥٠ — « دانتى » ، « الفردوس » ، ١ ، ٢٠ .

١٥١ — « مارسياس Marsyas » كان بشرا ، تحدى أبوللو فى مباراة موسيقية ، فسلخ حيًّا قصد تعذيبه . وقد اتخذ وايلد من هذه الأسطورة مغزى فى كل كتاباته .

١٥٢ — « امبيدوكليس فوق إتنا » :

أواه ، ذلك الحظ جعلنى أرى

ذلك الانتصار للقيثارة المستحيلة الجليلة ،

ذلك الانتصار النهائى الشهير ،

حينما تآمر « پان »(*) الحسود مع مارسياس .

١٥٣ — « مارســياس ، ذلك الراعى التعيس » ، (امبيدوكليس فى إتنا) .

١٥٤ — « بعض ما نفــكر فيه من حزن نبيل سيمير أيامنا ما تتضمنه المأساة من عزة أرجوانية » ، (« الناقد كفنان » ، الجزء الأول من « مقاصد ») .

١٥٥ — « امرسن Emerson » : « مقال عن الخبرة » .

١٥٦ — الصحيح هو ٢٠ من نوفمبر .

١٥٧ — الفصل الأول .

١٥٨ — « كليبورن Clibborn » ، وقد أشير إليه فى محاكمة كوينزبرى باسم Cliburn كان مشهرا محترفا . وقد أخفق فى ابتزاز نقود من

(*) اتنا Etna بركان فى سيشل ، وبان Pan هو إله الرعاة .
« المترجم »

وايلد فيما يتعلق بخطابه إلى لورد ألفرد دوجلاس (انظر تعليق ٣٥) ، وهو الخطاب الذى سرقه من دوجلاس واحد من عصابة من الشهرين .
وقد حكم على كليبورن فيما بعد بالسجن سبع سنوات مع الأشغال الشاقة بسبب جرائم تشهيرية .

أما اتكينز (لتقصى نبأه انظر تعليق ٧١) فربما جاء ذكره هنا التباسا باسم مشهر آخر يدعى « ألن Allen » كان شريكا لكليبورن .

١٥٩ — الكلمات الخمس الأخيرة هى عنوان الجزء الثالث من كتاب بلزاك « مظاهر جلال البغايا وتعاستهن » ، الذى وصلت فيه حياة « لوسيان د روبمبرى Lucien de Rubempré » إلى نهايتها المؤلمة المؤسية بعد أن افتقرت إلى التوجيه السديد . وقد سجل « أو سوليڤان » لوايلد قوله : « حينما كنت صبياً أغرمت بشخصيتين وهما « لوسيان د روبمبرى» و « چوليان سوريل » [وهما الأحمر والأسود فى رواية ستندال] .
وقد شنق لوسيان نفسه ، ومات چوليان كذلك على المشنقة ، أما أنا فقد متُّ فى السجن » .

١٦٠ — مشهِّر شهد فى محاكمات وايلد .

١٦١ — هو الشقيق الأكبر لدوجلاس ، برسى شولتو ، لورد دوجلاس عن « هاويك Hawick » (١٨٦٨ — ١٩٢٠) . تزوج فى ١١ من سبتمبر ١٨٩٣ من « حنا ماريا والترز » فى بويتون ، لونسستون ، كورنوال . ثم خلف والده فى عام ١٩٠٠ كالماركيز التاسع من آل كوينزبرى .

١٦٢ — « مانون چان فليبون Manon Jeanne Phlipon » (١٧٥٤— ٩٣) ، كانت تتميز بطابع الرجولة ، وكانت مضيافة تستقبل رجال الفكر والأدب فى صالونها. وقد تزوجت فى عام ١٧٨١ من «چان مارى

رولان Jean Marie Roland » (١٧٣٤ — ٩٣) ، وكان يشغل منصباً في حكومة الثورة . ثم وقعا بعد ذلك في مكائد « مارا Marat » ، وقبض على مدام رولان ، فكتبت ترجمة حياتها في « مكان البواب » ، ثم أعدمت بالجيوتين بعد أن قالت عبارتها المشهورة : « أيتها الحرية ! كم من جرائم تقترف باسمك ! » . وبعد يومين من إعدامها أقدم زوجها على قتل نفسه .

١٦٣ — الكلى الاحترام « جورج وندهام George Wyndham » (١٨٦٣ — ١٩١٣) ، ابن المحترم « برسي سكاون وندهام » ، وحفيد لورد لكونفيلد الأول . كان عضوا بالبرلمان عن دائرة « دوڤر » منذ عام ١٨٨٩ ، وسكرتيراً خاصاً لمستر « بلفور » في السنوات من ١٨٨٧ حتى ١٨٩٢ . وقد وصل بعد ذلك إلى منصب وزير . كتب عدداً من الكتب في موضوعات أدبية . وكان من أقرباء لورد ألفرد دوجلاس .

١٦٤ — في عام ١٨٨٧ قامت زوجة كوينزبرى الأولى بتطليقه ، فتزوج في عام ١٨٩٣ من آنسة تدعى « ايثل ويدن Ethel Weeden » . وقد حصلت ايثل كذلك على أمر بإبطال الزوجية في ٢٤ من أكتوبر ١٨٩٤

١٦٥ — لا يوجد مثل هذه الاشارة في كل تمثيليات وايلد التي طبعت . غير أنها كانت جزءا من خطاب طويل في مفتتح الفصل الثالث من « امرأة بغير أهمية » . وقد أقنعه « ترى » بحذفه . انظر « بيربوم ترى » بقلم « هيسكث بيرسن » (١٩٥٦) ، صفحة ٦٩ .

١٦٦ — في يوم ٢٥ من مايو ١٨٩٥ ، وهو اليوم السادس والأخير من محاكمة وايلد النهائية ، بينما كان القاضي يلخص الحكم ، جرى الحوار التالي :

رئيس المحلفين : بالنظر إلى ما كان بين لورد ألفرد دوجلاس وبين

وايلد من صحبة ، هل صدر قط أمر بالقبض على لورد ألفرد دوجلاس ؟

القاضى ويلز : أعتقد أنه لم يحدث ، فنحن لم نسمع بشىء من ذلك .

رئيس المحلفين : هل حدث قط تفكير فى ذلك ؟

القاضى ويلز : كلا ، على حد علمى ، فمثل هذا الأمر لا يمكن أن يصدر ما لم يكن هناك دليل يقوم على شىء من الواقع ... شىء أكثر من أن يكون مجرد صداقة . إنى لا أستطيع أن أقول شيئاً ، بل إننا لسنا فى حاجة إلى البحث فى ذلك ، لأن لورد ألفرد دوجلاس قد يواجه اتهاما . وربما كان هناك ألف احتمال لا نعلم عنها شيئاً قد تحول دون ظهوره كشاهد . وأرى أن الواجب عليكم هو أن تتصرفوا فى الأمر على أساس الدليل الذى أمامكم .

رئيس المحلفين : ولكن يبدو لنا أنه إذا كان لنا أن نعتبر هذه الخطابات دليلا على جرم ، وإذا كان لنا أن نستنتج أى جرم من هذه الخطابات ، فإن الأمر ليس أقل انطباقاً على لورد ألفرد دوجلاس منه على المدعى عليه .

القاضى ويلز : تماماً . ولكن كيف يمكن أن يعفى ذلك المدعى عليه ؟ إن تحقيقنا الحاضر هو ما إذا كان هناك جرم يرجع إلى الرجل الواقف فى القفص ، وقد حصلنا على شهادة على جرمه لنبحث الآن فيها . إنى أعتقد أن تسلم مثل هذه الخطابات والاستمرار فى الصداقة لا يقل خطورة على سمعة المتسلم منه على سمعة المرسل . ولكنكم فى الواقع لا تستطيعون أن تفعلوا شيئاً فى هذا الشأن فى الوقت الحاضر .

هناك ميل فطرى إلى إلقاء مثل هذا السؤال : « لِمَ يجب أن يقف هذا الرجل فى القفص وليس لورد ألفرد دوجلاس ؟ » — غير أن الافتراض بأن لورد ألفرد دوجلاس سيستبقى لأنه لورد ألفرد دوجلاس

من أشد أنواع التقدير ظلماً . فالأمر مستحيل بصورة تامة لارجاء فيها ، ويجب ان اذكركم بأن أى شيء يمكن أن يقـال لمصلحة لورد ألفرد دوجلاس أو ضده يجب الا يسمح بأن يؤدى إلى الاجحاف بحقوق السجين . ويجب أن تتذكروا أنه لم يكن من الممكن أن يقوم ادعاء على مجرد تقديم خطابات وايلد إلى لورد ألفرد دوجلاس . وكما تعلمون جميعاً فإن لورد ألفرد دوجلاس قد ذهب إلى باريس بناء على طلب المدعى عليه ؛ وقد بقى هناك . ولست أعلم عنه شيئاً بتاتا . ولست فى هذا بأكثر منكم علما . وربما لا تكون هناك بينة ضد لورد ألفرد دوجلاس . ولـكن حتى حول هذا الأمر فإنى لا أعلم شيئاً . إنه أمر لا نستطيع أن نبحث فيه . وإذا سلمنا بأى اعتبار كذلك الذى ذكرت فسيكون فى ذلك أسوأ أنواع الاجحاف .

١٦٧ — «ادريان تشارلس هوب Adrian Charles Hope » (١٨٥٨ — ١٩٠٤) ، كان يعمل سكرتيراً لمستشفى أطفـال فى شارع « جريت أورموند » منذ عام ١٨٨٨ . وقد بقى الحارس الرسمى لطفلى وايلد بعد موت وايلد وزوجته . وكان متصلا بكونستانس وايلد عن طريق علاقة زواج .

١٦٨ — « ديوجينيس الـكلبى Diogenes the Cynic » ، فيلسوف إغريقى عاش من عام ٤١٩ حتى عام ٣٢٤ قبل الميلاد . وكان زاهداً ساخراً ، اتخذ له بيتاً شيئاً كالبرميل ، يحمله حيث ذهب .

١٦٩ — ربمـا كان « فرانك هاريس » ، حسبما جاء عنه هو نفسه . ولـكن الأكثر احتمالا أن يكون « شيرارد » ، إذ أنه سجل اعترافا ممـاثلا .

١٧٠ — المدعى العام ، سير « فرانك لوكوود Frank Lochwood »

(١٨٤٧ — ٩٧) ، وقد قام بتوجيه الادعاء فى المحاكمة الثانية لوايلد .

١٧١ — « الناقد كفنان » ، الجزء الثانى .

١٧٢ — « كشهيد شاحب الوجه فى قيصه من اللهب » ، (الكسندر سميث ، تمثيلية حياة ، المشهد الثانى) .

١٧٣ — ليس هذا « بروتس » شكسبير فى تمثيليته « يوليوس قيصر » ، بل هو « جونيوس بروتس Junius Brutus » الذى تولى نفى « تاراكان Tarquin » آخر ملوك روما .

١٧٤ — انظر تعليق ١١٢ .

١١٥ — « إيفيجينا فى توريس Iphigenia in Tauris » ١١٩٣ .

١٧٦ — « إن حملات النقد والثناء تتناولنى قدحا ومدحا بغير أن تعرف شيئا عن حقيقتى ... عن قيمتى كلها . فهى لم تتكلم قط عن هذه الحقيقة ، وهى أننى إنسان وجد لأجله العالم المنظور » (جوتيه Jautier)، كما جاء فى عدد أول مايو ١٨٥٧ من صحيفة « جونكور » . وقد استعمل وايلد هذه العبارة فى الفصل التاسع من « دوريان جراى » فى وصفه لدوريان .

١٧٧ — « لوقا » ، ١١ ، ٥ — ٨ .

١٧٨ — « كيتس » ، « قصيدة عن القصيدة » .

١٧٩ — سيكون السؤال : « ماذا ! حينما تشرق الشمس ، أوَ لا ترى قرصاً مستديراً من اللهب ، شيئا ما يشبه الجنيه ؟ » .

أواه ، كلا ، كلا ، بل أرى عدداً لا يحصى من سكان السماء يهتفون : « قدوس ، قدوس ، قدوس ، الرب ، الله القادر » ، (« رؤيا من يوم الدينونة ») .

شكر وتقدير

لايفوتنى هنا أن أوجه الشكر إلى الدكتور سعد الخادم . فقد كان أول من شجعنى على ترجمة هذا الكتاب . ولو لم يكن فعل ما أقدمت على ترجمته فى مثل هذه الظروف . فهو بذلك قد ساهم بالرأى فى ظهوره ، ولذلك استحق كثيراً من الفضل .

* * *

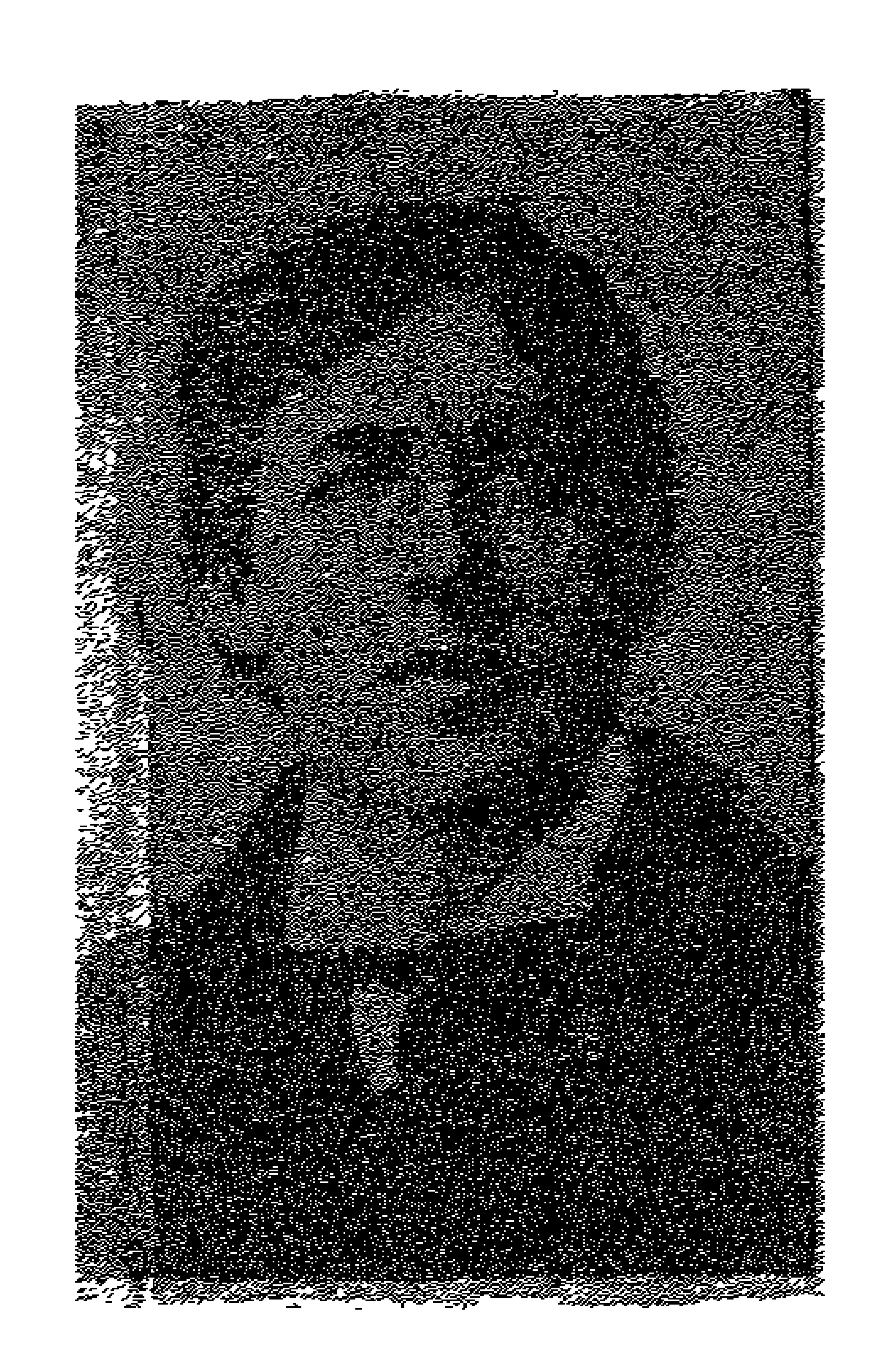
وبعد ، فقد شاءت الظروف ألا يقسى ظهور هذا الجزء إلا بعد رحيل المترجم إلى الكويت للبحث عن عمل . وقد كان ذلك بالأسباب التى أشار اليها فى المقدمة ، وهى عدم توفقه إلى الحصول على أى عمل ، بالرغم من كثرة بحثه وسعيه ، وذلك بعد أن عاد إلى وطنه ، مضحياً بعمل لم ينح عنه بل تركه باختياره .

وهو إذ يختتم هذه الترجمة يترك للقارىء الكريم تقدير الأمر على ضوء مالمسه فى هذا القدر الضئيل من مجهوده . فاذا ما كوّن لنفسه رأياً فى معرفته ومقدرته فهو لن يستطيع إلا أن يفكر فى مثل هذا السؤال . فاذا كان هذا حظ من يخلص للناس بدافع من موهبة تجلت فيه أو فيض من معرفة قضى عمره فى تحصيلها ، فما هى الفائدة من كل هذا العناء ؟ بل ما هى قيمة الحياة فى اعتبار من لايبتغى منها عرضاً زائلا ، ولا يسعى إلى غرض شخصى ، بل يرى أن يكرس نفسه لخدمة الناس جميعاً بابداء فكرة ربما كانت نافعة لهم فى حاضرهم أو وضح صوابها فى مستقبلهم ؟

بالطبع لن يكون هناك رد عملى على مثل هذه الأسئلة ؛ فحتى لو وجد القارىء جوابا منطقياً يكون فيه إنصاف لا للمترجم وحده بل لآلاف المتعثرين والضائعين الذين يحملهم الاخلاص لغيرهم على التعرض للمتاعب وتحمل مايشق على النفس الحرة الأبية ، فإنه لن يجد طريقا لابدائه .

لذلك يرى المترجم أن يترك الأمر لله وحده . فهو الكفيل بإحقاق الحق والقضاء على الباطل . وهو تعالى القائل : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

دعوة التوحيد التى دعا إليها المترجم مخلصاً فى كل ماكتب ، فأدى به تفانيه فى الوصول إلى هذه الغاية الانسانية الكبرى إلى ماهو فيه من حال . فحسبنا الله ونعم الوكيل . وكفى به شاهداً ونصيراً .



إنني لا أدافع عن سلوكي ، بل أوضحه ..

هكذا كتب اوسكار وايلد من سجن ريدنج حيث حبس بسبب مخالفة قوانين انجلترا الصارمة ضد اللواط .

فمن العلاقة الغرامية التي نشأت بين وايلد وابن ماركيز كوينزبري ، لورد ألفرد دوجلاس ، وما نتج عنها من شجار ، حملت الماركيز على أن يهاجم وايلد علانية في خلقه وسلوكه . فقابل وايلد ذلك برفع الأمر إلى القضاء باعتباره مجرد افتراء ! ولكن ما كانت دهشته حينما أدى ذلك إلى سلسلة من المحاكمات التشهيرية والإدانات . وفي زنزانة السجن كتب رسالته الشهيرة « دي بروفنديس » De Profundis ، فجاءت القصة بحيث لا ... لغرامه ومأساته .

وهذا الكتاب يحتوي على النص الفعلي لهذه الوثيقة الشهيرة ينشر لأول مرة ، كما ننشر معه قصيدة وايلد العنيفة :

القصيدة الشعرية عن سجن ريدنج

الجزء الثاني والأخير

مطبعة و...
مؤسسة ...
٢٢ شارع ...

الثمن ٢٥ او ما يعادله